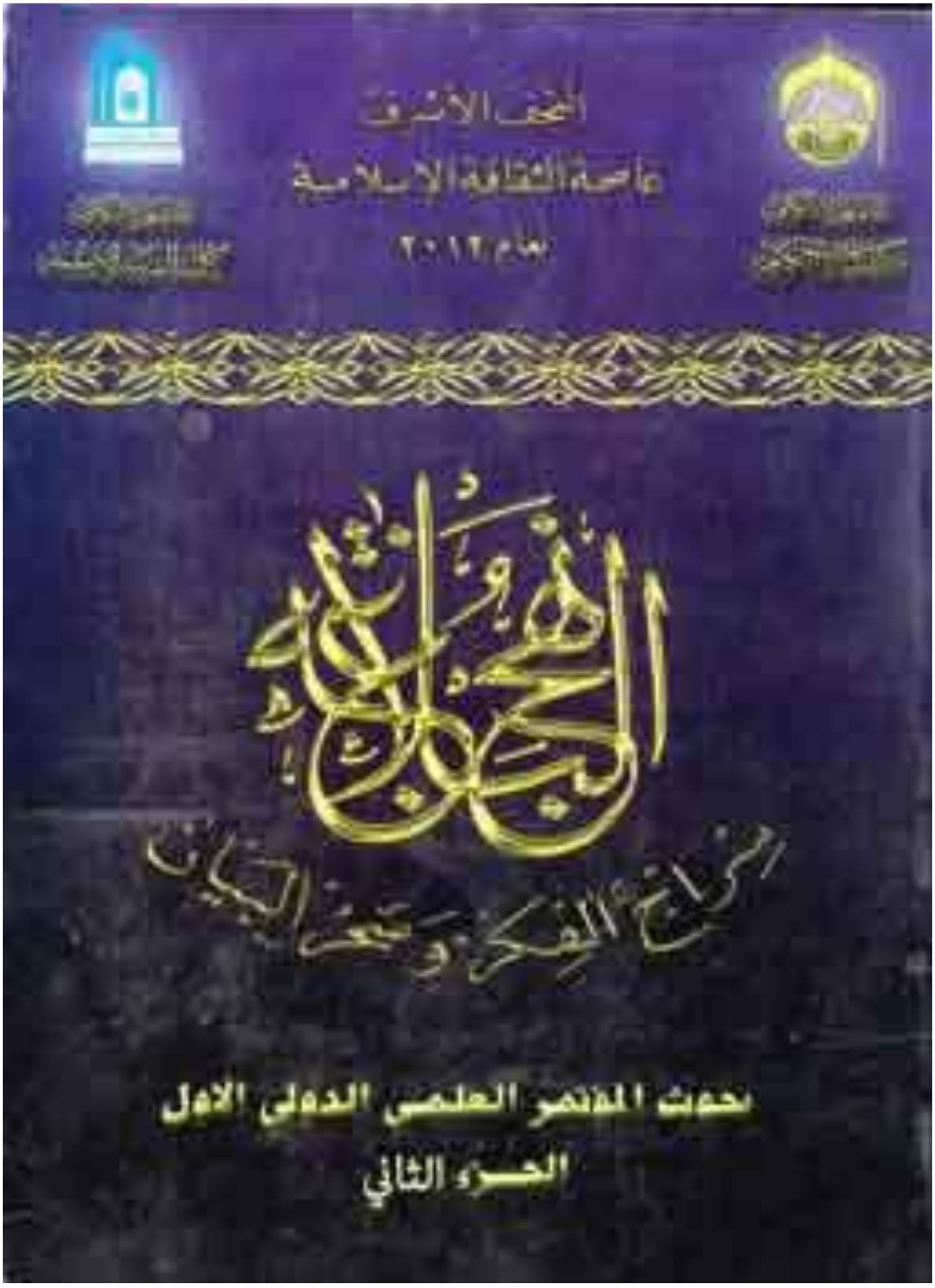
المجلس الأعلى
لشؤون الثقافة الإسلامية
عام ٢٠١٢
أهل البيت
عليهم السلام
في مراث الفكر وتحقيق البيان
بحوث المؤتمر العلمي الدولي الأول
الجزء الثاني

البنية الصوتية (الأمد الكثافة)

للخطبة العلوية في نهج البلاغة (رد التحية إلى الله)

الاستاذ المساعد الدكتور: أرشـد الشيخ علي البهادلي(الجامعة المستنصرية – كليةالتربية)

المقدمة:

الخطبة العلوية والكلام العلوي:

المراد من الخطبة العلوية في هذه الدراسة هو الأسلوبية المتفردة في الخطابة من كلام الامام علي عليه السلام الذي أفضل وصفه ب(الكلام العلوي).

والكلام العلوي – والخطبة منه - من غير شك هو النموذج (العربي) للغة العليا[1].

والكلام العلوي هو نص لغوي بسمات متفردة في أدبيته، وتلقيه منفتح على حزمة المستويات الألسنية:الصوتية والتركيبية والدلالية فيه، بما يتجاوز التأثير (الإقناعي) الوظيفي المحدد للخطبة إلى التأثيرات الأدبية والجمالية.

الخطبة العلوية – وهذا من سمات تفردها – عابرة للمحددات الزمانية والمكانية، والمحمولات الدلالية الوعظية والالهية والروحية عميقة فيها، غير ان ملامستها لواقع الهم الوجودي للإنسان في كدحه، وفقره، أو غناه، وخوفه ورجاه، حياته وموته ومابعدهما مضطردة الورود كذلك.

الخطبة العلوية بهذا حبل هي الاخرى ممدود من الأرض إلى السماء، بموازاة حبل القرآن الكريم الممدود من السماء إلى الأرض.

أو قل انها الرد البشري بفم علي على تحية الله العظيمة للبشرية (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها).

موضوع الدراسة هو الخطبة العلوية، وهدفها استكشاف الأسلوبية الصوتية للخطبة العلوية بنماذج مختارة للوقوف على السمات التي يمكن كشفها بوساطة منهج علمي يستخدم المقاربة الصوتية لمفهوم البنية الصوتية لنص أدبي. أعني بالكلام العلوي مجمل الكلام الذي نسب إلى الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وما يدفعني إلى اختيار مصطلح الكلام العلوي هو الشعور بفرادته وتميزه عن سائر الكلام العربي (البشري طبعا)، وتتبع تلك الفرادة عن أسلوبية وسمت كلامه بسمات خاصة. ولكني وللإنصاف فقد اخترت مصطلح الكلام العلوي بفعل مسوغات أثيرة إلى نفسي لاأجد ضيرا من كشفها والتصريح بها، ففي لفظة (العلوي) نسبة الكلام لالبس فيها إلى علي، وهذا يعلن موقفا ممن لغط وشكك بصحة النسبة.

وتختزن اللفظة موروثا من المدلولات الأثيرة إلى نفس كل محب للإمام علي، إذ ان الدوحة العلوية تفيء على من استظل بها نسبا شريفا موصولا بالائمة المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فكأن الكلام العلوي (وهو حقا كذلك) كلام الائمة جميعا لأنهم كلهم علويون.

ولا أخالني مغاليا إن أشرت إلى المصاقبة والمجانسة بين العلوي (بفتح اللام) والعلوي (بضم العين وسكون اللام) فان قلت الأولى فقد أصبت وإن تلفظت بالأخرى فما عدوت الصواب، أعني إن للقارىء أن يدرك أني أردت الأمرين فليقرأ بما شاء: علويا من علي أو علويا من العلو (وما الفرق بين علي والعلو؟).

الكلام العلوي هو حتما أوسع وأكثر مما جمع واختير في كتاب نهج البلاغة، فنهج البلاغة بعض من الكلام العلوي وجزء منه.

يقول الشريف الرضي في مقدمة الكتاب: (ولا أدعي انني أحيط بأقطار جميع كلامه عليه السلام حتى لايشذ عني منه شاذ ولايند ناد بل لا أبعد أن يكون القاصي عني فوق الواقع إلي)[1].

---

١ . اللغة العليا هو المصطلح الذي اطلقه (جان كوهن) خاصا به الشعر، وأرى ان الكلام العلوي في اللغة العربية هو مايستحق وصف اللغة العليا (وعن كلام علي قيل دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق) شرح نهج البلاغة – ابن ابي الحديد – ج١ – ١١.

وعملية الإختيار تلك –بذاتها – تشكل إجراءا أسلوبيا مارسه الأديب الشاعر الشريف الرضي، ولكنها أسلوبية قرائية، فلنا أن نتصور عملية الانتقاء التي قام بها الشريف بوصفها بحثا واعيا للسمات التي تجمع بين كل ما تحصل لديه من كلام علي (عليه السلام)، والشريف يفصح عن ذلك في مقدمة الكتاب مبينا ان أول ما ابتدأ بجمعه (محاسن ما نقل عنه عليه السلام من الكلام القصير في المواعظ والحكم والامثال والاداب دون الخطب الطويلة والكتب المبسوطة).

والإختيار، ما هو إلا محور واحد من محوري الأسلوب، أعني الإختيار والتأليف.

ومع محور التأليف اكتملت القراءة الأسلوبية للشريف الرضي فوضع ترتيبا معاكسا ابتدأ من الكلام الطويل إلى القصير، إذ أوضح (ورأيت كلامه عليه السلام يدور على أقطاب ثلاثة أولها الخطب والأوامر وثانيها الكتب والرسائل وثالثها الحكم والمواعظ) بهذا التصنيف المنتقى والإختيار المؤلف كشف الشريف عن الموجه (البلاغي) في قرائته.

إن وضع اسم الكتاب يبدو كافيا للتدليل على ذلك الموجه، وقوله معللا سبب وضعه لذلك الأسم (ورأيت من بعد تسمية هذا الكتاب بنهج البلاغة إذا كان يفتح للناظر فيه أبوابها ويقرب عليه طلابها) ثم يورد فوائد اخرى (فيه حاجة العالم والمتعلم وبغية البليغ والزاهد ويمضي في اثنائه من عجيب الكلام في التوحيد والعدل وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن شبه الخلق ما هو بلال كل غلة وشفاء كل علة وجلاء كل شبهة).

الموجه البلاغي هو ما اعتنى به الشريف الرضي من الكلام العلوي أساسا[٢]. وهو أكثرما علق بنفوس الشراح ومن اشهرهم ابن ابي الحديد المعتزلي[٣].

لكننا في هذه الدراسة نميل إلى استخدام (الأدبية) في الخطبة العلوية.

كيف يمكن تصنيف الكلام العلوي في نهج البلاغة ؟

ظاهريا يصنف إلى خطب، ورسائل، ومقولات حكمية تجري مجرى المثل في صياغتها.[٤]

وهذا التصنيف يدرج مجمل الكلام العلوي في جنس (النثر).

والنثر البليغ تحديدا تمييزا عن النثر الاخر غير البليغ.

ويمكن اقتراح انماط تصنيفية اخرى، مثل اعتماد موضوعة الكلام العلوي أو غرضه، بين غرض عقائدي إلهي وروحي وتعبدي وتشريعي فقهي أو غيبي وملحمي، وتاريخي، وحكمي.

لكن ما يلفت الانتباه حقا هو كيفية إنجاز مقاربة تصنيف للكلام العلوي تستند إلى مفهوم (الأدبية)؟

أو يمكن ذلك ؟

أعني ان الباحث يشعر أن مقاربة – باردة الدم – للكلام العلوي تعني إخفاقا محققا. فليست المستويات الألسنية المعروفة بقادرة على إنجاز أكثر من وصف هيكلي، أو وظيفي للجملة في

---

١ . وربما توهم بعضهم ان الكلام العلوي كله مثبت في نهج البلاغة (والذي أوقعهم في هذا الوهم انه بمجرد ان يقال بلاغة علي نرى الذهن يقفز سريعا إلى ماضمه نهج البلاغة بين دفتيه من دون اجالة روية أو سابق تفكير)، مصادر نهج البلاغة واسانيده - عبد الزهراء الحسيني- ج١ - ٤٥ الهامش. ومن الباحثين من تصدى لجمع ما لم يأت به السيد الرضي في نهج البلاغة من الكلام العلوي. وأهم هذه المحاولات هو كتاب (نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة) ل(الشيخ محمد باقر المحمودي) في ثمانية مجلدات حيث يقول:(وبحمد الله ومنته قد جمعنا من كلم امير المؤمنين عليه السلام في المواضيع الثلاثة التي اختارها السيد الرضي وغيرها ضعف مافي نهج البلاغة) ج١، ١٢.

٢ . (ان الشريف لم يجمع النهج ليجعل منه مصدرا من مصادر الفقه،أو مدركا من مدارك الاحكام،بل كان جل قصده ان يخرج للناس جانبا من كلام امير المؤمنين عليه السلام الذي يتضمن من عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربية. . .) مصادر نهج البلاغة واسانيده، عبد الزهراء الحسيني، ج١، ٢٧. وهو الموجه الذي حاول الشيخ محمد باقر المحمودي أن لايضعه في مركز عنايته عندما جمع الكلام العلوي في كتابه نهج السعادة ولنلاحظ كيف اختار صفة السعادة بدلا عن البلاغة ويقول (انا لانقتصر على خصوص كلمه عليه السلام البليغة وألفاظه الرشيقة وان كان جل ألفاظ اقواله مذهبا برونق الفصاحة ونوع كلمه مطلي بماء البلاغة ومحلى بحلية الايجاز) نهج السعادة، الشيخ محمد باقر المحمودي، ج١، ١٥.

٣ . عدّ بعض الباحثين نحواً من ٣٧٠ مؤلفاً حول نهج البلاغة من الشرح والتفسير والترجمة وغيرها، وقد طبعت إلى الآن نحو من خمس عشرة ترجمة لنهج البلاغة.

٤ . احتوى نهج البلاغة على ٢٤١ خطبة، و٧٩ كتاباً، و٤٨٠ حكمة من حكم علي(ع).

الكلام العلوي، وهذه من أكبر المحن على قلب الباحث أن يحيل تحفة معمارية خالدة أكواما من الحجر والحديد والمسامير. الصمت المندهش أمام الكلام العلوي إحدى خيارات الباحث، ولكن سيضيع منك التعبير عن الأندهاش الذي أحسسته وتود أن يشاركك به آخرون، ستفقد أمثولة الامام علي عقلا متدبرا وإن بقيت خالدة، وربما بأسف شديد سيبدو عليه السلام منكسرا في جامع الكوفة على رسالته التي طوت الأزمنة لتصل أسماعنا ففتحنا أفواهنا من دون أن نفتح أعيننا وعقولنا.

بهذا الأحساس الذي يخرق صفة العلمية بعاطفته المتأججة، سأدنو من حضرة الكلام العلوي، لأحاول أن أصف البنية الصوتية للخطب مستثمرا معطيات ألسنية عن المقطع الصوتي ومستندا إلى ان الكلام العلوي سينظر إليه من وجهته الأدبية.

ولاأدعي أن هذه الدراسة سلمت من الهنات والهفوات، ولكنني أزعم انها اختطت سبيلا بكرا بمعالجة تحليلية لنص متفرد، قاله شخص فذ أوحد.

ستقتصر هذه الدراسة على قضيتين صوتيتين هما الأمد والكثافة الصوتية، في دراسة الاسلوبية الصوتية للخطبة العلوية.

ويزعم الباحث ان قضية (الأمد) قضية جديدة لم تدرس من قبل.

من الصعوبات التي واجهت الباحث هي اتساع النموذج المدروس بكثرة الخطب وطولها – بعض الاحيان – مما يدعوه إلى التمثيل المبتسر.

إن مايتمناه الباحث أن تشكل هذه الدراسة حافزا لتدشين دراسة أعمق وأكثر اتساعا عن الخطبة العلوية، وربما يكفي هذه الدراسة أن تؤسس لمثل ذلك المشروع الضخم.

مداخل نظرية:

١ – خطب – خطبة - خطابة

قال الفيروزابادي في القاموس المحيط: (الخَطْبُ الشأن والأمر صَغُرَ أو عَظُمَ جمعها خطوب، وخطبَ المرأة خَطْبَاً، وخِطْبَةً وخطّيبيَّ بكسرهما، واختطبها وهي خِطْبُهُ وخطِبَتُه وخطّيباً، وخِطيبته وهو خِطْبها بكسرهن وبضم الثاني جمع أخطاب، وخطّيبها كسكّيت جمع خطيبون، وتقول الخاطب خطب بالكسر وبضم، والخطاب كشداد المتصرف في الخطبة، واختطبوه دعوه إلى تزويج صاحبتهم، وخطب الخاطب على المنبر خَطابة بالفتح وخُطبة بالضم وذلك الكلام خُطبة أيضاً ... ورجل خطيب حسن الخُطبة بالضم).[١]

ويعرف أبو الفرج قدامة بن جعفر في كتابه (نقدُ النثر) الخطابة بقوله:(إن الخطابة مأخوذة من خطبت أو خطب خطابة كما يقال كتبت أكتب كتابة، واشتق ذلك من الخطب، وهو الأمر الجليل لأنه إنما يقام بالخطب في الأمور التي تجل وتعظم، والاسم منها خاطب مثل راحم، وإذا جعل وصفاً لازماً قيل خطيب، كما قيل في راحم رحيم أبلغ في الوصف وأبين في الرحمة، وكذلك لا يسمى خطيباً إلا من غلب عليه وعلى وصفه، وصار صناعة له، والخطبة الواحدة من المصدر كالقومة والضربة من الضرب، وإذا جمعتها قلت خطب مثل الجمعة وجمع.

والخطبة اسم المخطوب به وجمعها خطب مثل كسرة وكسر، والخطبة والخطاب اشتقا من الخطب والمخاطبة لأنهما مسموعان)[٢].

ان التعريف اللغوي لمفردة (خطب) عند الفيروزابادي مأخوذ من (الشأن والأمر صغر أوعظم) أما قدامة فعنده مأخوذ من(الأمر الجليل).

ثمة اتساع لمفهوم الخطب(الأمر أو الشأن) عند الفيروزابادي، وتحدد عند قدامة (الأمر الجليل).

ولكن كيف نفهم (الأمر والشأن) ؟

---

١ . القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، ج١، ٦٥.

٢ . نقد النثر، قدامة بن جعفر، ٩٤، ٩٥.

ربما كان (الموضوع) هوالأقرب إلى المراد ب(الأمر والشأن)،بوصفه (مادة) ما، مرتبطة بوجود الإنسان وقابلة للتعاطي والتداول فكريا ومن ثم لسانيا من خلال الكلام.
أتصور مفهوم (الخطب = الأمر أو الشأن)، موضوعا إنسانيا، يعامل فكريا، فينتج (الخطابة) التي هي المعالجة القولية واللفظية للفكر الإنساني لذلك الموضوع.
هذا إذا وافقنا المفهوم عند الفيروزابادي، ومع قدامة نحتاج إلى إضافة وصف محدد للتصور السابق، وهو ان الموضوع الإنساني يجب أن يتصف بالأهمية القصوى، وتلك الأهمية هي التي تمنحه امتياز التداول الفكري ومن ثم تنتج القول (الخطابة).
ولكن ماالذي يمنح (موضوعا إنسانيا ما) صفة (الاهمية) ؟ فما يكون مهما عند شخص قد يكون عاديا أو ثانويا عند شخص اخر، وما يجل ويعظم عند قوم قد يصغر ويهون عند آخرين، فضلا عن اختلاف الأزمنة أو الأمكنة التي تؤثر في منح أي موضوع إنساني قيمة معينة.
بهذا نجسر هوة الاختلاف في وجهة النظر بين الفيروزابادي وقدامة، فالأول كان أكثر عمقا في فهم(الخطب) لأنه أدرك (التعددية) في(الأحساس الإنساني) بما يشعر به (الخاطب أو الخطيب) أو من يراقبه، أما قدامة فكان (شخصانيا) إذ حصر الإدراك بما يشعر به (الخاطب) فحسب.
مسألة أخرى تستحق النظر برأيي، وهي (الرغبة) في (الموضوع = الخطب، الأمر، الشأن) التي تحرك فكر الإنسان نحوه وتعطيه الأهمية ليكون المركز. وعندما أقول الرغبة فاني أعني (المشاعر الإنسانية على إطلاقها)، و (الدعوة إلى الزواج) ذلك الموضوع الذي نجده دوما في تعريف الخطبة، إنما هو انعكاس للرغبة التي تتفاعل في النفس الإنسانية فكريا لتنتج (خطبة) (بتحريك الخاء بالكسر) تمييزا لها عن ال(خطبة) (بتحريك الخاء بالضم).
وسأضيف إلى المسائل المهمة في فهم الخطابة[1]، الشفاهية، أو الأداء الصوتي المرتبط بها بنائيا، فالخطابة تلقى وتؤدى شفاهة، ذلك أساسها الأول، وإلى ذلك يلمح قدامة بن جعفر في التفريق بين الخطابة والرسائل من حيث انهما فنان نثريان، ويتضح أثر الشفاهية في الخطابة عنده في استخدامه لمفردتي (مسموعة ومأخوذة) يقول: (الخطابة لما كانت مسموعة من قائلها، ومأخوذة من لفظ مؤلفها، وكان الناس جميعاً يرمقونه ويتصفحون وجهه كان الخطأ فيها غير مأمون، والحصر عند القيام بها مخوفاً محذوراً، فأما الرسائل فالإنسان في فسحة من تحكيكها وتكرير النظر فيها، وإصلاح خلل إن وقع في شيء منها...)[2].
ويقول احمد امين: (الخطابة هي الحديث المنطوق تمييزاً لها عن الحديث المكتوب)[3].
إن الخطابة هي ظاهرة صوتية في المقام الأول، على الرغم مما التبس بمصطلح الظاهرة الصوتية من مدلول سلبي (يعني عجز الفرد أو الامة عن الفعل واكتفاؤها بالكلام)[4].
٢. البحث عن البنية الصوتية
ان محاولة دراسة البنية الصوتية للخطبة - استنادا إلى ماتقدم- أمر مبرر تماما، بل لابد منه، ولكن كيفية دراسة تلك البنية هو موضع التساؤل.
عادة ما تدرس الخطبة – فنيا- على وفق التصنيف النمطي المعروف من كونها ذات مراحل (عناصر) ثلاث:
١. المقدمة ٢. الاثبات (العرض) ٣. الخاتمة (الختام)[5].

---

١ . هنالك مجموعة من المسائل المهمة في ظن الباحث التي قد تسلط اضواء جديدة على مفهوم (الخطابة) واصله الإنساني، تصلح دراسة مستقلة ضمن اطار انثروبولوجي، يمكن تسميتها (انثربولوجيا الخطابة).
٢ . نقد النثر، قدامة بن جعفر، ٩٤، ٩٥.
٣ . النقد الأدبي، احمد امين، ١١٠، ١١١.
٤ . يكثر استخدام المدلول السلبي لمصطلح (الظاهرة الصوتية) في النقد السياسي المتداول، والا فان كل أشكال الأدب المعروفة تتضمن جانبا صوتيا بقدر ما، أما الموسيقى فهي أساسا وقبل كل شيء ظاهرة صوتية. مما يعني كون الظاهرة الصوتية ظاهرة جمالية وان منح المصطلح بعدا سياسيا سلبيا لاينسحب على أبعاده الأدبية والجمالية.
٥ . ينظر:الخطابة أصولها وتأريخها، محمد أبو زهرة،٩٥، و الخطابة العربية ومنهج عبد الحميد كشك،عبد الرحمن محمد موسى، ٥٥.

ويتم رصد وظيفة كل عنصر من خلال تصور (الترتيب أو النسق المنطقي للخطبة)، ومثل تلك الدراسة – وإن كانت مهمة – إلا انها تفتت الخطبة، وتركز على الأثر الأقناعي بوصفه الوظيفة المركزية للخطبة. وتحاول الوصول إلى القواعد التي تجعل من الكلام خطبة وليس شيئا آخر أو تقدم مبادىء لخطبة ناجحة، إنها دراسة في خطابية الكلام.

أما ما تحاول هذه الدراسة إنجازه هو شيء مختلف، لأنها تفترض نصا خطابيا متفردا بسمات أدبية، وهي تسعى لرصد البنية الصوتية له من خلال أدبيته لا خطابيته، وقد يبدو الأمر مبالغا بعض الشيء لكن الباحث مقتنع ان الخطبة العلوية نص أدبي بشعرية عالية ويكفي لضرب الأمثلة فحسب أن نقرأ هذه الأسطر من بعض الخطب العلوية:

- (مفتونون في خير دار وشر جيران، نومهم سهود وكحلهم دموع بأرض عالمها ملجم وجاهلها مكرم).
- (إن محلي منها محل القطب من الرحى، ينحدر عني السيل ولايرقى إلي الطير،فسدلت دونها ثوبا وطويت عنها كشحا وطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذاء أو أصبرعلى طخية عمياء).
- (بنا اهتديتم في الظلماء وتسنمتم العلياء وبنا انفجرتم عن السرار وقر سمع لم يفقه الواعية وكيف يراعي النبأة من أصمته الصيحة).
- (شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعرجوا عن طريق المنافرة وضعوا تيجان المفاخرة، أفلح من نهض بجناح، أو استسلم فأراح، هذا ماء آجن، ولقمة يغص بها آكلها، ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه).
- (اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكا، واتخذهم له أشراكا، فباض وفرخ في صدورهم، ودب ودرج في حجورهم، فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم).

المبدأ الذي تعتنقه هذه الدراسة هو ان الخطبة العلوية نص أدبي، وان دراسته تكون بوصفه نصا شفاهيا تم تدوينه.

سنحتاج أولا إلى تحديد عناصر الخطبة (عموما) لتمييز العناصر الصوتية منها، وهذا يقتضي منا التنبه إلى التفريق بين (الخطبة) بوصفها اداء شفاهيا مسموعا، والخطبة المقروءة[1].

ولكننا أولا سنعرض للبنية الصوتية (لسانيا)، اذ هنالك مجالان لدراسة الأصوات،الأول:علم الأصوات العام (phonetis) الذي يدرس الأصوات في تحققها المادي المحسوس، والخصائص المشتركة للصوت في اللغات المختلفة ويتفرع إلى علوم ثلاثة: ١. الاكوستيكي Acoustic، ٢. والسمعي Auditory و٣. النطقي Articulatory.

الثاني:علم وظائف الأصوات phonology (الفونولوجيا)الذي يدرس القوانين التي تحكم الصوت لذلك يمكن الحديث عن بنية صوتية فونولوجيا للغة العربية من حيث أصواتها (الصامتة والصائتة) وعن مواقع نطق تلك الأصوات، وعن المقاطع التي تتشكل منها، كما يمكن الحديث أو البحث عن أوجه النبر والتنغيم.

ويمكن حصر الوحدات التي تشتمل عليها بنية صوتية لشعر موزون إلى وحدات كبرى ثلاث هي:

١. الوزن.
٢. الاداء:ويشمل الانجاز الشفوي للنص،والانجاز الكتابي.
٣. التوازنات أو الموازنات:وتشمل انواع المماثلة،والتكرارية الصوتية[2].

٣. الوزن - الاعتدال - ألأمد:

لابد من إجراء تعديل اصطلاحي ومناقشة مسألة غاية في الاهمية في هذه الدراسة، اذ ان الوحدات المذكورة سابقا خاصة بالشعر (الموزون)، ونحن متجهون إلى دراسة نص (نثري)، فهل نحن متجهون –إذا - إلى دراسة وزن في النثر.

---

١ . يقول ابن الاثير في الجامع الكبير (ان المتأمل للكلام مكتوبا من غير تصويت ولانطق، إذا عرضه على طبعه السليم وفكره المستقيم، عرف جودة ألفاظه. . . ولاخلطة للسمع في ذلك ولامشاركة) ٣٨- ٣٩.

٢ . ينظر:البنية الصوتية في الشعر، د. محمد العمري،١١.

لن تتبنى الدراسة مسعى اكتشاف أوزان عروضية في الخطب العلوية (وهو ممكن جدا) من قبيل:(ولقد كان الرجل منا والاخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين) ففي اخره وزن (متفاعلن متفاعلن مستفعل من الكامل) أو: (فمرة لنا من عدونا ومرة لعدونا منا) (متفعلن متفاعلن فعلن من الكامل ايضا) أو:(ولعمري لو كنا نأتي مأتيتم ما قام للدين عمود) فوزنها (فعلن فالن فالن فالن فالن فالن فالن فالن فالاتن من الخبب) وهذا بعض من خطبة واحدة فقس على ذلك.

كلا، ليس ذلك من اهتمام هذه الدراسة.

وانما مايهمنا هو اكتشاف البديل الوزني في النثر(الأدبي)، ذلك الذي لايتحدد ببحور، وعدد تفعيلات، وزحافات وعلل وعروض وأضرب.

ولئن اتفقت اغلب مدونات البلاغيين والنقاد العرب القدامى على مكون الوزن بوصفه فارقا اجناسيا يميزه عن ضروب الكلام الاخرى (الاجناس الاخرى)، فلم أجد – على حد علمي واطلاعي – من بحث عن مكون بديل للوزن أو عن وحدة صوتية اخرى مكافئة في الاجناس الاخرى.

ولكنني وجدت مايمكن ان نعيد قراءته والتأسيس على ناتج القراءة الجديدة.

من ذلك نظرية الباقلاني في اعجاز القرآن لاصناف الكلام، فهو وبخلاف القسمة التقليدية الشائعة ذات الثنائية المشهورة (الشعر – النثر) يقدم تصنيفا تراتبيا متسلسلا بخمس مراتب هو:

١. الشعر: الكلام الموزون المقفى.
٢. الكلام الموزون غير المقفى.
٣. الكلام المعدل المسجع.
٤. الكلام المعدل غير المسجع.
٥. الكلام المرسل.

وهذا في قوله:(ان الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى اعاريض الشعر على اختلاف انواعه، ثم إلى انواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى اصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى مايرسل ارسالا فتطلب فيه الاصابة والافادة وافهام المعاني المعترضة. . .)[١].

من الواضح انه يفصل بين نوعين كبيرين هما (الشعر والكلام) اذ اطلق اسم الشعر على صنف واحد في حين سمى بقية الاصناف كلاما.

ولكن ذلك الكلام تفرع إلى اصناف اخرى.

مايلفت النظر حقا هو مصطلح (الكلام المعدل) الذي يكون مرة مسجعا ومرة غير مسجع.

فإذا كانت السجعة تقابل القافية، فهل الاعتدال يقابل الوزن ؟ ظاهريا يمكننا الوصول والقبول بهذه النتيجة من ان مصطلح الكلام المعدل عنى به الباقلاني ذلك الضرب من الكلام غير الموزون والمقفى (الشعر) ولكنه أيضا – وفي الوقت نفسه - ليس بالكلام المرسل.

إننا نستطيع أن نتأول مصطلح الإعتدال مكافئا للوزن، من دون أن يتحصل بأيدينا أمثلة تطبيقية عند الباقلاني لما أراد وصنف.

لكننا نجد عند ابن الأثير ممارسة تطبيقية لمفهوم مكافىء للوزن أو الإعتدال، واستخدم فيها تعبيرا أجده ذي ملائمة كبيرة لما أبحث عنه، ألا وهو(الأمد).

إنه يقسم السجع إلى ثلاثة أقسام هي:

١. قسم يتساوى فيه الفصلان.
٢. قسم يزيد فيه الفصل الثاني على الأول.
٣. قسم يزيد فيه الأول على الثاني.

---

١ . اعجاز القرآن، الباقلاني، ٥١ – ٥٢.

وذلك من قوله:(إن السجع قد ينقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول أن يكون الفصلان متساويين لا يزيد أحدهما على الآخر كقوله تعالى «فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر» وقوله تعالى «والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً فالمغيرات صبحاً فأثرن به نقعاً فوسطن به جمعاً» ألا ترى كيف جاءت هذه الفصول متساوية الأجزاء حتى كأنها أفرغت في قالب واحد وأمثال ذلك في القرآن الكريم كثيرة وهو أشرف السجع منزلة للإعتدال الذي فيه.

القسم الثاني أن يكون الفصل الثاني أطول من الأول لا طولاً يخرج به عن الإعتدال خروجاً كثيراً فإنه يقبح عند ذلك ويستكره ويعد عيباً.

فمما جاء منه قوله تعالى «بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً إذا رأتهم من مكان بعيدٍ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً» ألا ترى أن الفصل الأول ثمان لفظات والفصل الثاني والثالث تسع تسع.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة مريم «وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً» وأمثال هذا في القرآن كثيرة.

ويستثنى من هذا القسم ما كان من السجع على ثلاثة فقرٍ فإن الفقرتين الأوليين يحسبان في عدة واحدة ثم باقي الثلاثة فينبغي أن تكون طويلة طولاً يزيد عليهما فإذا كانت الأولى والثانية أربع لفظات أربع لفظات تكون الثالثة عشر لفظات أو إحدى عشر. . . . .

القسم الثالث أن يكون الفصل الآخر أقصر من الأول وهو عندي عيب فاحش وسبب ذلك أن السجع يكون قد استوفى أمده من الفصل الأول بحكم طوله ثم يجيء الفصل الثاني قصيراً عن الأول فيكون كالشيء المبتور فيبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها)[1].

ما أريد قوله هنا ان ابن الاثير وضع للوزن في الشعر مكافئا في النثر الفني المسجع هو الاعتدال والأمد.

مع وجود الفارق في ان الوزن يشترط (عددا معينا من التفاعيل في كل شطر من بيت القصيدة الواحد) اما (الاعتدال فهو من غير شرط سوى (النظر إلى أمد الجملة الأولى أو السابقة).

وهو يميل إلى عد تطابق أمد الجملتين تماما افضل قسم وهو ما يكافيء البيت الشعري الصحيح الوزن، اما تشابههما بزيادة أمد الجملة الثانية عن الأولى بمقدار قليل فهو مقبول ولكن من دون أفضلية وهو مايكافيء البيت ذي الزحاف.

أما إن قل أمد الجملة الثانية عن الأولى فهو المرفوض وهو مايكافيء البيت المكسور في وزنه.

ولكن ماهو الأمد ؟ سنحاول أن نقترب من معناه من خلال تصور الأقسام التي حددها ابن الاثير بشكل تخطيطي، وسنعطي للأمد بذلك صورة خطية تدل على طول مفترض للجمل وعلى النحو الاتي:

القسم الأول (التطابق): الجملة الأولى

الجملة الثانية

القسم الثاني (التشابه): الجملة الأولى

الجملة الثانية

القسم الثالث(الاختلاف): الجملة الأولى

---

١ . المثل السائر، ابن الاثير، ج١٩٣:١.

الجملة الثانية

لقد سألت نفسي وأنا أضع المخطط، إذا كان الخط المستقيم الذي يرمز إلى الأمد يقاس بوحدة طولية له (السنتمتر)، وإن كان الوزن يقاس بوحدة له أيضا هي التفعيلة، فبأي شيء سيقاس الأمد ؟ لاشيء سوى الأصوات (صامتة وصائتة) في مقاطعها هي التي تحدد طول الأمد. لكن ابن الاثير يقيس الأمد بالألفاظ وهذا واضح جدا في ماسبق من قوله (فمما جاء منه قوله تعالى«بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً إذا رأتهم من مكان بعيدٍ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً» ألا ترى أن الفصل الأول ثمان لفظات والفصل الثاني والثالث تسع تسع).

– مقطعيا- فان الجملة في الاية القرآنية التي استشهد بها ابن الاثير تشكلت من ٢٤ مقطعا، أما الجملة الثانية فهي من ٢٥ مقطعا والجملة الثالثة من ٢٦ مقطعا وعلى النحو الاتي:

بل- كذ- ذ- بو- بس- سا- ع –ة- و- ءع –تد- نا- ل- من –كذ- ذ –ب- بس- سا -ع –ة- س – عي- را.

ء-ذا-ر-ءت-هم-من-م-كا-نن-ب-عي-دن-س-م-عو-ل-ها-ت-غي-ي-ظن-و-ز-في-را.

و-ء-ذا-ءل-قو-من-ها-م-كا-نن-ضي-ي-قن-م-قر-ر-ني-ن-د-عو-ه-نا-ل-ك-ث-بو-را.

لم يكن لدى ابن الاثير آنئذ مفهوم للمقطع الصوتي كما نملكه اليوم ولانتوقع أن يعمد إليه لحساب الأمد، ويكفي إنه استند إلى حساب الألفاظ مع ما في ذلك من عدم عناية بما هو منطوق ومسموع غير مكتوب فضلا عن إهمال للصوائت القصيرة (الحركات).

والواقع ان النتائج لن تتختلف كثيرا بين حساب الألفاظ أو حساب المقاطع، لكن حساب الألفاظ سيهمل جانبا صوتيا جديرا بالملاحظة والعناية ألا وهو الصوائت القصيرة والطويلة، وتوزعها وتشابهها بل والتماثل التجانسي بينها.

سنفقد الأهتمام بكثافة الأصوات بين الجمل وشيوعها أولا، وبالفضاء الذي توزعت عليه تلك الأصوات في الجمل ثانيا، وبالسياق الذي اجتمعت فيه الأصوات كثرة وقلة ثالثا، وبطبيعة الأصوات قصيرة أوطويلة أو صوامت رابعا. وكل ذلك من بنية الخطبة الصوتية التي نود ان تنال العناية بالدرس.

استنادا إلى ماتقدم فان دراستنا للأسلوبية الصوتية في الخطبة العلوية سترتكز إلى مايأتي:

١. الأمد الصوتي بين الجمل.

٢. الكثافة الصوتية.

الأسلوبية الصوتية في الخطبة العلوية

أولا: الأمد الصوتي:

ونعني به قياس تماثل السياق الصوتي للمقاطع بين الفواصل (الجمل المسجوعة) أوغيرها في الخطب.

وسنتخذ من الخطبة الأولى في نهج البلاغة مثالا تطبيقيا، الفواصل الأولى هي ثلاث جمل:

أ. (الحمد لله الذي لايبلغ مدحته القائلون. ولايحصي نعماءه العادون. ولايؤدي حقه المجتهدون.)

استنادا إلى طريقة ابن الاثير في حساب عدد الألفاظ لقياس الأمد يظهر لنا مايأتي:

الجملة الأولى: ٧ ألفاظ والجملة الثانية:٥ ألفاظ والجملة الثالثة:٤ ألفاظ.

للوهلة الأولى يبدو ان ليس ثمة تطابقا أو تشابها في الأمد بين الجملة الأولى والثانية من جهة، لكن يبدو التشابه واضحا بين الجملتين الثانية والثالثة.

يجب ان نتذكر القاعدة التي صاغها ابن الاثير عن الفواصل المتشكلة من ثلاث جمل، حيث قال: (ما كان من السجع على ثلاثة فقرٍ فإن الفقرتين الأوليين يحسبان في عدة واحدة ثم باقي الثلاثة

فينبغي أن تكون طويلة طولاً يزيد عليهما فإذا كانت الأولى والثانية أربع لفظات أربع لفظات تكون الثالثة عشر لفظات أو إحدى عشر)[1].
سنجد إن قاعدة ابن الاثير توصلنا إلى مشكلة أكبر، اذ ان الجملة الأولى مع الثانية تشكل ١٢ لفظة، والثالثة هي ٤ ألفاظ.
إننا بحاجة إلى نظر آخر بقياس مجموع الجملتين الثانية والثالثة ومقارنته بالأولى، إذ يكون الأمد متشابها فالجملة الأولى ٧ ألفاظ ومجموع ألفاظ الجملتين ٩ ألفاظ.
بهذا يحصل التناسب تقريبا بين أمد الجملة الأولى التي تكون المعيار مع ما يتبعها ويلحقها.
ومقطعيا فإن الجملة الأولى تشكل ما مجموعه ١٩ مقطعا صوتيا وهو الأمد الصوتي الذي سنقيس عليه مايتبعه اذ تشكل الجملتان الثانية والثالثة ما مجموعه ٢٢ مقطعا صوتيا (١٠ مقاطع للجملة الأولى و١٢ مقطعا للثانية).
ب. (الذي لايدركه بعد الهمم ولاينالله غوص الفطن.)
الأمد الصوتي – مقطعيا- للجملة الأولى: ١٨ مقطعا صوتيا، وللجملة الثانية:١٦ مقطعا صوتيا وهذا يعني عدم التطابق بل التناسب.
ج. (الذي ليس لصفته حد محدود، ولانعت موجود، ولا وقت ممدود.)
الأمد الصوتي للجملة الأولى: ٢٠ مقطعا صوتيا، وللجملة الثانية:٧ مقاطع، وللجملة الثالثة:٧ مقاطع،وبحساب مجموع مقاطع الجملتين الثانية والثالثة يكون:١٤ مقطعا.
د. (فطر الخلائق بقدرته. ونشر الرياح برحمته. ووتد بالصخور ميدان أرضه.)
الأمد الصوتي للجملة الأولى:١٧ مقطعا صوتيا، وللجملة الثانية:١٧ مقطعا صوتيا،وللجملة الثالثة:١٩ مقطعا صوتيا.
والآن نقارن بين ماتحصل لدينا من آماد، حيث نجد ان الأمد الصوتي الأطول هو٢٢ مقطعا صوتيا مشتركا(يعني بحساب جملتين). ومفردا(بحساب جملة واحدة) فإن أطول أمد صوتي هو ٢٠ مقطعا صوتيا.
أما أقل أمد صوتي مشترك فهو ١٤ مقطعا صوتيا. واقل أمد صوتي منفرد هو٧ مقاطع صوتية.
أكثر أمد صوتي شيوعا هو ١٩ مقطعا و١٧ مقطعا حيث تكرر ورودهما مرتين وباقي الآماد ظهرت مرة واحدة.
في المخطط رقم (١) ستنظر بيسر إلى الموجة الصاعدة والنازلة للآماد الصوتية في جمل الخطبة العلوية الأولى في نهج البلاغة اذ بدا الأمد صاعدا ثم أخذ في النزول ثم الصعود ثم النزول وأخيرا عاد إلى الصعود.

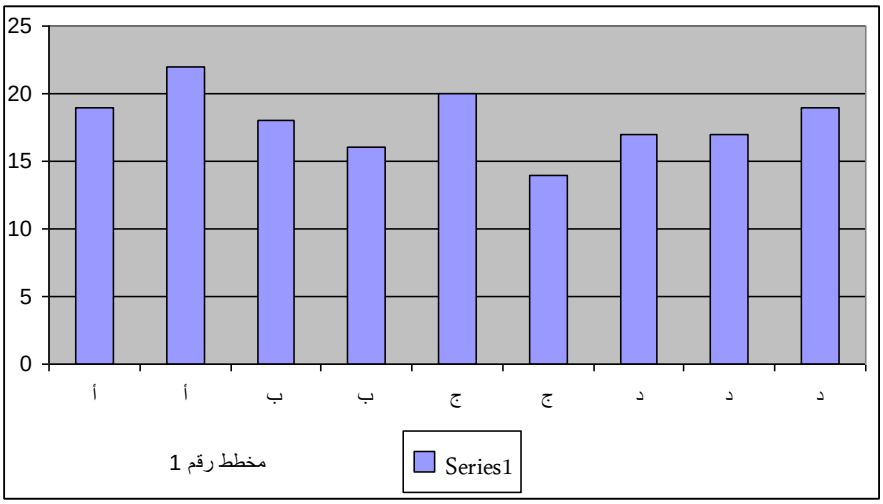

[1] . م. ن.

مخطط رقم ١

أمد صوتي متموج مدا وجزرا بإيقاع نكشفه للعين وبحساب رياضي دقيق يعكس الهندسة الصوتية التي شكلها الفكر العلوي وجمالية البنية.

ولمزيد من الإيضاح أقدم المخطط رقم (٢) الذي يبين الأمد الصوتي لمقاطع الفواصل مجتمعة.

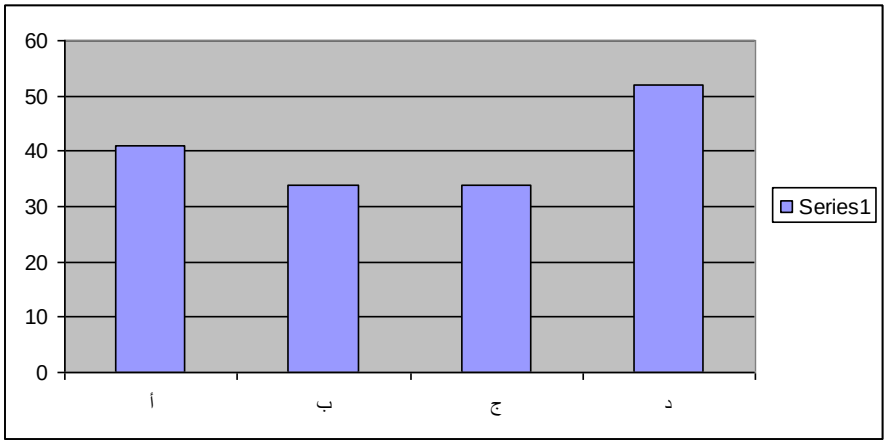

مخطط رقم ٢

ثم وانت تنظر اسمح لأذنك القلبية ان تستمع إلى صوت تستعذبه جهورة وخفاء تهدجا وحزنا من خشية الله تتمثله عن صوت الإمام وهو يلقي بتلك الجمل من على المنبر.

سنخطو خطوة أكثر تطورا في استعمال مفهوم الأمد الصوتي عندما نرصد آماد الجمل في الخطبة العلوية الثانية في نهج البلاغة التي تضم عددا أكبر من الجمل وفواصل مسجوعة أقل:

أ. (أول الدين معرفته).

الأمد الصوتي للجملة ١٠ مقاطع.

ب. (وكمال معرفته التصديق به).

الأمد الصوتي للجملة ١٤ مقطعا.

ج. (وكمال التصديق به توحيده).

الأمد الصوتي للجملة ١٢ مقطعا.

د. (وكمال توحيده الاخلاص له).

الأمد الصوتي للجملة ١٢ مقطعا.

ه. (وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة انها غير الموصوف).

الأمد الصوتي للجملة ٣٤ مقطعا.

و. (وشهادة كل موصوف انه غير الصفة).

الأمد الصوتي للجملة ١٨ مقطعا.

ز. (فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه. ومن قرنه فقد ثناه. ومن ثناه فقد جزأه. ومن جزأه فقد جهله).

الأمد الصوتي للجملة الأولى١٧ مقطعا صوتيا وللجملة الثانية ١١ مقطعا وللجملة الثالثة ١١ مقطعا وللجملة الرابعة ١٢ مقطعا.

ح. (ومن جهله فقد أشار اليه).

الأمد الصوتي للجملة ١٤ مقطعا.

ط. (ومن أشار اليه فقد حده. ومن حده فقد عده).

الأمد الصوتي للجملة الأولى ١٣ مقطعا، وللجملة الثانية ١٠ مقاطع.

ي. (ومن قال فيم فقد ضمنه. ومن قال علام فقد أخلى منه).

الأمد الصوتي للجملة الأولى ١٢ مقطعا، وللجملة الثانية ١٣ مقطعا.

مخطط الآماد الصوتية لجمل الخطبة العلوية السابقة يكون كما يأتي:

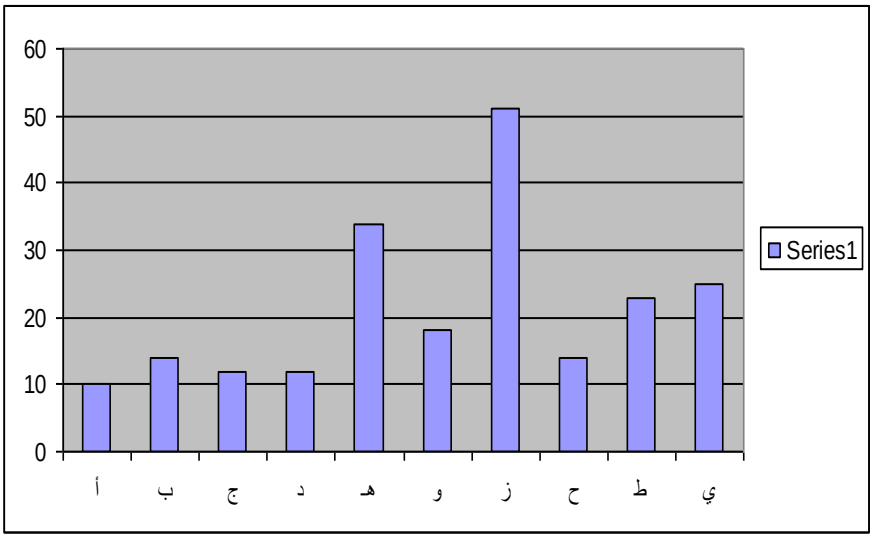

مخطط رقم ٣

آماد الجمل في (ه) و (ز) يبدوان منمازين كثيرا.

أما المقارنة بين آماد جمل الخطبة السابقة فتظهر ان أطول أمد لجملة منفردة هو٣٤ مقطعا صوتيا، وأطوله لجمل مشتركة هو ٥١ مقطعا صوتيا، وأصغر أمد منفرد هو١٠ مقاطع، واصغره مشتركا هو ٢٣ مقطعا صوتيا. وأكثر الاماد المنفردة شيوعا هو١٢ مقطعا (تكرر ٤ مرات)، ثم الاماد (١٠ و١١ و١٣ و١٤) مقطعا حيث تكررت (مرتين).

وباقي الاماد ظهرت مرة واحدة.

أعلم جيدا ان هذه المعالجة جديدة في التناول النقدي، ولكنها – وعلى الرغم مما تبدو عليه من وعورة أو تعقيد - بمثابة الأس أو المدماك الذي ستنبني عليه تفاصيل البحث عن أسلوبية متفردة للخطبة العلوية فهذا التحليل وتلك التفاصيل التي لاتلحظها العين، ذات أثر ايقاعي خفي في توليد إيقاع الخطبة، ولو كانت هذه الدراسة متسعة لتشمل جميع الخطب من الكلام العلوي لأمكن جمع نتائج أزعم انها جد ثمنية عن الأسلوبية الصوتية للخطبة العلوية بما تفردت به من آماد من حيث طولها والتناسب بين جملها، وأيها كانت مختارة عند الإمام علي، وايها قلت وندرت. ويتمنى الباحث أن يتوفر لديه الوقت، وأسباب البحث لإنجاز دراسة غالية كتلك.

ثانيا. الكثافة الصوتية والأنواع:

وهي كم الأصوات في الجمل، وشيوعها، وأنواعها، من زاويتي نظر الأولى للأصوات مفردة، والثانية في حال انتظامها بكلمات أو مفردات متكررة أو متجانسة أو متشابهة. وللتمثيل على زاوية النظر الأولى نحلل هذه الجمل من إحدى الخطب العلوية:(ثم أسكن سبحانه آدم دارا أرغد فيها عيشته، وآمن فيها محلته، وحذره إبليس وعداوته. . . .).

لربما يستقر في التلقي أواخر الجمل في أصواتها المتشابهة (عيشته، محلته، عداوته)، التي هي قواف أو فواصل أو أسجاع (لافرق حقيقيا)، وقد يكون ذلك لموقع تلك الأصوات في آخر الجملة وتكررها في الموقع ذاته، مايعطيها سمة البروز في التلقي، ولكن لماذا لانعطي أنفسنا فرصة تذوق الجمل مرة أخرى مزيلين بخور تلك الفواصل عن أعيننا وقل عبيرها الطيب كي نستنشق عطرا آخر من روضة لفظ الإمام علي (عليه السلام) ؟

أوما شعرت وأنت تدخل إلى مرقد علي بن ابي طالب الشريفة بعبق خاص ؟ ثم وأنت تتجه إلى مناجاة ربك هناك تتنسم روائح بعضها مختلط ببعض، لكن من بين زحام العطور الكثيفة،

يأتيك ذلك العطر الذي يلتصق بذاكرتك منذ الطفولة وأنت تدلف إلى المرقد المطهر لأول مرة (واعيا مدركا).
لقد اختبرت هذه التجربة مرارا، وهاهي تحضر الآن مع كتابتي لهذه الأسطر، وبشكل مدرك ترتبط بأصوات فمه المقدس الشريف.
دعونا إذا نتوقف مع أصواته العابقة من دون أن نسرع في ملاحظتنا العابرة.
في أول الجملة يتكرر صوت السين (أسكن سبحانه. . .) ومعها النون كذلك.
ثم صوت الدال بعدهما (آدم دارا أرغد) ومعها الألف والراء.
ثم الياء والهاء(فيها عيشته).
الجملتان (أرغد فيها عيشته، وآمن فيها محلته) تتماثلان صوتيا تركيبيا وتتوازنان صوتيا بشكل كبير،ومايلفت النظر حقا هو الصائت القصير(الفتحة) وتكراره:
ث (ضمة) م(سكون) م(فتحة) ء(فتحة) س (سكون) ك(فتحة) ن(فتحة).
س(ضمة) ب(سكون)ح(الالف صائت طويل = اشباع الفتحة) ن(فتحة) ه(الواو صائت طويل = إشباع الضمة).
ء(الألف صائت طويل = إشباع الفتحة) د(فتحة)م(فتحة).
د(الالف صائت طويل = إشباع الفتحة) ر(فتحة) ن(سكون) وهكذا. . . .
في الجملة المقتبسة (ثم أسكن سبحانه. . . . . وعداوته.) يتكرر الصائت القصير (الفتحة) ٣٠ مرة.
أما (الضمة)فتكررت مرتان، والكسرة مرة واحدة.
الصوائت الطويلة الألف تكرر ٧ مرات، والواو ٤ مرات والياء ٤ مرات.
أنصاف الصوائت الواو تكرر٤ مرات في (وآمن، وحذره، وعداوته).
وقد يعترض معترض على هذه الدراسة في تجزيئها وتدقيقها في الأصوات مستندا إلى صعوبة الحديث عن إدراك المتلقي قارئا أو سامعا للأصوات منفردة، لان إدراكها يتم بصيغة كتلية وفي الحد الأدنى مقطعية.
الإعتراض له أحقية كاملة، وهو صائب من حيث ان المستمع لن يقوم لافي سمعه ولافي دماغه بعزل السلسلة اللفظية المنطوقة إلى أصوات مفردة، ومن ثم يصنفها أو يعدها.
ذلك صحيح جدا، و(قد يرى بعض القراء ان التشاكل والتباين الصوتيين هما من البداهة بحيث لايستحقان العناء الذي ينفق في دراستهما)[١].

لن أرد ذلك الإعتراض بالتذكير بما للحروف والأصوات المفردة من تأثيرات نفسية وروحية لفتت الانتباه، وما استخدمه النص القرآني من استعمال أصوات مثل (الم ويس وحم، وعسق، وكهيعص).
ولن أردد مع المرددين بأن لكل صوت في اللغة معنى خاصا، بحيث تكون لها قيما ذاتية تتوازى فيها الأسماء الإلهية مع مراتب الوجود مع أصوات اللغة وانها أرواح وملائكة.[٢]

ولكن سأكتفي بأن أورد نصا قديما هو للفخر الرازي في مفاتيح الغيب يحلل فيه أصوات لفظ الجلالة (الله) حيث يقول:
(الأصل في قولنا الله الاله وهي ستة حروف فلما أبدلوه بقولهم الله بقيت أربعة أحرف في الخط همزة ولامان وهاء، فالهمزة من أقصى الحلق واللام من طرف اللسان والهاء من أقصى الحلق وهو أشارة إلى حالة عجيبة فإن أقصى الحلق مبدأ التلفظ بالحروف ثم لايزال يترقى قليلا قليلا إلى أن يصل إلى طرف اللسان ثم يعود إلى الهاء الذي هو في داخل الحلق ومحل الروح فكذلك العبد يبتدىء من أول حالته التي هي حالة النكرة والجهالة ويترقى قليلا قليلا في مقامات العبودية حتى إذا وصل إلى آخر مراتب الوسع والطاقة ودخل في عالم المكاشفات والأنوار أخذ

---

١ . استراتيجية التناص، د. محمد مفتاح، ٣١.
٢ . ينظر فلسفة التأويل، د. نصر حامد أبو زيد،٣٠٢ ومابعدها.

يرجع قليلا قليلا حتى ينتهي إلى الفناء في بحر التوحيد فهو إشارة إلى ماقيل النهاية رجوع إلى البداية)[1].

إن اكتفائي بهذا النص ناتج عن إنه اتجه إلى لفظة واحدة فقط (على الرغم من عظمها وثقلها وقدسيتها المطلقة) يفتش في حروفها ويدقق، بحثا عن تفسير صوتي يرتبط بتلك القدسية، وللسبب ذاته أجدني منقادا إلى أحرف الخطبة العلوية الشريفة باحثا عن تفسيرات صوتية.

لانعثر في الموروث البلاغي العربي اهتماما باحصاء كم الاصوات، ولكننا نعثر على محاولات حديثة لتحديد النسبة المعيارية لتردد أي صوت من أصوات العربية، ابتدأها مستشرقون وتابعها دارسون لغويون عرب.

ومنهم علي حلمي موسى الذي قام باحصاء شامل لتردد الصوائت في القرآن الكريم وخرج بالنسب الآتية[2]:

النسبة المعيارية للفتحة وألف المد	النسبة المعيارية للضمة و واو المد	النسبة المعيارية للكسرة وياء المد
٦٨ .٥٨	٠٣ .٢٢	١٩ .١٩

إعتمدت تلك النسب بوصفها النسب الضابطة (المعيارية) للغة العربية، التي سأقيس بموجبها مقدار الإنحراف عنها تشخيصا للأسلوبية الصوتية في استخدام الصوائت في الخطبة العلوية، وقد أحصيت الصوائت لمائة كلمة من ثلاث خطب، وتلك الخطب هي:

١. التي مفتتحها (أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنته الوثيقة. . . .).

٢. التي مفتتحها(أما بعد فان الدنيا قد ادبرت وآذنت بوداع. . . . .).

٣. التي مفتتحها (أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم. . . .).

وكانت النتائج:

الخطب	نسبة تردد الفتحة وألف المد	نسبة تردد الضمة و واو المد	نسبة تردد الكسرة وياء المد
١	١٤ .٥٨	٠٦ .٢١	٧٨ .٢٠
٢	٤٧ .٦٣	١٨ .١٤	٣٤ .٢٢
٣	٧٠ .٥٢	٣٢ .٢٤	٩٧ .٢٢

يظهر بوضوح من خلال المقارنة بين النسبة المعيارية، والنسب المستخرجة من الخطب العلوية الثلاث ان الخطبة (١) تتطابق بشكل كبير مع النسب المعيارية، وتختلف الخطبتان (٢ و ٣) عن النسبة المعيارية، مع المحافظة على التفوق النسبي لتردد الفتحة والف المد على بقية الصوائت.

وإذا كان تفوق الفتحة وألف المد أمرا لازما (في العربية) فإن المجال الأسلوبي سيكون مرشحا للبروز في تردد الضمة و واو المد من جهة، أو تردد الكسرة وياء المد من جهة أخرى.

ان ماتفترضه هذه الدراسة استنادا الى النماذج المدروسة وما تقدم عن النسب المعيارية هو ان الخطبة العلوية تميل الى المحافظة على النسبة المعيارية للفتحة والف المد، في الوقت الذي يتأثر التناسب بين تردد الفتحة والف المد عكسيا مع تردد الضمة وواو المد، فكلما زاد تردد الفتحة والف المد في الخطبة العلوية، قل تردد الضمة و واو المد، مع ميل الخطبة العلوية الى استخدام نسبة تردد ذاتها للكسرة وياء المد.

وبكلمة أخرى ان الاسلوبية الصوتية (الصائتة) في الخطبة العلوية تستند الى التلوين في زيادة أو نقص نسب تردد (بعلاقة عكسية) بين الفتحة وألف المد، و الضمة وواو المد.

---

١ . مفاتيح الغيب، ج٥٧:١.

٢ . ينظر:استخدام الالات الحاسبة الالكترونية في دراسة الفاظ القران الكريم. علي حلمي موسى، مجلة عالم الفكر، مج ١٢، مارس (اذار) ١٩٨٢.

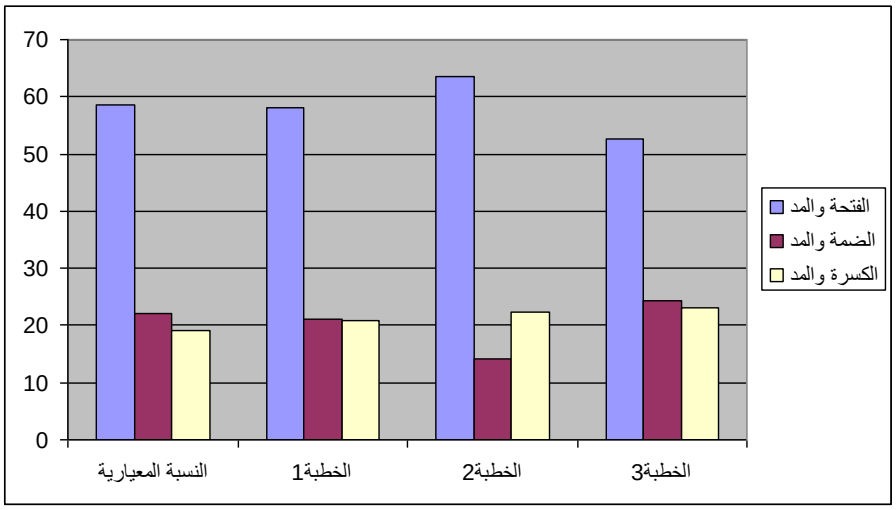

مخطط رقم ٤ مقارنة بين نسب تردد الصوائت

الخاتمة والنتائج

عالجت هذه الدراسة (الأسلوبية الصوتية للخطبة العلوية) من خلال مفهومي الأمد الصوتي والكثافة والأنواع، واتضح أن للخطبة العلوية – صوتيا- آمادا صوتية في جمل الخطبة الواحدة يمكن قياسها، ويعتقد الباحث أن بالإمكان إنجاز دراسة تحصر آماد خطب الإمام علي عليه السلام جميعها، وتمكننا من تصور إيقاع صوتي لها.

كما درست الكثافة الصوتية للصوائت في الخطبة العلوية استنادا إلى نسب معيارية مأخوذة من القرآن الكريم، وقد ظهر ان من أسلوبية الخطبة العلوية إحداث تناسب عكسي بين تردد صائت الفتحة وألف المد و الضمة وواو المد، وتميل الخطبة العلوية إلى الإحتفاظ بالنسبة المعيارية ذاتها للكسرة وياء المد.

قاربت الدراسة نماذج الخطب العلوية، من خلال دراسة وصفية تلتزم الإنضباط العلمي واستعملت المخططات التوضيحية.

تتبنى الدراسة الدعوة إلى إيلاء الكلام العلوي المزيد من الدراسة لاستكشاف آفاق الفرادة العلوية الشريفة.

قائمة المصادر والمراجع:

١. استخدام الالات الحاسبة الالكترونية في دراسة ألفاظ القرآن الكريم. علي حلمي موسى. مجلة عالم الفكر. المجلد ١٢. آذار ١٩٨٢.

٢. استراتيجية التناص. محمد مفتاح. دار التنوير للطباعة والنشر. ط١. ١٩٨٥.

٣. إعجاز القران. القاضي أبو بكر الباقلاني. بهامش الإتقان في علوم القرآن للسيوطي. مطبعة مصطفى البابي الحلبي. القاهرة. ط٣. ١٩٥٢.

٤. البنية الصوتية في الشعر. محمد العمري. الدار العالمية للكتاب. ط١. ١٩٩٠.

٥. الجامع الكبيرفي صناعة المنظوم من الكلام والمنثور. ضياء الدين بن الأثير. تحـ: د. مصطفى جواد و د. جميل سعيد. مطبعة المجمع العلمي العراقي. ١٩٥٦.

٦. مصادر نهج البلاغة وأسانيده. عبد الزهراء الحسيني الخطيب. دار الأضواء بيروت. ط٣. ١٩٨٥.

٧. مفاتيح الغيب. فخر الدين الرازي. المطبعة الخيرية. القاهرة. ط١.

٨. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. ضياء الدين بن الأثير. تحـ: أحمد الحوفي وبدوي طبانة. مكتبة نهضة مصر. القاهرة. ١٩٦٠.

٩. نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة. الشيخ محمد باقر المحمودي. مطبعة النعمان. النجف الأشرف. ط١. ١٩٦٥.
١٠. النقد الأدبي. أحمد أمين. مطابع دار الغندور. الطبعة الرابعة.
١١. نقد النثر. قدامة بن جعفر. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٩٨٢.
١٢. فلسفة التأويل. نصر حامد أبو زيد. دار الطليعة. بيروت. ١٩٨٣.
١٣. القاموس المحيط. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ط١. ١٩٩١.
١٤. شرح نهج البلاغة. ابن ابي الحديد. ط٢. بيروت. ١٩٥٤.
١٥. الخطابة أصولها وتأريخها في أزهى عصورها عند العرب. محمد أبو زهرة. دار الفكر العربي. القاهرة. ط٢. ١٩٨٠.
١٦. الخطابة العربية ومنهج عبد الحميد كشك. عبد الرحمن محمد موسى. ط١. ٢٠٠٠.

الحجاجية في الخطاب الحربي (خطب امير المؤمنين علي بن ابي طالب(ع)

الدكتور: علي عمران(الجامعة الأهلية - مملكة البحرين)

تمهيد

نروم في هذا البحث عن الوظائف التي تؤديها الصُّور في خطب الإمام علي الحربية؛ فقد كان لنا بحث في التحقيق في طبيعة الصور الواصفة المستخدمة في المدونة العلوية الحربية، وحاولنا إخضاعها لميادينها الكبرى طلباً لتعيين مصادرها وغايتنا في هذه المرحلة أن نكشف أبرز الوظائف التي تحملها تلك الصور في تلك الخطب.

فوظائف الخطابة هي «الدفاع عن الرأي، وتنوير الرأي العام في أي أمر من الأمور، والحض على الاقتناع بمبدأ من المبادئ، والتحريض على اكتساب الفضائل والكمالات واجتناب الرذائل والسيئات، وإثارة شعور العامة وإيقاظ الوجدان والضمير فيهم. وبالاختصار وظيفتها إعداد النفوس لتقبل ما يريد الخطيب أن تقتنع به.»[1] ولئن كانت الغاية منها هي «الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان»[2] فإنّ ذلك يجعل الوظائف الحجاجية الوظائف الأهم في أي خطبة.

ولما كان ذلك كذلك فإنّ خطب الإمام عليّ الحربية كغيرها من الخطب برزت فيها الوظيفة الحجاجية بروزا واضحا ومميزا، وبهذا كان لابد من التركيز على هذه الوظيفة.

و نعني بالوظائف الحجاجية[3] تلك الوظائف التي تحمل مجموعة من الوسائل التي تحقق من خلالها الخطبة أهدافها، ونعني بالوسائل الأدوات اللغوية والأساليب والأبنية التي تشهد على أن النص حجاجي ولكن ما مفهوم الحجاج الذي يمكن أن نستند إليه لتحليل هذه الوظائف؟

بصرف النظر عن الاختلاف والتنوع الحاصلين في تحديد مفهوم الحجاج وما يتبع ذلك من مسائل فرعية فإنه يمكن الاستئناس بذلك التعريف القائل «إنّ الحجاج خطاب إقناعي»[4] بمعنى أنّه خطاب يسعى إلى إحداث التأثير في المتلقي وحمله على تبني موقف ما أو القيام بعمل ما غير أنّ نسبة الحجاج إلى النص على سبيل الوصف لا تعني بالضرورة استقلال هذا النوع من القول بنص مسيّج بضوابط شكلية و معنوية تؤسس هويته إذ قد نجد الحجاج في النص الوصفي أو السردي أو الشعري أو غيرها من النصوص والأكثر من ذلك يذهب البعض إلى أنّ اللغة أصلا متورطة في الحجاج إذ كلّ قول مرشح نظريا للرد من قبل المتلقي وهو ردّ يتحول بدوره إلى مثير يحدث استجابة[5].

إننا نكتفي هاهنا بحدّ الحجاج دون التوسع في مسائله الفرعية إذ القصد من إيراده هو ضبط الإطار المرجعي لبيان علاقة الصور الفنية في خطب الإمام علي بالوظيفة الحجاجية، فكيف إذن بنى الخطيب هذه الصور على نحو يجعلها تنهض بوظيفة حجاجية ؟

---

١ .محمد رضا المظفر، المنطق، ص٣٦٨.

٢ .أرسطو، الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ٢٩.

٣ .هناك من تعرض لوظائف الصورة في نهج البلاغة كقصي الشيخ عسكر إلا أنّه لم يعرض للوظيفة الحجاجيّة التي نرى أنّها أهم الوظائف؛ انظر قصي الشيخ عسكر، التشبيه والاستعارة في نهج البلاغة، ١٩٨٨.

٤ .أنظر تفصيل ذلك في كورنيليا فون راد_صكوحي الحجاج في المقام المدرسي، منشورات كلية الآداب منوبة، ٢٠٠٣، ص ١٥والصفحات التي تليها.

٥ .هكذا يفهم الكلام في ضوء اللسانيات التوزيعية المتأثرة بالمدرسة السلوكية في علم النفس.

لقد أناط أغلب البلاغيين والنقاد القدامى وظيفة الصورة بـ «الإقناع بالفكرة»[١]، وربطوا ذلك الإقناع بالقدرة على التحسين والتقبيح[٢]؛ وذلك لأنّ الصورة الفنية في أي خطاب تقنع بالفكرة وتؤدي إلى التسليم بها، إلا أنهم مع ذلك لم يتوسعوا فيها بما فيه الكفاية.
ونكاد نجزم أنَّ المبحث الحجاجيّ الحديث في الغرب[٣] لم يتجاوز ما توصل إليه قدامى العرب بخصوص وظيفة الصورة الفنية في الكلام باعتبار أنّها لإظهار المجرّد في شكل المحسوس، ولجعل الغائب شاهد، ولتقوية الشعور لدى المتلقي بحضور الأشياء من أجل إقناعه والتأثير فيه.
وعن مسألة القول بالتأثر يقول جابر عصفور: «تنبع أهمية الصورة من طريقتها الخاصة في تقديم المعنى، وتأثيرها في المتلقي، ولكن ما هي أبعاد ذلك التأثير؟ وهل ينحصر مداه في نوع من المتعة الذهنية الخاصة، فيعجب المتلقي ببراعة الشاعر في بناء صوره وتلطفه في الدلالة على معانيه فحسب؟ أم أن تأثير الصورة يتعدى حدود هذه المتعة الشكلية، فيثير انفعالات المتلقي إثارة خاصة، تدفعه إلى موقف أو سلوك بعينه ؟ عن هذا المستوى نجد أنفسنا نتجاوز تأثير الصورة في ذاته، إلى تأمل طبيعة الاستجابة التي تعقبه أو تصاحبه »[٤].

ولما كانت الوظيفة الحجاجية هي أهم ركن في أغراض الخطابة؛ فإننا سنقصر تناولنا لوظائف الصور على الوظائف الحجاجية في المدونة بغرض استكشاف آليات الإقناع وتوظيف الصورة في ذلك الغرض.
والصورة في خطب علي بن أبي طالب الحربية تحمل وظيفة حجاجية تتبعناها في المدونة العلوية خطبة خطبة وصورة صورة فلم نظفر إلا بالحجاج، وقد أخذت الصورة الفنية أبعاداً وظيفية أخرىمتنوعة أساسها التأثير والاقناع والامتاع ضمن نطاق الحجاج وهي على النحو الآتي:التوبيخ، الاستشهاد، والمثال، والأنموذج وعكس الأنموذج، وتوظيف الحكمة[٥].

وأظهر ما تكون حجاجية الصورة في التمثيل؛ الذي يعدّ من الخصائص الأسلوبية البارزة في خطب الإمام علي الحربية فالأمثال كثيرة في المدونة العلوية.
ولعل كثرتها هي التي دفعت بعض القدماء وحتى المحدثين إلى عقد كتب مفردة في أمثال نهج البلاغة[٦].

وتضطلع الصورة في الخطب الحربية التي بين أيدينا بمهمات حجاجية أو قل وظائف اقناعية مختلفة باختلاف مواقعها من جسد النص الحربي ثم باختلاف الأهداف الكامنة وراء الإتيان بها في الخطاب الحربي والاعتماد عليها، ولقد عالجنا المواقع والأهداف فوجدناها في «المدونة العلوية» خمسة أصناف: التوبيخ والاستشهاد والمثال و الأنموذج وتوظيف الحكمة.

---

١ .جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص٣٢٨.
٢ .انظر: جابر عصفور، م.ن.، ص٣٥٤.
٣ .انظر تفصيل ذلك في: عبدا لله صوله: الحجاج في القرآن، ص٥٦١ وما بعدها. إنّ الدّراسات الحجاجية الحديثة في الغرب (...) لا تكاد تضيف شيئاً إلى ما كان قاله القدماء عن وظيفة الصورة الفنية في الكلام (...) فكأنّه ما ترك الأوّل للآخر شيئاً ، ويضيف عبد الله صوله حول ما تركه القدماء بخصوص وظيفة الصورة في القرآن: فمّما تركه القدماء لنا في هذا الموضوع غير مفكر فيه تفكيراً منهجيّا منظما تحليل الطرائق التي بها يحصل تأثير الصورة في المتلقي .
٤ .جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص٣٢٨.
٥ .
٦ .انظر مثلا: محمّد الغروي، الأمثال في نهج البلاغة، ط ١، قمْ، انتشارات فيروز آبادي، ١٩٨١؛ وقد خصص إميل بديع يعقوب في كتابه موسوعة أمثال العرب، في الفصل الرابع من الجزء الأوّل الكتب التي تحدثت عن أمثال الإمام علي، فذكر منها أمثال سيدنا علي لعمرو بن بحر الجاحظ (٤٥٥/ ٨٦٩)، ومائة حكمة ومثل بالعربية والفارسية مع تفسير لرشيد الدين الوطواط (٥٣٧/ ١٧٧٠).... وغيرهما.

المحور الأول: التوبيخ[1]

نتناول في هذا الجانب - وفق ما يقتضيه البحث - (الصّورة الفنّيّة) إذ سنتناولها باعتبار أنّها منتجة للتوبيخ، فما التوبيخ ؟ وهل كلّه يجري على درجةٍ واحدةٍ أو عمقٍ واحد ؟ وما معيار التفريق بين هذه الدرجات إذا كان التوبيخ مختلفاً ؟ نحن نعلم أنّ الصورة لها وجهان؛ مادة وشكل، ومعيارنا سيمرّ ضرورة من مادة تشكيلها وصياغتها والتي هي حتماً اللغة، فالصورة الفنّيّة كما هو معهودٌ تتشكل بقوالب مختلفة فهي، إما تشبيه وإما استعارة وإما كناية وإما مجاز، وهذه التراتبيّة المذكورة تحترم درجات العمق بدءًا من اليسر والسهولة وصولاً إلى الإيغال في الخيال والتخييل دون أن تكون شاذةً عمّا اتفقت عليه المخيلة الجماعية والمخيال الجمعي للحضارة المنتجة لهذه الصورة، فلقد اتفقت الذائقة العربية على اعتبار هذا التسلسل وحكّمته مع جهابذة البلاغة، ولا نرى أن العصر الحاضر انحرف أو تزحزح عمّا اتُفق عليه سابقاً.

فكيف كانت الصورة الحاملة لوظيفة الحجاج المفرزة للتوبيخ في المدونة العلوية ؟ وهل ورد فيها كلّ أطياف التوبيخ السّالفة الذّكر ؟

١- التوبيخ بالتشبيه

يقول الإمام علي من خطبة له في ذمّ أهل العراق:

«أمَّا بَعْدَ: يَا أَهْلَ العِرَاقِ ! فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ، حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ، وَمَاتَ قَيِّمُهَا، وَطَالَ تَأَيُّمُهَا، وَوَرِثَهَا أَبْعَدُهَا (...) »[2].

إنّ هذا الضرب من الصّور التّشبيهيّة هو إفراغ للموصوفين (أهل العراق) من كل ما هو إيجابي وإثبات لكلّ ما هو سلبي يعمد إليه الخطيب / الإمام علي ويخص به الأشخاص دون الواقعة (حرب صفين)[3] ، فيوهمنا الإمام علي في بادئ الأمر أنه يصف المرأة الحامل التي فازت بحمل من زوجها، وأن أصحابه قد حققوا نصرًا وظفرًا على الأعداء في حين أن المقصود بالوصف ليس الظفر والفوز وإنما الخسران المبين، وكأنّنا بالعلاقة في النّص الخطابي بين ما يُقَال وما يُفْهَم من قبيل التشبيه القائم بين المشبه (أهل العراق) والمشبه به (المرأة الحامل) فهو يتحدث عن المرأة الحامل لكنّه يصف ما كان حدث منها بعد تمام الحمل واكتماله وصفًا لا يهدف إلى تأكيد الإخبار وإنّما إلى التّوبيخ والإمعان في التقريع وذمّ أهل العراق على إضاعة فرصة النصر، كالمرأة الحامل فبعد أن تمّت شهورها وأوشكت أن تضع مولودها أجهدت نفسها فسقط الجنين ميتاً.

ولئن كان الوصف بغاية التقريع والتوبيخ لأهل العراق عامة في الخطبة السابقة، فإن الإمام علياً توجه هذه المرة في نصه لأهل الكوفة خاصة:

«يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ (...) يَا أَشْبَاهَ الْإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رَعَاتُهَا، كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ، تَفَرَّقَتْ مِنْ جَانَبٍ آخَرَ. وَاللهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَا إِخَالُكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى وَحَمِيَ الضِّرَابُ وَقَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الْمَرْأَةِ عَنْ قُبُلِهَا. وَإِنِّي لَعَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي. وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطًا»[4].

---

١ .راجع في هذا الصدد بخصوص مصطلح التوبيخ نهاية المقالة الثانية من كتاب تلخيص الخطابة لابن رشد ص ٢٣٤-٢٤٨.

٢ .الخطبة ٧٠.

٣ .يريد الإمام علي القول أنّ أصحابه من أهل العراق لمّا شارفوا استنصال أهل الشّام في حرب صِفين وبدت لهم علامات النّصر والظّفر بأصحاب معاوية، جنحوا إلى السّلم، إجابة لطلاب التحكيم.

٤ .الخطبة ٩٦.

هذا الوصف سلبي لأهل الكوفة الذين تباطؤوا عن نصرة الحق، إنّه وصف بغاية التّقريع والتّوبيخ بل يتعدى ذلك إلى الإقذاع الذي يصل إلى حدّ الهجاء، فأهل الكوفة كالإبل تحقيراً لهم، وقد حطّم الخطيب / الإمام علي كلّ فرصة لأهل الكوفة في النجاة ببعض من كرامتهم.[1]

ونكاد نجزم أنّ معظم صور المدونة العلوية الحربية صورٌ من هذا النّوع فالخطيب يأتي بالصّورة الفنّيّة الحاملة لوظيفة حجاجيّة بغرض التّقريع والتّوبيخ، وقد طغت الصّور الحاملة للصفات السّالبة (التّقبيحيّة) بشكل لافت، ومرد ذلك – في رأينا – إلى أنّ الغاية من الصورة في خطاب علي بن أبي طالب الحربي هي إحداث التأثير الوجداني في نفوس المتلقين من جمهور المسلمين سواء أكانوا حضوراً كـ (أصحابه) أم غائبين كـ (طلحة والزبير وعائشة ومعاوية).

هذا شأن التّوبيخ بالتّشبيه، على أننا اقتصرنا على نموذجين دالين دون إطالة.

٢- التّوبيخ بالاستعارة

التّوبيخ بالاستعارة متنوِّعٌ في «المدونة العلويّة»، إذ يلجأ الإمام علي في خطبه الحربية إلى التوبيخ بنوعين من الاستعارة هما:

التّوبيخ بالاستعارة التّمثيليّة، والتّوبيخ بالاستعارة غير التّمثيليّة.

(١) التّوبيخ بالاستعارة التّمثيليّة:

يذهب النقد الحديث إلى أنّ الاستعارة التمثيلية هي «كلّ الصور التي تعدّدت فيها وجوه المستعار بصرف النظر عن قيامها على مثل أم لا»[2] على حدّ تعبير محمد الهادي الطرابلسي.

إنّ هذا التعريف شامل ينطبق على الصور الاستعارية التمثيلية القائمة على المثل وغيره في حدود الاستعارة التمثيلية، وسوف نعتمده في تحليلنا.

والإمام عليّ يعمد إلى التّوبيخ بالاستعارة التّمثيليّة في مقام التّوبيخ والتّقريع بكثرة بالغة.

وإذا علمنا أنّ أتباعه أفسدوا عليه رأيه بالعصيان والخذلان على نحو ما يُفْهَم من نصوصه الحربيّة الواردة في المدونة وبالخصوص النّص السّابع والعشرين[3]، فإنه لم يعد من الغريب أن نلمس ألوانا من التوبيخ بالاستعارة التّمثيليّة عنده.

فمن الاستعارات التمثيلية التي تفرد بها إمامنا علي بن ابي طالب(عليه السلام) والتي لم تقم على أمثال عربية معروفة، قوله:

فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ، قُلْتُمْ: هَذِهِ حَمَارَّةُ الْقَيْظِ أَمْهِلْنَا يُسَبَّخ عَنَّا الْحَرُّ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ، قُلْتُمْ: هَذِهِ صَبَارَّةُ الْقُرِّ أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخ عَنَّا الْبَرْدُ «كُلُّ هَذَا فِرَارًا مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ، فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ تَفِرُّونَ فَأَنْتُمْ وَاللهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ»[4].

فالإمام علي يصوّر الحرّ والبرد بالجيش المداهم لأتباعه وهم يفرون منه، وذلك لأنّ الفرار لا يكون إلا من شيء عظيم مخيف، ولكنّ فرارهم من الحرب أكبر، واستعار لها لفظة السّيف التي هي آلة الحروب، فقد وبخهم على امتناعهم عن الجهاد بتكاسلهم وتخاذلهم وجبنهم،وهذا مظهر من مظاهر الإبداع وإثارة العواطف والعقول لتحريك الحسّ الميت.

ومنها ما قام على مثلٍ بعبارته المعروفة في كتب الأمثال، مع شيء من التصرف في تركيبها، كما في قوله:

وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرِ أَمْرٌ[5].

---

١ .

٢ . إذ يقول فيها ... وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان . وحتى قال قولته الشهيرة في أتباعه والتي أصبحت مثلا فيما بعد وَلَكِنْ لاَ رَأْيَ لِمَنْ لاَ يُطَاعُ في الخطبة ٢٧.

٣ . الخطبة ٢٧.

٤ . الخطبة ٣٥.

٥ . الخطبة ٣٥.

فعبارة لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ استخدمها الخطيب من قولهم في الأمثال لايطاع لقصيرٍ أمر في كل أمر لا يطاع الناصح فيه، وينتهي بفشل، فلقد وبخهم الإمام على عدم الطاعة والاستماع إلى سديد رأيه ولطيف نصحه قبل التحكيم الذي انتهى بهزيمة اتباع علي في معركة صِفِّين.
ومن استعارات الخطيب التمثيلية، ما قامت على صور يضرب بها المثل كما في قوله: فَكُنْتُ وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ:[الطويل]
أَمَرْتُكُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلاَّ ضُحَى الْغَدِ [1].

فلقد مثّل الإمام علي حاله وحالهم وقد رفض التحكيم وهم أصروا على قبوله، فاضطر إلى أن يرضى به، فجاءت نتيجته خدعة، فما كان منهم إلا أن ثاروا على الإمام، فصارت حاله وحالهم مثل حال الشاعر دريد بن الصمه وقومه[2].

ولقد وبخهم الإمام علي على عدم الأخذ بالنصيحة التي أسداها إليهم، ومن ثم تمكن معاوية وعمرو بن العاص منهم، ولم يتبينوا قيمة نصحه إلا بعد فوات الأوان كحالة الشّاعر مع قومه.
فالاستعارة التّمثيليّة من الأساليب التي يخرج الإمام علي بها من مجرد التّقرير والإخبارإلى التّحريك والإيحاء، فتكون الاستعارة أظهرلانحصار كلّ الضوء فيها خصوصًا أنّ الأمثلة الّتي أدرجت في باب الاستعارة التّمثيليّة أكثرها قامت على أمثال وأشعار عربية معروفة.

(٢) التّوبيخ بالاستعارة غير التّمثيليّة

يعمد علي بن أبي طالب في الخطبة الحربيّة إلى توبيخ أصحابه وربما انسحبت صور التوبيخ بالاستعارة إلى خاتمة الخطبة كقوله:
دَعَوتُكُمْ إِلى نَصْرِ أُخْوَانِكُمْ , فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ الْجَمَلِ الْأَسَرِّ وَتَثَاقَلْتُمْ تَثَاقُلَ النِّضْوِ الأَدْبَرِ [3].

أغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ بَابَهُ، وَانْجَحَرَ انْجِحَارَ الضَّبَّةِ فِي جُحْرِهَا، وَالضَّبُعِ فِي وِجَارِهَا [4].

في هذه الصور ترد الاستعارة تصريحيه حاملة ألوانا من التوبيخات لجمهور المسلمين , فأداة التشبيه وردت مفعولا مطلقاً (جرجرة، تثاقل، انجحا)، أي مصدرا مشتقاً من الفعل الذي يتصدر موضوع الخطبة وهو أنّ الأمام استنفرهم
لقتال معاوية فلامهم على تقصيرهم، وفي ما أتوه تعبيرا عن رفضهم للجهاد،وخوفهم ممّا قد يلحقهم منه من الأذى.
بيد أن بين المصدر والفعل فروقا - كما تعلم - لا من حيث الصيغة فحسب،بل من حيث الدلالة أيضا. فجرجرة المسلمين هي غير جرجرة الجمل،وتثاقلهم هو غير تثاقل النضو الأدبر، وانجحارهم هو غير انجحار الضبع في وجارها.
فأما معاني المصادر فعلى الحقيقة، وأما معاني الأفعال فعلى المجاز، وهي استعارات تصريحية ليس وراءها إلا التوبيخ الشديد، فالصورة ترد حجاجية مكثفة ومركزة ممّا يؤدي إلى السيطرة على العقول وإستمالة عواطف الجمهور حتّى تستخرج من المعاني عصارتها، وتصل مع الخطيب إلى مراده، وهو الاقناع والاقتناع وهو الهدف الأسمى للخطاب الحجاجي.

٣- التوبيخ بالكناية

يقول الإمام علي بعد واقعة الجمل وهي خطبة في منتهى التقريع والتوبيخ لأهل البصرة: كُنْتُمْ جُنْدَ الْمَرْأَةِ، وَأَتْبَاعَ الْبَهِيمَةِ، رَغَا فَأَجَبْتُمْ، وَعُقِرَ فَهَرَبْتُمْ، أَخْلَاقُكُمْ دِقَاقٌ، وَعَهْدُكُمْ شِقَاقٌ، وَدِيْنُكُمْ نِفَاقٌ، وَمَاؤُكُمْ زُعَاقٌ، وَالْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ، وَالشَّاخِصُ عَنْكُمْ مُتَدَارَكٌ بِرَحْمَةٍ مِنْ

---

١ . راجع البحث في أعلاه في الفصل الثاني الصور القائمة على التشابه ص ٩٣-٩٤ .
٢ . الخطبة ٣٩.
٣ . الخطبة ٦٨.
٤ . الخطبة ١٣.

رَبِّهِ، كَأَنِّي بِمَسْجِدِكُمْ كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ. قَدْ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهَا الْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهَا وَمِنْ تَحْتِهَا وَغَرِقَ مَنْ فِي ضِمْنِهَا (...)[1].

إنّ مما يعمق دلالة الوصف السالب لأهل البصرة، ويجعل فعل الخطيب يتعدى من السّلب إلى الإقذاع والهجاء –إن صحت العبارة –هو أنّهم كانوا جنداً لامرأة هي أم المؤمنين عائشة كما يتضح من سياقات الواقعة. فبإرجاع ألفاظ الخطبة إلى مراجعها، يصبح ضمير المخاطبين يخص(أهل البصرة)و(المرأة) في النص هي عائشة و(البهيمة) هوالجمل التي كانت عائشة تركبه في المعركة التي سميت باسمه(معركة الجمل).

والخطيب قد قسم الخطبة إلى ثلاثة أقسام، راعى في القسم الأوّل الزمن الماضي، وفي القسم الثاني الزّمن الحاضر، وفي القسم الثالث الزّمن المستقبل،وركب صوره في القسم الأوّل والأخير.

أما القسم الأوّل فهو الزّمن الماضي فقد عبّر عنه بقوله: كُنْتُمْ جُنْدَ الْمَرْأَةِ، وَأَتْبَاعَ الْبَهِيمَةِ، رَغَا فَأَجَبْتُمْ، وَعُقِرَ فَهَرَبْتُمْ ، وهي مجموعة صور كنائية دالة على الذم والتقريع والتوبيخ لأهل البصرة وقد صدّرها الإمام علي بالفعل (كنتم) الدال على المضي وأردفه بأربعة أفعال دالة على المضيّ أيضاً وهي: (رَغَا، أَجَبْتُمْ، عُقِرَ، هَرَبْتُمْ).

وأما القسم الثاني فهو الزّمن الحاضر فهي تعبّر عن حاضر المتلقين المعيش،وقد عبّر عنها الخطيب بقوله: (أَخْلَاقُكُمْ دِقَاقٌ، وَعَهْدُكُمْ شِقَاقٌ، وَدِينُكُمْ نِفَاقٌ، وَمَاؤُكُمْ زُعَاقٌ، وَالْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ (...) وَالشَّاخِصُ عَنْكُمْ مُتَدَارَكٌ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ) وهي جمل اسمية دالة على الدوام والثبات،وقد خلا هذا الزمن الحاضر من الصور الفنية إلا أنّه لم يخل من الصفات السالبة والذميمة لأهل البصرة.

وأما القسم الثالث فهو الزمن المستقبل، فقد أظهرت مستقبل المخاطبين ومستقبل مكانهم وعبر الخطيب عنها بقوله: كَأَنِّي بِمَسْجِدِكُمْ كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ، قَدْ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهَا الْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهَا وَمِنْ تَحْتِهَا وَغَرِقَ مَنْ فِي ضِمْنِهَا .

ولما كان عمل أهل البصرة سالباً في كلٍّ من الزّمانين: الماضي والحاضر فقد وصف الخطيب مستقبلهم وجعله سالباً كذلك، جراء ما صنعوا به، إذ جعل مستقبل البصرة في صورة عذاب ينصب عليها، فيغرقها الماء، ولا يترك من بيوتاتها إلا قبة المسجد.

وقد صاحب الانتقال من حيز التّأنيب والذّم والتّقريع والتّوبيخ إلى حيز الوصف السالب إلى الإخبار إلى ما ستؤول إليه البّصرة من دمار وما ستعيشه من عذاب وغرق تغييراً في مستوى أدوات التعبير المستعملة، ونعني الصورة التي حضرت في القسم الأوّل وغابت في القسم الثاني، وحضرت في القسم الثالث حضوراً لافتاً للانتباه.

إن هذا يدفعنا إلى القول إنّ الصورة أقرب إلى نفس الخطيب /الإمام علي وأوفى في تأدية المعنى بينه وبين جمهور المسلمين عبر عملية التّواصل.

فهي كالمرآة تعكس مواقفه وأفكاره.

وهنا عكست لنا مختلف الصورنفسية تتقد غضباً سواء كان على مستوى بنائها وترتيبها أوعلى مستوى دلالاتها.

ذكر الخطيب في بداية القسم الأوّل أربع صور فنية ليس لها من وظيفة سوى الحجاج الذي حمل ألواناً من التقريع والتوبيخ لأهل البصرة، وتبرز الصور الكنائية تلبّس أولئك الموصوفين بالخصال الدنيئة في الدين والدنيا، وانسلاخهم من الخصال الكريمة، والمراتب الرفيعة، والقيم النبيلة الشريفة.

وهذا ما أراد علي إثباته من خلال صوره الأربع المتتالية التي يهينهم بها.

وجعل الحديث مقيداً بحادثة هي (واقعة الجمل) بقوله (وأتباع البهيمة) ويقصد الجمل.

ثم يعود في نهاية الخطبة بصورة فنية يذكر فيها مستقبل البصرة التي تصاب بالعذاب والغرق[1].

---

١ . انظر الخطبة ١٦٢ ففيها تفصيل لما سيحدث في البصرة بصورة فنية رائعة.

ونلاحظ إذن مدى التوافق بين حال الخطيب النفسية وكيفية بنائه الخطبة وتوزيع الصور فيها.
فقد تميزت بشيء من الاستقرار وهو يوبخهم على ما كان منهم في حرب الجمل، والحال أنّه يمهد بذلك التوبيخ لإفراغ الموصوفين من أهل البصرة من كلّ ما هو إيجابي ولإثبات كلّ ما هو سلبي، فالتوبيخ والتقريع يحتل القسم الثاني كاملاً.
وقد اتسم بنفس تصاعدي حادٍّ يظهر جلياً في طريقته في عرض الصور، فالقسم الأوّل حمل أربع صور كنائية كبرى ذمّ فيها أهل البصرة وبيّن خفّة أديانهم وذلك برياسة المرأة عليهم، وسقوط مروءتهم وشهامتهم، وجهلهم، وفشلهم، وهروبهم من المعركة، أما القسم الأخير فجاء بصورة واحدة بيّن بها ما ستكون عليه المدينة مستقبلاً إذ يحل عليها العذاب فتغرق فلا يبقى إلا قبة مأذنة المسجد.
إنّ حركة الصورة هنا ذات ثلاثة أحوال: حركة وكثافة وسرعة في أول الخطبة، ثم سكون في وسطها وحركة في آخرها.
ونشير أيضاً إلى أن عدداً من الخطب الحربية التي تضمنتها المدونة العلوية كانت خواتيمها صوراً[٢].

وهي طريقة في الحجاج مهمة جداً لأن آخر ما يسمع في الخطاب يظل يرنُّ في مسامع جمهور المتلقين للخطاب، فما بالك إذا كان آخر ما يسمع تصويراً ومجازاً ؟ يحصل إذ ذّاك لدى السامع رنينٌ و تخييل معاً، وفي اقترانهما يقوى التأثير.
إنّ هذه الطريقة في العرض تجعل الإمام علياً أقدر على التحكم في شدّ انتباه الجمهور من المسلمين، لعل هذا من أكبر العوامل التي تحمل على الإذعان له وعلى التسليم بصحة ما يقول وتصديقه.
فجانب كبير من التّأثير النّفسي يحصل بطريقة عرض الصور في الخطبة.
ولئن كان التوبيخ في المدونة العلوية أنواعاً حللناها آنفاً واختلافها هذا ليس بالضرورة دالاً على التّنوع دون التقاءٍ فلو أنعمنا النظر جيدا لوجدنا أنّ التّوبيخ بالتّشبيه يصبُّ في خانة رديفه بالاستعارة، وكذا شأن الأخيرة تصبّ في بوتقة التوبيخ بالكناية وهذه تؤدي حتما إلى المجاز فالاختلافات بين أقسام علم البيان لم تكن إلا اختلافات إجرائية طفيفة، فمقدرة الإمام علي على حياكة القول ونسجه وصناعة المعنى جعلت سداء الخطاب واحدا وكانت الصورة (خلالة) تدك اللفظ وتحشده فيستوي ولا يرعوي ويكون جاهزا ليقنع سامعه ومتلقيه بأنّه ضرب واحدٌ وإن اختلفت ألوانه.

المحور الثّاني: الاستشهاد

الاستشهاد يجيء في النص العلوي على أساس أنّ القاعدة قد سبقته إلى الذهن والمراد منه مزيد من ترسيخها بأدلة[٣] واقعية غالباً ما تكون معلومة المصادر كأن تكون من الوقائع المشهورة أو من الشعر أو من الأمثال العربية المعروفة.
والاستشهاد بالقرآن الكريم له الحظ الأوفر في المدونة العلوية ولأنه يعدّ من الحجج القوية التي يحتاجها الخطيب لاستمالة عواطف الجمهور لاسيما بالصورة. يقول الإمام علي في ذمّ المتقاعدين عن القتال مُنِيتُ بِمَنْ لاَ يُطِيعُ إِذَا أَمْرَتُ، وَلاَ يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ (...) دَعَوْتُكُمْ إِلَى

---

١ . انظر على سبيل المثال: ٤، ٦، ٧، ٩، ١٠، ١٢، ١٣، ٢٥، ٣١، ٣٣، ٣٥، ٣٩، ٥١، ٥٦، ٥٨، ٦٠، ٦٨، ٧٠.
٢ . يرى صالح بن رمضان في الرسائل الأدبيّة، ص٤٨٤ أنّ الشاهد الأدبي ذو الوظيفة الإقناعيّة يمثل نوعاً من أنواع الأدلّة في الحجاج وهذا رأيٌ سديد وذلك لأنّ استخدام الشاهد استخداماً صريحاً، سواء كان بتضمينه ونسبته إلى قائله، أو بتحويره وتنبيه القارئ إلى مصدره، نظراً لمّا بين الخطيب والمخاطب من ثقافة وقيم مشتركة، يمثل الشاهد جزءاً منها.فالخطيب يرمي باستعمال الشاهد إلى إشراك جمهور المسلمين المخاطبين في الرأي نفسه الذي يعبّر عنه.
٣ . انظر: مقال عبدالله صوله ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص٣١٦.

نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ، فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ الْجَمَلِ الأَسَرِّ، وَتَثَاقَلْتُمْ تَثَاقُلَ النِّضْوِ الأَدْبَرِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ، مُتَذَائِبٌ ضَعِيفٌ، كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوتْ وَهُمْ يَنْظُرُونَ [1]

وردت هذه الصور التشبيهية الثلاث في الخطبة التاسعة والثلاثين وهي خطبة قيلت إثر استنجاد عامل للإمام علي بعين التّمر، وقد رأى الإمام فيهم من التّثاقل والسّلبية ما جعله يصورهم على ذلك النحو، فأمامنا في هذه الخطبة ثلاث صور حجاجية مختومة بشاهد قرآني وهو قوله:

الصورة الاولى فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ الْجَمَلِ الأَسَرِّ.

الصَّورة الثانية وَتَثَاقَلْتُمْ تَثَاقُلَ النِّضْوِ الأَدْبَرِ .

الصَّورة الثالثة ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ، مُتَذَائِبٌ ضَعِيفٌ، كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوتْ وَهُمْ يَنْظُرُونَ .

ووجه الشبه بين أصحاب علي وبين الجمل الأسرّ والنضو الأدبر هو تثاقلهم فأما جرجرة الجمل فهي أن يحدث صوتاً بحنجرته، ولعل ذلك يحدث عندما تكون الجمال متعبة أو وقت الإعياء، وأما الجمل الأسرّ فهو المصاب بالسرر وهو وجع في الكركرة.

وأما النضو الأدبر فهو المهزول المجروح.

وهذه النعوت تتناسب ومكونات الصورة اللغوية فإذا كان الجمل أسر فهو عليل، وهذه العلة لها علامات منها الجرجرة، وكذلك الجمل المجروح الهزيل الذي يظهر سوء حاله في أثناء حركة جسمه وهي القعود والتثاقل.

وعلى هذا الأساس تبرز أهمية حجاجيـــة الصورة في الخطاب الحربي عند علي بن أبي طالب، فالنعت الملحق بالجمل في الصورتين المتقدمتين في دلالته من جهة وفي استدعائه لأفعال تحيل إلى حالة معينة لأولئك المنعوتين من أصحابه من جهة ثانية، إذ تكمن في أنّها كانت بالفعل مظهراً من جملة مظاهر اختيار المعطيات وجعلها ملائمة للحجاج، على اعتبار أنّ المقصد الحجاجي من إطلاق الصفة تحديد نوع الموقف الذي ينبغي أن يحكم به عليه [2].

والخطيب / الإمام علي حينما يختار معطياته الحجاجية في الصورة الحربية،إنما يكشف عن نظام معتقداته وعن رؤيته الخاصة للمتلقين في تلك الحقبة،فقددعاهم إلى الانتصار بالقيام إلى الجهاد، لكنهم تثاقلوا فقعدوا، وآثروا الهزيمة، فالإمام علي يظهر في صورة السائس الداعي إلى النصر.

ويظهر في الطرف الآخر صورة المتلقين صورة الجمال المريضة المتعبة المتثاقلة التي عجزت عن الفعل والعمل أو تخاذلت فيه.

وإنّ علاقة التّشابه في الصورتين بين الإمام علي وأصحابه المسلمين تبرزعلاقة الراعي / الإمام علي برعيته / جمهور المسلمين تلك العلاقة التي تجعلنا نقر بأنّ الخطيب في مقام سياسي يمارس سلطة الترهيب على السامعين من المسلمين من خلال الصورة التشبيهية، فإن أصاب مخاطبيه بالخوف والرّعب أذعنوا، وما الإذعان إلا وجه من وجوه الحجاج على حدّ عبارة برلمان وتيتكاه، وتتمثل هذه الغاية في أن يجعل العقول (الحجاج) تذعن لما يطرح عليها أو يزيد من درجة ذلك الإذعان.

فأنجع الحجاج ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب [3].

وقد حاول الإمام علي تقوية حججه إلى جانب الصورة المرتسمة في الأذهان وهي صورة الجمال المريضة التي لا حول لها ولا قوة المتعبة المتثاقلة التي عجزت عن أداء أي فعل أو

---

١ . انظر: المقال نفسه، ص٢٩٩.

٢ . انظر تفضيل الصورة في خاتمة الفصل الرابع ص ١٩٠-١٩١.

٣ . الخطبة ٢٥.

تخاذلت وتثاقلت – يشحنها بشحنة دينية عبر الاستشهاد الذي جاء في خاتمة النّص فقد قال: كأنّما يساقون إلى الموت وهم ينظرون [1].

وهذه الشحنة الدينية لا تقف عند حدود الدلالة بل تتعداها إلى شكل الخطاب وقالب الصورة اللغوية، ومعنى ذلك أنّ علي بن أبي طالب عمد إلى آيات القرآن الكريم وما فيها من صور قوية الحجة، فأخرجها من سياقها الذي نزلت فيه وجعلها مطيته للحجاج في ظروف مغايرة.
فلماذا يعتمد الخطيب الصورة القرآنية في خطابه، ويزرعها زراعة الشاهد في الخطبة ؟
يمكننا أن نجيب عن هذا التساؤل من زاويتين: إحداهما أنّ اعتماد الخطيب على الصور القرآنية قد يكون لبلاغة الصورة، وثانيهما لكون تلك الصور حاملة لشحنات دينية في دلالتها وفي موسيقاها.
فالإمام علي إذ يقرب خطابه الحربي من الخطاب القرآني في مادته أو هو يعيده بحذافيره في سياق غير سياقه الأصلي إنّما يمارس سلطة على المتلقي المسلم بالصورة، فيسبغ على خطابه شرعية دينية تقوي حججه وتجعل ذاك المتقبل يذعن لخطابه ويسلم بصوره تسليماً لا ريب فيه.
وإننا لنذهب أبعد من ذلك فقد يرمي الخطيب باستعمال الشاهد القرآني إلى إشراك المخاطب في الرأي نفسه الذي يعبّر عنه، وذلك نظراً إلى ما بينهما من ثقافة دينية وقيم إسلامية مشتركة يمثل الشاهد جزءاً مهماً منها.
ومن الشواهد الشعرية قول الإمام علي مخاطباً أصحابه عندما علم بتثاقلهم عن الجهاد في قتال الخوارج: اللهم مث قلوبهم كما يماث الملح في الماء أما والله لوددت أن لي بكم ألف فارسٍ من بني فراس بن غنم:

هنالك لو دعوت أتاك منهم فوارس مثل أرمية الحميم [2]

ومن ثمَّ يمكننا القول إن الشاهد في الصورة ذات البعد الحجاجي موظفٌ توظيفاً للإقناع والاستمالة.
المحور الثالث: المثال
لقد أهمل الباحثون القيمة الحجاجية الاقناعية للمثال فركزوا على ما هو زخرف بلاغي وأهملوا ما هو إقناع ومحاجة [3].

فالقيمة الحجاجية في المثال لم يسلط عليها البحث بما فيه الكفاية حتى يتم الكشف عن فاعليتها وتأثيرها في هذا المجال من الخطابة العربية بشكل عام، والخطابة العلوية الحربية بشكل خاص.
ومن المظاهر التي يكون التمثيل فيها يزداد قوةً وفاعليةً في إطار المحاجة قوله لأهل العراق: أَمَا بَعْدُ: يَا أَهْلَ العِرَاقِ ! فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ، حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ، وَمَاتَ قَيِّمُهَا، وَطَالَ تَأَيُّمُهَا، وَوَرِثَهَا أَبْعَدُهَا (...)[4].

نلاحظ طغيان الضمير في هذا النص التمثيلي،إذ برز ضميرٌ واحد هو (هي) ويمكن رسم الخطاطة التالية للتوضيح:

حملت (هي) أتمت (هي)
المرأة الحامل أملصت (هي) قيمها (هي) تأيمها (هي) ورثها(هي) أبعدها (هي)
يتضح من الخطاطة السابقة سيادة الضمير العائد إلى المرأة الحامل، وهو(هي)، وتوالت الضمائر الراجعة إلى المرأة الحامل (قيِّمها، تأيُّمها، أبعدُها) وقد شبه متلقي خطابه بالمرأة الموصوفة بالأوصاف الخمسة التي هي وجه الشبه بينها وبينهم، فحملها يشبه تهيؤهم للحرب واستعدادهم لها، وإتمام الحمل يشبه مشارفتهم لاستئصال أهل الشام والظفر بالخصم،

---

١ . صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر الفني، المطبعة الرسمية، تونس ٢٠٠١ .
٢ . الخطبة ٧٠.
٣ . عبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص١٤٥-١٤٧.
٤ . الخطبة ٣٥.

والإملاص يشبه إجابتهم إلى التحكيم وجنوحهم إلى السلم ورجوعهم عن العدو بعد قرب الظفر وظهور إمارات الفتح، فإنّ ذلك رجوع غير طبيعي وغير معتاد للعقلاء كما أنّ الإملاص أمرٌ غير طبيعي وخارج عن العادة وموت القيِّم وطول التأيم يشبه بقاءهم بلا صاحب، الجاري مجرى موته عنهم وطول ضعفهم وتمادي ذلتهم.
كما أنّ موت قيّم المرأة مستلزم لطول ضعفها و تمادي عجزها. ونظرًا لتقصير أهل العراق في أمر الجهاد، فقد تسلط عدوهم على بلادهم، وصار بمثابة الوارث لها.
كما أن المرأة الموصوفة بسبب إملاصها وموت زوجها لايبقى لها وارث قريب نسبيّ أو سببي من القريبين فيرثها البعيد عنها.
وتتمثل القوة الحجاجية لهذا التمثيل فيما يرمي إليه علي بن أبي طالب من تصوير لأهل العراق بالمرأة الحامل.
إذ جاء من أجل تحقيق ذلك بعلاقة واقعية رأى فيها الخطيب أن تشبيه أهل العراق بالمرأة الحامل تصدق عليهم وتبدو فيهم أشد وضوحًا من أي علاقة أخرى.
وهو ما يفسر لجوء الإمام علي إلى التخييل والحياد عن الحقيقة فلو اقتنع الخطيب أو بدا له أنّ إيراد الحقيقة أكثر إقناعًا من المجيء بهذا التمثيل لحضرت الحقيقة وغاب التمثيل.
بيد أن التمثيل في هذا الموقع بدا أكثر نجاعة من حيث أداؤه الحجاجي الإقناعي، ويبقى ديدن العلاقة القائمة بين التمثيل وواقع أهل العراق في حرب صفين هو البحث في طبيعة العلاقة والسعي إلى تحقيق تماثل العلاقتين التخييلية والواقعية.
علاقة علي بن أبي طالب بأهل العراق، وعلاقة المرأة الحامل بحملها، وعلاقة أهل العراق بالمرأة الحامل. وينصرف الإمام علي عن العلاقة في هذا التمثيل إلى تحديد تبعاتها تحديدًا نهض بأدائه أسلوب الوصف السالب لذلك الحمل، فكان غايته أساسًا التوبيخ والتقريع: توبيخ أهل العراق وتقريعهم على تقصيرهم في أمر الجهاد، وجنوحهم إلى السلم إجابة لطلاب التحكيم، وتضييع فرصة النصر.
وتظل فاعلية المثال رهينة بحسن موضعه في الخطاب العربي، يقول الجرجاني: واعلم أن ممّا اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبَّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفًا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبّة وشغفًا فإن كان مدحًا كان أبهى وأفخم (...) وإن كان حجاجًا كان برهانه أنور وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر.. [1]

ومما تقدم من حسن بناء للصورة بالتمثيل وبمليح الوشي والتزيين نستشعر مقدار الإبهار الذي أنشأه الإمام علي بصورته هذه، وسلطان الحجاج الذي توافر من خلالها ليكون السامع أعلم وأكثر دراية بالواقع تلميحاً وتخييلاً لا تصريحاً وإيضاحاً.
وقد يجتمع الاستشهاد والمثال في خطبة واحدة ليحضر الشاهد والقاعدة، ويمتزج الخاص بالعام تمازجًا يقوم أساسًا على مبدأ الدعم وتكثيف الدلالة.
يقول علي بن أبي طالب من خطبته التي قالها بعد التحكيم:
أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرِّبِ، تُورِثُ الْحَسْرَةَ، وَتُعْقِبُ النَّدَامَةَ، وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرِ أَمْرٌ، فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ، حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ فَكُنْتُ وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ:
(بحر الطويل)

---

١ . انظر إلى الخطبة ٣٥ في الصفحة السابقة.

أمَرْتُكُمْ أمْري بِمُنْعَرج اللِّوَى فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إلاَّ ضُحَى الْغَدِ [1]

إذن المثال يختزل تجربة الواقع الذي يعيشه الخطيب في شكلٍ مخصوص يستدعي للأذهان حكاية أو قُلْ واقعة ما غائبة تتميز دلالتها بدرجة عالية من المرونة التي تؤهلها لاستيعاب التجارب السابقة واللاحقة في آن وهو ما يجعله قادرًا على تأسيس القاعدة؛ فيكون بذلك المثال المطروح في الخطبة السابقة[2] حالة خاصة وقع اعتمادها لتأسيس واقع الخطيب المعيش، فالحالة الخاصة التي يعيشها الخطيب قد ارتفعت كثافة دلالتها إلى مستوى القاعدة، فمن خلال المثال السابق نرى أن القاعدة المستفادة من هذا القول(عدم استماع النصيحة) وهو قول قد رشحه الشعر لقائله أولاً ثم بلاغة المعنى المقصود ثانيًا لأن ينتشر ويرتفع من مجرد قولٍ معتادٍ إلى شكلٍ نظري تمتد دلالته على سائر التجارب المماثلة.

وقد اضطلع هذا المثال بتحديد صنف العلاقة التي تجمع الخطيب بجمهور المخاطبين، وهي علاقة تقوم أساسًا على عدم معصية الناصح الشفيق والعالم المجرَّب فإنّها تورث الحسرة، وتعقب الندامة على حدّ عبارة علي بن أبي طالب.

فالمثال إذن هو بمثابة المعيار الذي ترتفع الأشياء أو تسقط بالقياس إليه ويبقى السقوط والارتفاع رهينَ العلاقة التي تجمع مستعمل القاعدة بمخاطبه أولاً ثم طبيعة الفعل الذي يأتيه المخاطب ثانيًا.

المحور الرّابع: الأنموذج[3]

إنّ النصوص العلوية الحربية تحمل ثنائية الأنموذج وعكس الأنموذج في الصورالفنية التي تكون الحجة واضحة فيها، ويمكن ملاحظة ذلك في هذا النص مثلاً: أصحاب محمَّد / أصحاب علي.

فأصحاب محمَّد هم الأنموذج الذي تنادي الخطب الحربية باتباعه وينظر لرسوخه في الدين وقوة إيمانه. وأصحاب علي هم الأنموذج الذي تنبذه النصوص العلوية الحربية وتحذر من عاقبته، وتُكره النّاس فيه فيكرس بذلك في المجتمع ثنائية جديدة هي ثنائية الحق والباطل، فأصحاب محمّد أصحاب الحق وأصحاب علي أصحاب الباطل، وخرجت من هذه الثنائية ثنائية الاستقرار والفتنة، وقد خرج أصحاب محمّد إلى صورة الأنموذج وأصحاب علي إلى صورة عكس الأنموذج ومن ذلك قوله يوم صفين:

وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلاَّ إِيمَاناً، وَتَسْلِيماً،وَمُضِيّاً عَلَى اللَّقَمِ،وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الأَلَمِ، وَجِدًّا فِي جِهَادِ العَدُوِّ. وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا، وَالآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا، يَتَصَاوَلاَنِ تَصَاوُلَ الفَحْلَيْنِ، يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا، أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ المَنُونِ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا، وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا، فَلَمَّا رَأَى اللهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الإِسْلاَمُ مُلْقِياً جِرَانَهُ، وَمُتَبَوِّئاً أَوْطَانَهُ، وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلاَ اخْضَرَّ لِلإِيْمَانِ عُودٌ، وَآيْمُ اللهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَمًا وَلَتُتْبِعُنَّهَا نَدَمًا .

الصورة الفنية الواردة في الخطبة السابقة تحتوي على مقابلة طرفاها ضمير المتكلم في صيغة الجمع نا (كنّا، آباءنا، أبناءنا، إخواننا، أعمامنا، يزيدنا، عدونا، فمرة لنا من عدونا، ومرة لعدونا منا) وهو يضم الإمام عليّاً وأصحابه حينما كانوا مع الرسول، وضمير المخاطب في صيغة الجمع الدال على جمهور المسلمين المخاطبين لحظة إلقاء الخطبة.

(أتيتم، لتحتلبنها، ولتتبعنّها)، فجمهور المخاطبين يأتون من السلوك والأفعال ما لا يجدي نفعًا بل يضرّ بالدّين.

---

١ . وردت في المدونة العلوية الكثير من الخطب التي حملت صوراً لقضية الأنموذج منها الخطبة: ٥٦، ٩٦، ١٠٧، ١٢٠، ١٨٠،.....

٢ . الخطبة ٥٦.

٣ . الخطبة ٩٦.

ونخلص من كلّ هذا أنّه بعلي بن أبي طالب وأصحاب محمّد زمن الرسول اخضرّ للإيمان عود وقام للدين عمود؛ وذلك لما تميّزوا به من الشجاعة والإقدام وقوة البأس والإيمان والخوف على الدّين.

وهذه الأشياء لا تتوافر عند المخاطبين – كما نفهم من الصورة – لأنّهم لم يستجيبوا للإمام علي فيما دعا إليه، فالمقام هنا مقام تأنيب أساسًا.

بيد أن الهدف من وراء هذه الصورة ليس إلاّ المقارنة بين حال أولئك وحال أتباعه الذين خذلوه ولم يقوموا بواجب نصرته؛ فكان موقفهم موقف الضد من أصحاب الرسول، وقد توصّل الخطيب إلى توبيخ متلقي الخطاب من خلال مقارنتهم بأصحاب الرسول؛ ذلك أن أولئك الأصحاب بذلوا ما في وسعهم فنصرهم الله، أما أصحاب علي فلم يبذلوا في سبيل نصرة إمامهم شيئًا؛ لذلك لن يحصدوا إلاّ الخسران المبين، والعاقبة الوخيمة.

فإذا كان علي وأصحاب محمّد فيما مضى أصل الخصوبة والنماء في الدين واستمراره حيًّا فهم الأنموذج فإنّ أصحاب علي – مخاطبيه لحظة التلفظ بالخطبة – سيكونون عكس الأنموذج المطروح، فقد يموت الدين بسبب اليبوسة والقحط إذا ما استمروا في تقاعسهم وتخاذلهم عن نصرة الحق، بحسب منطوق الصورة التي تطرح الأنموذج وعكسه في آن واحد، وما الهدف من طرح الأنموذج وعكسه إلاّ المبالغة في التوبيخ والتقريع.

ولئن كانت الخطبة السابقة مبنية على طرح الأنموذج وعكس الأنموذج، فإنّ الخطبة التالية تطرح عكس الأنموذج والأنموذج أي هناك تقديم وتأخير في الطرح، فالإمام علي يوبخ أصحابه على التباطؤ عن نصرة الحق فيقول وقد اكتظت الخطبة بالصور: وَلَئِنْ أَمْهَلَ الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ (...) أَشْهُودٌ كَغُيَّابٍ، وَعَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ ؟ أَتْلُو عَلَيْكُمُ الْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا، وَأَعِظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا، وَأَحُثُّكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتِي عَلَى آخِرِ قَوْلِي، حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِي سَبَأَ، تَرْجِعُونَ إِلَى مَجَالِسِكُمْ، وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ، أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً كَظَهْرِ الْحَنِيَّةِ، عَجَزَ الْمُقَوِّمُ وَأَعْضَلَ الْمُقَوَّمُ. (...) يَا أَشْبَاهَ الإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا،

كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ، تَفَرَّقَتْ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ ، وَاللهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَا إِخَالُكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى وَحَمِيَ الضِّرَابُ، وَقَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الْمَرْأَةِ عَنْ قُبُلِهَا. وَإِنِّي لَعَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي. وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطًا.

(...) لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَمَا أَرَى أَحَدًا يُشْبِهُهُمْ مِنْكُمْ، لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثًا غُبْرًا، وَقَدْ بَاتُوا سُجَّدًا وَقِيَامًا، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ، وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ، كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبَ الْمِعْزَى، مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ إِذَا ذُكِرَ اللهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبُلَّ جُيُوبَهُمْ، وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ، خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ، وَرَجَاءً لِلثَّوَابِ [1]

لقد بدأت الصورة الفنية التي تعمل بوظيفة حجاجية، وبغرض طرح الأنموذج وعكسه فوصفت حال أصحابه أولاً ثم عرضت الخطبة الأنموذج المثالي لصحابة رسول الله.

فقد ذم أصحابه ووبخهم على تثاقلهم عن جهاد معاوية وأصحابه، الذي كان في أطوع جندٍ وأصلحه فأهل الشام يضرب بهم المثل في الطاعة والمتابعة وكان عليٌّ في أعصى جندٍ وأخسه[2]

(أهل العراق).

المحور الخامس: توظيف الحكمة[1]

---

١ . انظر: الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص٤٣٩.

٢ . الحكمة: هي خلاصة تجربة بشرية من حيث المعاني والمضامين، وتصاغ صياغة مخصوصة تعتمد على الإيجاز. أو كما يقول مبروك المناعي هي نطق اللسان بحقائق العقل ومواقف الوجدان (...) نثراً في النثر وشعراً في الشِّعر؛ مبروك المناعي، أبو الطيب المتنبي: قلق الشعر ونشيد الدهر، ط٢، دار اليمامة، تونس ١٩٩١، ص١٤٤.

ترد الحكمة في نصوص علي بن أبي طالب الحربية في القسم النهائي أو قُلْ خاتمة الخطبة غالبًا؛ وذلك نظرًا لاختصاص هذا القسم من الخطبة بإثارة الانفعالات واستغلال ما أسماه أرسطو بـ (الباتوس)[٢].

حيث تمثل خاتمة الخطبة المجال الفني المضطلع بتوجيه انفعالات الجمهور وترويضهم بقصد إلقاء الحجة عبر خارطة جديدة للصورة القنيّة هي الحكمة،والحكمة – كما جاء في الموروث الدِّيني – ضالة المؤمن، كما أنّها من أكثر الأساليب قدرة على الاضطلاع بالمهمة هذه؛ وذلك نظرًا لقدرتها على احتواء الماضي والحاضر في آنٍ واحد.

فلما خُوِّف الإمام علي من الغيلة[٣] قال في نهاية خطبته: لا يَطِيشُ السَّهْمُ وَلا يَبْرأُ الكَلْمُ [٤].

فخاتمة هذه الخطبة تحمل هذه الصّورة القنيّة التي تصوِّر المنية تطلق سهامًا لا تخطئ، وأن جرحها لا يمكن برؤه أو تطبيبه، وهذه الاستعارة المكنية للمنية تؤكّد يقين الإمام علي في الموت وتبرز من جانبٍ آخر شجاعته وعدم خوفه من الغيلة التي حُذِّرَ منها.

وهو بما أوتي من مقدرة لغوية مكنته من صياغة نصه على نحو مُوَقَّعٍ ممّا يجعل المتلقي في حال من الافتتان بمقدرة الخطيب أولاً ثم بهذا الإطار الطقوسي الخاص الذي حرص الخطيب على تأسيسه، فهو يؤثث فضاءه الخطبي بأسلوب السجع (السهم / الكلم) الذي يجعل المتلقي في حالة افتتان تقوده إلى حال من الوثوق والاستلاب تمنعه من تفنيد ما يقال أو مناقشته بل التسليم لكلّ ما يقال عبر العلاقات الإيقاعية التي يضعها الخطيب في حكمه والتي تكون بمثابة العلاقات الواقعية القائمة بين عناصر الموضوع المتحدث فيه فيسري إيقاع الحكمة في أذهان المتلقين من جمهور المسلمين.

والحكمة في خطابة علي الحربية ليست هدفاً مقصوداً لذاته تستقلُّ به الخطبة الحربية أو تقال لأجله، وإنما هي فقرات قصيرة في الغالب وأسطر خطابية ترد في شكل لُمع وإضاءات متناثرة مبثوثة في خطابته هنا وهناك تكوّن إذا جمعناها وصنّفناها وحللناها جملة من المواقف والعبر والحقائق جديرة بكلِّ اهتمام لا لنفاذ الرؤية منها فحسب وإنّما لجودة العبارة الخطابية وحسن الأداء وجمال الصورة القنيّة فيها وهذا ما يهمنا.

فالحكمة ترد عند علي بن أبي طالب في خطابه الحربي في المفاصل الكبرى من الخطبة: ترد في البداية، وترد في الوسط، وترد في النهاية.

وهي تميل إلى الإيجاز والتكثيف البالغ إذا كانت في بداية الخطبة أو خاتمتها، وتنزع إلى الطول النسبي إذا كانت في وسطها.

والصّورة القنيّة حملت الوظيفة الحجاجية بروح الحكمة في بداية الخطبة، وكانت بحق نوعاً من الخطرة القويّة الموقظة للعقل والجسم.

وقد وردت في شكل إيحائي مركز جدا ينبئ بمجتوى الخطبة برمتها، و هذا من شأنه أن ينبه جمهور المتلقين إلى أن ما سيقال من قبيل التجربة التي يشترك فيها الحاضر مع الماضي كما أن أصل التجربة في الماضي قد تكون مؤلمة ومخيفة ممّا يجعل الحاضر أكثر خوفا وألما، وهو خوف يدفع جمهور المسلمين إلى الإنصات إلى ما يقال ومن ذلك قوله في شأن الحكمين وذمّ أهل الشّام: جُفَاةٌ طَغَامٌ، وَعَبِيدٌ أَقْزَامٌ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَتُلُقِّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِمَّنْ يَنْبَغِي

---

١ . وهو ما ينبغي أن يثيره الخطيب في الجمهور من مشاعر وأحاسيس وانفعالات تحقق اقتناعه وتسليمه بمحتوى الخطاب ؛ انظر: مقال محمّد على القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، سلسلة آداب، منشورات كلية الآداب منوبة ١٩٩٨، ص٣٩٨.

٢ . الغيلة: في كلام العرب هي إيصال الشر والقتل إليه من حيث لا يعلم ولا يشعر ؛ ابن منظور، لسان العرب، ٥١٢/١١.

٣ . الخطبة ٦١.

٤ . الخطبة ٢٣٥.

أنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ وَيُعَلَّمَ وَيُدَرَّبَ، وَيُوَلَّي عَلَيْهِ وَيُؤْخَذَ عَلَي يَدَيْهِ، لَيْسُوا مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَلاَ مِنْ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدار [١].

ففي بداية الخطبة جاء الإمام علي بصورة كنائية هي (عبيد أقزام) عن رديء الأخلاق التي يصف بها أهل الشام، وأردفها بصورة كنائية أخرى هي (تلقطوا من كل شوب) وهي كناية عن كونهم أخلاطاً ليسوا من صراحة النسب في شيء، فلا هم من المهاجرين ولا من الأنصار ولا حتى من الذين تبوّأوا الدار (أي نزلوا المدينة).
ومن هذا الباب قوله مشبهاً القران بالخطّ المستور بين الدفتين لا ينطق بلسان ولا بدّ له من ترجمان: إنَا لَمْ نُحَكِّم الرِّجَالَ وَإنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ، وَهَذَا الْقُرْآنُ إنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْ تُرْجُمَانٍ، وَإنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ. وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إلَى أنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُن الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّي عَنْ كِتَابِ اللهِ. وَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ تَعَالَى: فَإنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللهِ وَالرَّسُولِ فَرَدُّهُ إلَى اللهِ أنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ، وَرَدُّهُ إلَى الرَّسُولِ أنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ، فَإذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللهِ، فَنَحْنُ أحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَنَحْنُ أوْلاَهُمْ بِهِ [٢].

وفي كنايته عن النَّهر بالنُّطفة قوله:
مَصَارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ ! وَاللهِ لاَ يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ، وَلاَ يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ [٣].

أما الصّورة الفنّيّة التي حملت الوظيفة الحجاجية بغرض الحكمة في وسط الخطبة الحربية، فلقد كانت تأكيداً وبناءً وصوغاً عقليّاً لمعطيات الحس والوجدان.
فمن أمثلة الصور الفنية الحاملة للحِكَم التي يفضي إليها الخطاب العلوي في وسط خطبته قوله في الحث على الجهاد وذم المتقاعدين من أصحابه فقد شبههم بأشباه الرجال وبحلوم الأطفال وبعقول ربات الحجال (النساء):
يَا أشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلاَ رِجَالَ ! حُلُومُ الأطْفَالِ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ [٤]

وقوله لأصحابه في ساحة حرب الجمل مشبها الموت بالطالب الحثيث الذي لايفوته المقيم ولا يُعجِزُه الهارب: إنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ، لاَ يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَلاَ يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ، إنَّ أكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ، وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ لأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ [٥]

بعد دراستنا لوظائف الصور الحجاجية في خطب الإمام علي الحربية التي كان غرض توظيف الحكمة بارزًا فيها يمكننا استجلاء ما أبدعه الإمام علي في هذا الجانب حيث وظفها توظيفًا محكمًا وسندت الحكمة قوله فكانت له عمادًا إلى درجة أن القول المؤطر قد تحول بمر الزمن وبحكم اقترانه بالقول البليغ (الحكمة) إلى حكمة لا تخفى اليوم على الباحث إلى درجة أن جلّ مدونته العلوية الحربية تقريبًا إن لم تكن قوالب حكمة صريحة فهي تضيق بالنفس الحكمي الطاغي عليها.
وتوظيف الحكمة في الصّورة الفنّيّة في المفاصل الكبرى من الخطبة الحربية في كلّ ما مرّ يفرزها الموقف الحربي القوي، وتسهم هي إسهاماً مبدعاً في إنتاج النّص الحربي فيرتقي الكلام من عاديته المتاحة لجميع البشر إلى فنيته المتفرّدة، رغم أن الحكمة جنس فرعي يخدم خطّة القول [٦].

---

١ . الخطبة ١٢٣.
٢ . الخطبة ٥٩.
٣ . الخطبة ٢٧.
٤ . الخطبة ١٢٢.
٥ . صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية، ص٥٧٠.
٦ . انظر: حلمي مرزوق في كتابه النقد الأدبي في القرنين الخامس والسادس الهجريين، ط٢. د.ن، ٢٠٠٤ ص١١٨ ولقد أدرك العرب خطر هذا الخلق الأدبي فاتنهوا بالمزية كلها إليه، وجعلوه المعيار الذي لا معيار وراءه في

وبهذا البحث نختم وظائف الصّور المستخلصة من علاقتي التشابه والتداعي، التي ميزت المدونة العلوية، وطبعتها بخصائص فنية معينة.
وقد لاحظنا أن الوظائف الحجاجية من أبرز الوظائف وأكثرها انتشارا في المدونة.
ولا نحسب أنّ الإمام عليًا قد لهج بذكر الصور التّوبيخية في نصوصه الحربية عبثاً أو انهال عليها عفواً. وإنّما لهج بما لهج به لكثرة ما رآه من تخاذل في الجند وتقاعس في الأصحاب عن القتال والجهاد معه، فراح يوبخهم شرّ توبيخ، ولأنّه يحب لهم العيش الكريم عبر الجهاد في سبيل الله، وهم لا يريدون أن يخرجوا معه، فكانت الصورة التوبيخية طريقه إلى ذلك.
وإذا رجعنا إلى الوظائف الحجاجية الخمس التي أفرزتها صور علي بن أبي طالب والتي تقاسمت المدونة العلوية الحربية، وهي (التوبيخ، والاستشهاد، والمثال، والأنموذج، وتوظيف الحكمة) وجدناها تنضوي كلّها تحت وظيفة حجاجية واحدة وهي التوبيخ إذ هي الوظيفة الأبرز في المدونة،وقد توصل إليها الإمام بعدة صور وهي: الاستشهاد والمثال والأنموذج وتوظيف الحكمة، ففي الاستشهاد توبيخ وتقريع، وفي ضرب المثال توبيخ وتقريع، وفي الأنموذج وعكس الأنموذج توبيخ وتقريع، وفي توظيف الحكمة توبيخ.
ولا غرابة أن يكثر التوبيخ بالصورة في خطب الإمام علي، وذلك لأن الإمام علياً كان في أعصى جندٍ وأخسه على حدّ عبارة الثعالبي السالفة الذكر؛ ولأنّ أتباعه من أهل العراق قوم ركنوا إلى الحياة وتقاعسوا وتخاذلوا عن نصرة إمامهم وقائدهم فكان من الطبيعي أن يستثير الإمام همم أصحابه ويبين لهم الحالة التي هم عليها والمصير الذي ينتظرهم.
ولم نجد ضعفًا في صوره الفنية على الإطلاق من حيث جِدّتها وطرائق عرضها، و تشكلاتها والوظائف التي أدّتها في خطابه الحربي، فقد كان الإمام – بحق – الأستاذ القدوة الذي يخلق النماذج التعبيرية خلقًا مراعيًا هيئات التراكيب التي تقتضيها تلك المشاعر والأحاسيس حتى أنّ هذه الصور الحربية أصبحت من مخزون الحضارة العربية و تراث الإنسانية، وتأثر بها غير واحدٍ من الأدباء والشعراء على مرّ العصور والأيام، حتى أن الإمام عُرف بهذه الصور التوبيخية الإبداعية التي قالها في أتباعه وأصبحت وقفًا عليه[1]. فالإبداع كما يكون في خلق هيئات التراكيب أو قل في خلق نماذج التعبير ، يكون في خلق الصور الأدبية [2].
فالإبداع والتجديد والاختراع، كلّ أولئك عصب الأدب – كما يقال – بل فيما نعتقد أنّه جوهر الفن، وبه يقع التفاضل ويكون الامتياز.
ولئن كانت نصوص علي بن أبي طالب الحربية قد مرّت في حركتها نحو الإقناع بقنوات كثيرة، فإن القناة الأبرز هي قناة الصورة، فقد كانت هذه القناة أقصر السبل إلى بلوغ الغاية المرسومة لما اكتسبته من جذور قرآنية ومصادر شعرية وأمثال نثرية معلومة، فلقد بالغ الإمام علي في انتقائها وتحديد مواضع الإتيان بها مستندًا في ذلك إلى معرفته الواسعة بالحياة والحرب والجمهور المخاطب وما به يتأثر وله ينفعل ولأي المواقع الاقناعية تصلح الصورة شعرًا،ولأيها تصلح نثرًا مع الانتباه الشديد للفرق بين التعبيرين الشعري والنثري في الخطابة وهو أن التعبير الشعري في الخطابة يوحي إيحاءً غامضًا ويؤثر بالوهم والعاطفة بينما يعمد التعبير النثري إلى التوضيح والإقناع بالإفهام والمنطق[3].
وقد طبعت الصّورة الحجاجيّة الحاملة لغرض الحكمة التي جاءت في بداية الخطبة ووسطها وخاتمتها في خطابة علي الحربية - علاوة على ذلك - بطابع الإسلام الأصيل، فقد سجلت

الفضل والامتياز، فكان الأديب إذا وقع فيهم على نظم جديد للكلام، أو صورة غير مسبوقة من صور التشبيه أو الكناية أو الاستعارة والمجاز عُرف بها وعُرفت به، واختصوه بها ونسبوها إليه، فأصبحت (كالماركة المسجلة) أو حق الاختراع في هذا العصر إذا أخذها أديب غيره، رموه بالسّرق، واتهموه في أدبه وموهبته.

١ . المرجع نفسه ص١٢١.

٢ . إيليا حاوي، فن الخطابة، منشورات الشرق الجديد، بيروت ١٩٦١، ص٧٠.

٣ . حلمي مرزوق، النقد الأدبي في القرنين الخامس والسادس الهجريين، ص١٢١.

حضورًا مكثفًا كأسلوب من الأساليب أو كخطةٍ من خطط الخطيب / الإمام علي، ولعل ابن أبي طالب قد جاء بالصورة الفنية هذه، وبالشّكل التّركيبي والمضموني والإيقاعي الخاص لها،ليصنع الحكمة العلوية الخاصة فيمرر ما أراده من أفكار وأقوال عبر هذه القناة الأسلوبية البالغة التأثير.
لقد اكتملت بدراسة وظائف الصور خصائص الصورة الفنية في خطب الإمام علي الحربية.
فالصورة عند ابن أبي طالب كفيلة بتحقيق التأثير أو قل أنواعاً من التأثير في متلقي الخطاب المباشر من المسلمين إن بشكلها البياني كما في (الصور القائمة على التّشابه أو التّداعي) أو بمصادرها ومرجعياتها كما في (مصادر الصور) أو حتّى بطريقة عرضها ضمن نص الخطبة الحربية.
وتحصل أنواع التأثير في المتلقي المباشر توبيخاً،وترهيباً، وترغيباً، وتأنيباً بتضافر قوتين: قوة الخطيب الصّانع للصورة، وقوة المخاطب المفكك لتلك الصورة، فتراه ينظر إلى العلاقة بين مكوناتها، ويستعين بالجلي فيها لكشف الخفي، ويربط بين مقالها ومقامها.
وهذا كلّه من شأنه أن يجعل المتلقي طرفاً فاعلاً في عملية التواصل، ومنتجاً لمعنى في الحدود التي رسمها الخطيب.
ولئن كان الإمام علي يهدف إلى تحريك جمهور المتلقين ودفعهم نحو تأدية فعل الجهاد والدفاع عن النفس، فإنّه كان ينتظر أن يستجيب له أتباعه تلقائياً.
فالمتلقي حينما يجهد نفسه من أجل استنباط المعنى أو تصوره يكون تأثيره بالصورة أقوى، وتنبع ردة فعله من ذاته للتعبير عن شعوره بالذل، أوعن شعوره بالرهبة والرغبة في تلافيهما بالفعل المناسب، أو لتعبر عن إحساس بالرغبة يتولد منه السعي إلى إتمام العمل لينقلب المنشود موجودا بالفعل.
وهذه هي غاية كلّ حجاج.
وجماع القول إنّ الصورة الحاملة على العمل النابع من رغبة فيه ومن اقتناع به.
تصبح بديلاً عن الفعل في صيغته الأمريّة فمن شدة حرص الإمام علي على تحريك جمهور المسلمين نحو الفعل المتوجه إليه متوسلاً بالصورة يفيده بألا يقول (الأمر) أو يصدر الأوامر والنواهي وبأن يتأكّد من تحققه فيما بعد، الأمر الذي يثبت الوظيفة الأخرى للصورة أو قُلْ الوظيفة اللاقولية – إن صح التعبير – للصورة.
وقد أفضت بنا دراسة وظائف الصور في خطب الإمام علي الحربية إلى جملة من النتائج هي:
١- أنّ معظم الصور في الخطاب الحربي تحمل وظيفة حجاجية، وقد تنوّعت أغراضها ومراميها فمن التوبيخ إلى الاستشهاد إلى المثال إلى الأنموذج إلى توظيف الحكمة.
٢- كثرة ورود الصور الحجاجية الحاملة لغرض الوصف بغاية التقريع والتوبيخ ومردّ ذلك – في رأينا – إلى أن الغاية من الصورة في ما تناولنا من خطب حربية هي إحداث التأثير الوجداني الذي يهيئ لرد فعل عملي مقصود من قبل جمهور المسلمين المتلقين للخطاب، وليست تُثير الذائقة الأدبية ولا تقصد إلى الإمتاع بشيء.
ولهذا كثر التقريع والتوبيخ للجمهور والجند المتقاعسين عن الجهاد وجاءت معظم الصور تقبيحية، تظهر الوصف السالب، وكان مرجع الصورة إمّا إلى متلقٍّ حاضر كـ (أصحابه)، وإما إلى متلقٍّ غائب كـ (طلحة، والزبير، وعائشة، ومعاوية).
٣- أخذت الصور الفنية موقع الاستشهاد في العديد من الخطب الحربية – كما رأينا -، ويوردها الخطيب / الإمام علي لمزيد من الترسيخ بأدلة واقعية غالبًا ما تكون معلومة المصادر كأن تكون من الشعر أو من الأمثال العربية المعروفة والآيات القرآنية.
٤- أدّت حجاجية الصورة الفنية في نصوص علي بن أبي طالب الحربية الحاملة لغرض المثال دوراً بارزاً في عملية الإقناع والمحاجة، فقد كان التمثيل في المدونة العلوية هو الشكل البياني القادر على إثبات المعاني عبر تأثير الصورة في عاطفة السامع أوفي عقله مما يجعله يذعن أو يقتنع، بل هو الأداء الأكثر نجاعة من حيث أداؤه الحجاجي الإقناعي.

فالعلاقة بينه وبين الواقع الحربي أدى إلى تماثل بين العلاقتين التخيلية والواقعية كعلاقة الإمام علي بأهل العراق فكانت غايته أساساً التوبيخ والتقريع في جل التمثيلات التي جاء بها في خطبه الحربية نظراً لقعود أتباعه عن القتال بعد أن استنفرهم فلامهم على تقصيرهم. فالتمثيل تظل فاعليته رهينةً بحسن مواضعته في الخطاب الحربي،وبسلطان الحجاج الذي جاء به الإمام حتى يكون المتلقي أعلم وأكثر درايةً بالواقع تلميحاً وتخيلاً لا تصريحاً وإيضاحاً.

ويظل المثال بمثابة المعيار الذي ترتفع الأشياء أو تسقط بالقياس إليه، وما الارتفاع والسقوط إلا رهين علاقة تجمع مستعمل المثال / القاعدة بمخاطبه، وقد كان الإمام علي واعياً إلى تمثيلاته التي طابقت الواقع الذي عاشه، ولعل ذلك هو الذي أدى إلى تقديم على بن أبي طالب وشهرته في البلاغة وفن القول؛ فهو يخلق نماذج من الصور في عمليات التمثيل كقوله(مصارعهم دون النطفة، ملكتني عيناي، يا أشباه الرجال، يا أشباه الإبل، يا أهل العراق ! فإنّما أنتم كالمرأة الحامل، تكشون كشيش الضباب...) صورةً لم تكن العرب قالتها ولا سمعت بها، حتّى جاءهم بها الإمام علي فاقتدوا به وحذوا حذوه، وهذا هو الإبداع، فـ (الإبداع كما يكون في خلق هيئات التراكيب أو قُلْ خلق نماذج التعبير يكون في خلق الصورة الأدبية)[1].

٥- أنّ إدراج الصورة الحجاجية الحاملة لغرض الحكمة في الخطاب الحربي جزء من خطة الخطيب، ومكون من مكونات بنيتها، وهي ليست للتحسين والتجميل فحسب؛ وإنّما هي للإقناع والتأثير، وإنّ ورودها في خاتمة الخطبة غالباً يعطي أبعاداً كثيرة منها:

أ- التعبير عن عجز الخطيب عن الاستمرار بالحجة إذ أنّه استوفى جميع الحجج والأدلة.

ب- أنّ الحكمة تسدّ عجز اللغة وتسعف الخطيب بإمكانات حجاجية كبرة باعتبارأنّ الحكمة تحقق إذعان المتلقي، إذ لاشيء أقهر للعقل والوجدان منها.

جـ- الحكمة تضفي على الخطبة شعرية تظهر في كثافة الإيقاع المولد للنغم والموسيقى ويتأتى ذلك من بنية الحكمة اللغوية إذ غالبا ما يحتضنها أسلوب السجع فتنفذ بموجب هذا البعد الغنائي إلى وجدان المتقبل وتستقر في مشاعره وأحاسيسه بعد أن استقرت في عقله.

وهي تعبر عن خطة الخطيب في التأثير في جمهوره ومتلقي خطابه.

د- إنّ الشريط الكلامي المخصص للحكمة يرد عادة قصيرًا ومختصرًا يكاد يكون إشارة أو ملاحظة عابرة غير أنه لايعكس فقرها أو ضعفها، وإنّما تعكس هدف الخطيب من الخطبة وتعكس جوهر مقاصده وأهدافه. إنّ الحكمة على قلة امتدادها في الخطبة تظل بمثابة النواة التي تستقطب دلالات الخطبة وتوزعها في آن واحد. إننا أحيانا نكاد نوجز الخطبة في الحكمة الواردة فيها.

هـ- لقد وضع الإمام علي الحكمة في خاتمة الخطبة غالباً لأنّه يؤمن أن جمهور المسلمين جمهور مستمع للخطبة وينشدون لخواتيمها أكثرمن أي جزء منها،فتظل الخطبة برمتها خادمة لخاتمتها وموصلة إليها، دون سقوط في التكرار،ولكن جمهور المسلمين من أهل العراق كانوا ينفرون من حكمه لأنّهم لا يريدون الحرب وأهوالها ويتفرقون من مواعظه حينما كان يتلوها عليهم وهذا ما نعرفه من نصوصه الحربية التي قالها فيهم: أَتْلُو عَلَيْكُمْ الْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا، وَأَعِظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا [2].

وحتى كتب التاريخ قد سجلت تخاذل أهل العراق وتقاعسهم عن الحرب، فهذا الثعلبي مثلا في ثمارالقلوب يروي أن عليّا كان في أعصى جندٍ وأخسه. يعني أهل العراق[3].

---

١ . الخطبة ٩٦.

٢ . انظر: الثعلبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، في الباب السادس والأربعين فيما يضاف إلى البلدان وينسب من الأعراض ص٣٩٤. أهل الشام مخصوصون بطاعة السلطان من بين جميع البلدان، وبهم يضرب المثل في الطاعة والمتابعة، وإنّما وَريتْ زناد معاوية بهم، وكثيراً ما كان يقول: أعِنْت عليّ بأربع: كنت رجلاً كتوماً، وكان ظَهَرة، وكنت في أطوع جندٍ وأصلحه _ يعني أهل الشام _ وكان في أعصى جندٍ وأخسه _ يعني أهل العراق _ .

٣ . ....

٦- أدّى موقع الصورة دورًا مهمًا في توجيه تقبل الجمهور لما يسمع، فقد كان بحق جهاز التحكم في ذلك التوجيه إذ إنّ الصورة الحجاجية الحاملة لغرض التوبيخ أو الاستشهاد أو المثال أو الأنموذج أو الحكمة كانت الموقع الأكثر ظهورًا في المدونة الحربية وخاصة في خاتمة الخطبة، ومرد ذلك إلى أن الخطيب كان يهدف إلى جعل الصورة تحدث رنينًا وتأثيرًا بالغين في المتلقي ممّا يؤدي إلى الإذعان والتسليم لمطلب الخطيب، وبذلك يتحقق الهدف من الصورة والخطبة عمومًا.

التأويل لنص نهج البلاغة في شروح ثلاث

الاستاذ المساعد الدكتور: حامد ناصر الظالمي

و د. مرتضى عباس فالح (كلية التربية – جامعة البصرة - قسم اللغة العربية)

يتناول هذا البحث فكرة اختلاف التأويل بين شارحي نهج البلاغة وتعدد وجهات نظرهم حسب تعدد مدارسهم ومنطلقاتهم ومتبنياتهم فمن المعروف ان شروح نهج البلاغة تجاوزت المئة شرح وقراءة ولكننا هنا حاولنا ان نركز على المدارس الفكرية الاكثر شيوعاً والشراح الذين ينتمون لها لذا وقع اختيارنا على ابن ابي الحديد المعتزلي ت ٦٥٦ هـ ممثلاً المدرسة الاعتزالية ولابن ميثم البحراني ٦٧٩ هـ ممثلاً للمدرسة الصوفية ولحبيب الله الهاشمي الخوئي ١٣٢٤هـ ممثلاً للمدرسة الامامية الاثني عشرية، هذا من جانب ومن آخر ان هذه الشروح تتسم بالسعة والشمولية في مادتها وتأويلها ومن جانب ثالث ومهم حسب ما نعتقدان تلك الشروح كانت قد أهديت الى امراء زمانهم أو انها كُتبت بطلب او بإشارة من اولئك الأمراء الى هؤلاء الشراح ومن الطبيعي ان تتنوع الآراء هنا فمنها تأويل عقائدي ومنها دلالي ومنها بلاغي ونحوي وغير ذلك ولكننا هنا في هذا البحث اقتصرنا على التأويل التأريخي والمقصود به تفسير الحوادث التاريخية التي جاء ذكرها في نهج البلاغة وكيف فهمها هؤلاء الشراح اذ، جاء ذكر وقائع وملاحم وشخصيات وأماكن وألفاظ تدل على واقع اجتماعي معين عاشه الامام علي فهل كان كلام الامام مقتصراً آنذاك على ما عاشه ام ان كلامه يمتد الى زمن يتجاوز زمن القول وهذا ما عرفناه في ضوء البحث وان نصوص النهج وإن أريد بها الواقعة المحددة التي جاء النص بسببها الا ان النص كذلك يتجاوز زمنه الى ما هو ابعد لذلك بقي هذا النص مدار حديث وتأويل واختلاف واتفاق ونقاش ومعارضه كل حسب ما يراه فيه وهكذا تعدد شراحه وهذا البحث نموذج لذلك اختلف الشراح الثلاثة في تأويل لفظة الضليل في قول الامام علي (عليه السلام) (لَكأني انظُر الى ضليلٍ قَد نَعَقَ بالشَّام وفَحَصَ بِرَاياتِهِ فِي ضَواحِي كُوفَان)[١] (الضليل)، اذ يرى ابن أبي الحديد: انه كثير الضلال، وهو كناية عن عبد الملك بن مروان لان هذه الصفات والإمارات فيه، أتم من غيره، لأنه قام بالشام حين دعا لنفسه، وهو معنى نعيقه وفحصت راياته بالكوفة تارة حين شخص بنفسه الى العراق وقتل مصعباً، وتارة لما استخلف الأمراء على الكوفة كبشر بن مروان أخيه وغيره حتى انتهى الأمر الى الحجاج، وهو زمان اشتداد شكيمة عبد الملك وثقل وطأته، وحينئذ صعب الأمر جدا وتفاقمت الفتن مع الخوارج وعبد الرحمن بن الأشعث فلما كمل أمر عبد الملك وهو معنى (اينع زرعه) هلك، وعقدت رايات الفتن المعضلة من بعده، كحرب أولاده مع بني المهلب، وكحروبهم مع زيد بن علي(عليه السلام)وكالفتن الكائنة بالكوفة أيام يوسف بن عمر وخالد القسري وعمر بن هبيرة وغيرهم، وما جرى من الظلم واستئصال الأموال وذهاب النفوس)[٢].

أما ابن ميثم فيرى أن الإمام (عليه السلام) لم يرد شخصاً بعينه كمعاوية مثلاً أو السفياني كما قيل، بل قد يريد به شخصاً آخر وهو الاحتمال الغالب على الظن[٣].

والمورد الآخر الذي اختلفت فيه آراء الشراح التي اشتملت على ذكر الملاحم عندما قال (تلتف القرون بالقرون)[٤] إذ ذكر ابن أبي الحديد انه وعد بظهور دولة أخرى، وقصد بذلك الدولة

---

١ . شرح نهج البلاغة : لابن ابي الحديد : ٧/ ٩٨ .
٢ . ينظر : شرح نهج البلاغة : ٧/ ٩٩ .
٣ . ينظر : المصدر نفسه : ٣/ ١٢ .
٤ . المصدر نفسه: ٧/ ٩٨ .

العباسية التي ظهرت على دولة بني أمية ومراده من القرون الأجيال من الناس، وفيه أيضاً إشارة الى ما يحصل من عمليات قتل للأمراء الأمويين وأسراهم[1].

أما ابن ميثم فلم يشر صراحة الى أن مراد الإمام (عليه السلام) بهذا القول بنو العباس بل انه أراد مجموعة من الناس، وكنى بالتفاف بعضهم ببعض عن احتمالهم في بطن الأرض، واستعار لفظ الحصد لمشابهتهم الزرع، فكنى بحصدهم عن موتهم وقتلهم[2].

ونجد اختلافاً بالتأويل بين البحراني والخوئي، في قوله (عليه السلام): (..قَد خَاضُوا بِحَارَ الفِتَنِ واخَذُوا بالبِدَعِ دِونَ السّنَنِ)[3] فيرى البحراني:- (يحتمل أن يكن التفاتاً الى صفة قوم معهودين للسامعين كمعاوية وأصحاب الجمل والخوارج، ويحتمل أن يكون منقطعا عن كلام قبله متصلا بكلام لم يحكه الرضي (رض) واليه ذهب بعض الشارحين)[4].

أما الخوئي فيقول:- (والأظهر عندي انه متصل بالكلام السابق، ووجه نظمه انه لما امر بوجوب متابعته، وفرض طاعته وطاعة رسول الله (ص) التفت الى حكاية حال المخالفين لرسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) والمغيرين لوصيته، والغاصبين لخلافته من الخلفاء الثلاثة ومتابعتهم، وكيف كان. فتشبيه الفتن بالبحار لإهلاكها واستئصالها فمن دخل فيها يغرق كما يغرق البحر الخائض فيه)[5].

والى جانب هذا الاختلاف في تأويل بعض أقوال الأمام علي(عليه السلام) نجد أن هناك حالة من الاتفاق في تأويلات أخرى، اذ يتفق ابن أبي الحديد والبحراني في تأويلات كلامه(عليه السلام) عن الملاحم ويؤولانه: بأنه متعلق بعبد الملك بن مروان وفترة حكمه وأمرته وقصر مدتها، وانه استخدم لفظ (الاكبش) تعبيرا عن أبنائه الأربعة: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام حيث لم يل الخلافة من بني أمية ولا من غيرهم أربعة اخوه إلا هؤلاء، كما انه يجوز أن يعني به بني مروان لصلبه وهم عبد الملك وبشر ومحمد وعبد العزيز، وكانوا أكباشا أبطالاً فقد ولي عبد الملك الخلافة، وبشر ولي العراق، ومحمد ولي الجزيرة، وعبد العزيز ولي مصر، ولكل منهم آثار مشهورة[6].

وحول كتابه لأخيه (عقيل بن أبي طالب) عن قريش وأفعالها معه، الذي يقول في جانب منه:- (فَجَزَتْ قُرِيشاً عني الجوَازِي. فقد قَطَعُوا رَحمِي وسَلَبُونِي سُلطانَ ابنِ امُي، واما مَا سألتَ عَنهُ مِن رَأيي فِي القِتَال فإنَّ رأيي قِتَالُ المُحِلِينَ حتى ألقَى الله)[7]، يقول ابن أبي الحديد: (إن هذه الكلمة الكلمة تجري مجرى المثل، بمعنى صنعت لي كل خصلة من نكبة أو شدة أو مصيبة أو جائحة، أي جعل هذه الدواهي كلها جزاء قريش بما صنعت بي، وبسلطان ابن أمي يعني به الخلافة إشارة الى رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) لأنهما ابنا فاطمة بنت عمرو بن مروان بن عائذ بن مخزوم. أم عبد الله وأبي طالب)[8].

ويوافقه في ذلك التأويل البحراني ولكنه يضيف على ابن ابي الحديد: (وقيل أن أمه فاطمة بنت أسد كانت تربي رسول الله (صلى الله عيه واله وسلم) إذ كفله أبو طالب يتيما فهي كالأم فاطلق عليه البنوة مجازا)[9].

---

١ . المصدر نفسه : ٧/ ١٠١ .
٢ . ينظر : المصدر نفسه : ٣ / ١٢ .
٣ . شرح نهج البلاغة : البحراني : ٣ / ٣١٢ .
٤ . ينظر : المصدر نفسه : ٣/ ٣١٣ .
٥ . منهاج البراعة : ٩ / ٢٠٦ .
٦ . ينظر : شرح نهج البلاغة : المعتزلي : ٦/ ١٤٧ ، شرح نهج البلاغة : البحراني : ٣/ ١٧٣ .
٧ . شرح نهج البلاغة : المعتزلي : ١٦ / ١٤٨ .
٨ . المصدر السابق : ١٦ / ١٥١-١٥٢ .
٩ . شرح نهج البلاغة : ٥ / ٨٠ .

أما عن قوله(عليه السلام) (لا يُنْدَبُ قَتِيلُهم ولا يُفْقَدُ غائِبهُم)[1] يرى ابن أبي الحديد ليس يريد به من يقتلونه بل القتيل منهم وذلك لان اكثر الزنج الذين أشار اليهم كانوا عبيد الدهاقين في البصرة وبناتها ولم يكونوا ذوي زوجات واولاد بل كانوا على هيئة الشطار عزابا فلا نادبة لهم وقوله (لا يفقد غائبهم) يريد به كثرتهم وانهم كلما قتل منهم قتيل سد مسده غيره، فلا يظهر اثر قتله[2].

فاتفق معه بذلك الخوئي لكنه أضاف أن هذا الكلام قد يتعلق بقائد الزنج وجيشه[3].

وفي تأويل قوله(عليه السلام):- (أنا فَقأتُ عينَ الفِتنَةِ) يرى البحراني انها إشارة الى أهل البصرة[4]، ويشاركه الخوئي في هذا التأويل ويضيف انه (عليه السلام) قد يريد أهل النهروان كذلك أو عموم فتن المنافقين والكافرين[5].

وفيما يتعلق بالخطب التي نقلت كلامه مع الخواج وما كان له من محاججات معهم خالصة فيما يتعلق بأمر التحكيم، ومن هذه الخطابات قوله:- (وقد كُنتُ نَهيتكُم عَن هذِهِ الحُكُومةِ فبيئُم عَلَي إباء المخَالِفِينَ المنَابذينَ)[6]، إذ يقول البحراني في ذلك كأنه يقول لهم (أن كان الحق هو عدم الحكومة فلم طلبتموها وأبيتم علي إباء المخالفين المتنابذين لما نهيتكم عنه حتى صرت الى أهوائكم فيها وان كان الحق هو ايقاعها فلما شاققتموني الآن لما أوقعتها وجعلت الله عليّ بها عهداً وعلى التقديرين يلزمهما الخطأ. وفي الموضوع نفسه يرى الخوئي ايضاً[7].

ناقش الخوئي تأويلات من سبقه من الشراح، إذ قام بمناقشة آراء ابن ابي الحديد والبحراني فعند شرحه قول الإمام (عليه السلام):- (كَأنِّي قَد نَعَقَ بِالشَّامِ وفَحَصَ بِرَاياتِهِ في ضَوَاحِي كُوَفان، فَعَطفَ عَلَيهَا عَطْفَ الضّرُوس، وَفَرَشَ الأرضَ بالرّؤوس قَد فَغَرَتْ فأغرثُهُ وتَفْلَتْ في الأرض وطأتُهُ)[8]، يرى أن (هذا كناية عن استيلاء السفياني وتمكنه في الأرض لا عن ظلمه وجوره كما توهم الشارح المعتزلي، إذ لا ملازمة بين شغل الوطي والجور عرفا كما هو ظاهر)[9].

وحول الحكمين يناقش الخوئي رأي المعتزلي بقوله:- (أقول: أما قوله إن الحكمين لو تأملا الكتاب لوجدا فيه النص الصريح على خلافة أمير المؤمنين، فهو حق لا ريب فيه، لان الآيات الدالة على خلافته (عليه السلام) كثيرة لا تحصى، وقد مضى جملة منها في مقدمات الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية، وأما قوله لان فيه النص الصريح على حجية الإجماع فلا يخفى ما فيه من الخبط والخطأ، لأنه مع وجود النص من القرآن على اصل الخلافة لا داعي إلى إقامته النص على حجية الإجماع تم الاستدلال به على خلافته وإنما هو أشبه شيء بالآكل من القضاء، ولعل الشارح انما التزم به لأجل حماية الحمى، وذابا عن الخلفاء لأنه لو التزم بوجود النص على اصل الخلافة لم يجد بدا من الالتزام ببطلان خلافة المتحلفين كالالتزام ببطلان خلافة معاوية وفي ذلك إبطال ما اختار من المذهب والدين)[10].

وللخوئي مناقشة حول كلامه (عليه السلام) استعمل فيه كلمات مثل (الجفاء والعصبية والجهل وتعطيل السنة) (وقد علمتم انه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمته ولا الجاهل فيضلهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم

---

١ . شرح نهج البلاغة : المعتزلي : ٨/ ١٢٥ .
٢ . المصدر نفسه : ٨ / ١٢٦ .
٣ . ينظر : منهاج البراعة : ٧ / ١٤٦ .
٤ . شرح نهج البلاغة : ٢ /٣٨٧ .
٥ . ينظر : منهاج البراعة : ١٠ / ٢٠٧ .
٦ . شرح نهج البلاغة : المعتزلي : ٨/ ١٢٦ .
٧ . ينظر : شرح نهج البلاغة : للبحراني : ٢ / ٩٢ .
٨ . ينظر : منهاج البراعة:١٠ /٢٠٧.
٩ . المصدر نفسه: ٨ /٣١٧.
١٠ . منهاج البراعة: ١٥٦/٨، وينظر: شرح نهجة البلاغة: للمعتزلي: ٣١٨/٨.

بجفائه ولا الحائف للدول فيتخذ قوما دون قوم ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة)[1]، فيقول: أن (الأمامية تزعم أنه قد رمز بالجفاء والعصبية لقوم دون قوم إلى عمر ورمز بالجهل إلى من كان قبله، ورمز بتعطيل السنة إلى عثمان ومعاوية، وأما نحن فنرى انه (عليه السلام) لم يعن ذلك.

وإنما قال قولا كليا غير مخصوص وهذا هو اللائق بشرفه، وقول الأمامية دعوى لا دليل عليها ولا يعدم كل أحد أن يستنبط من كلام ما يوافق غرضه وإن غمض، وان لا يجوز أن تبنى العقائد على مثل هذه الاستنباطات الدقيقة)[2]، وبخصوص قوله (عليه السلام):- (فأما شَيَطانُ الرّدهةِ فَقَد كُفيتُهُ بصَعقةٍ سَمعتُ لَهَا وَجَبةَ قَلبِهِ ورَجّه صَدرِهِ...)[3]، يطرح الخوئي هنا الآراء التي التي قيلت في تأويل هذا القول ومنها أن المراد في شيطان الردهة ذو الثدية رئيس الخوارج ومنها انه أحد الأبالسة من أولاد إبليس اللعين وأما الشارح المعتزلي قال:- (ورووا في ذلك خبرا عن النبي (صلى الله عليه واله وسلم) وانه كان: يتعوذ منه)[4]، أما الخوئي فيرى: أن (الأظهر في ذلك أن يكون المراد به شيطان الجن ويكون الإشارة بهذا الكلام ما وقع منه عليه السلام في بئر ذات العلم)[5]، أما فيما يتعلق بالتأويلات التي انفرد بها كل واحد من الشراح الثلاثة الثلاثة فقد اخترنا نماذج معينة من كل شارح لتبيان ظاهرة التأويل عندهم.

فلو جئنا إلى ابن أبي الحديد لوجدنا تأويله في قوله (عليه السلام):- (الإمرَةُ عَلى أُناسٍ وَخِيمةٌ العَاقبةِ ذاتُ مَشَقّةٍ فِي العَاجلةِ فَهي في عَاجِلِها كَالماءِ الآجنِ يجدُ شاربُهُ مَشَقّةً آكلها ولُقمةٌ يغصُّ بهَا آكلُها ومجتَنِي الثّمرة لغيرِ وَقتِ إيناعَها كَالزَرِعِ بِغيرِ أرضِهِ)[6] فيقول: (يغص مفتوح حرف المضارعة ومفتوح العين أصله عصصت بالكسر) (ويحتمل الأمران معاً للعاجلة لأن الغصص في أول البلع كما أن ألم شرب الماء الآجن يحدث في أول الشرب ويجوز ألا يكون الإمام (عليه السلام) قد عنى الإمرة المطلقة بل أراد الإمرة المخصوصة يعني بيعة السقيفة)[7].

ومن تأويلاته الأخرى ما كان في قول الإمام (عليه السلام) (قَد كَانَتْ لكُم أمورٌ مِلتُم فِيها عَلَىّ ميلةً)[8] فيقول:- (فمراده أمر عثمان وتقديمه في الخلافة عليه، ومن الناس من يحمل ذلك على خلافة الشيخين ايضاً، ويبعد عندي أن يكون أراده لان المدة قد طالت ولم يبق من يعاتبه...، فان هذا الكلام يشعر معاتبة قوم على أمر كان أنكره منهم، وأما بيعة عثمان ثم ما جرى بينه وبين عثمان من منازعات طويلة وغضب تارة وصلح أخرى ومراسلات خشنة ولطيفة وكون الناس بالمدينة كانوا حزبين وفئتين:- أحداهما معه (عليه السلام) والاخرى مع عثمان، فان صرف الكلام إلى ما قلناه بهذا الاعتبار أليق)[9].

وربما يكون الإمام (عليه السلام) قد عنى بجانب من كلامه بيعة الشيخين وما جرى من أمور بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ولا سيما ان هناك الكثير من الخطب التي بين فيها هذه الامور، أما القول بطول المدة فانه لا ينفي الإشارة إلى ذلك طاعة أن أغلب الاحداث التي حدثت نتيجة الابتعاد عنه، ومبايعة غيره، وأما قوله (وَلَمْ يَبَقَ مَنْ يُعَاتبُهُ) فهو رأي مردود إذ

---

١ . منهاج البراعة: ١٥٦/٨.
٢ . المصدر نفسه: ٢٣٨/٨.
٣ . المصدر نفسه: ١٩/١٢.
٤ . المصدر نفسه: ٢٣/١٢.
٥ . المصدر نفسه: ٢٤/١٢.
٦ . شرح نهج البلاغة: المعتزلي: ٢١٤/١.
٧ . المصدر نفسه.
٨ . شرح نهج البلاغة: المعتزلي: ٢٧٦/١.
٩ . المصدر نفسه: ٢٨٠/١.

هناك مجموعة كبيرة من الصحابة ما زالوا أحياء، وتصل أعدادهم إلى المئات، بل أن النسبة الأكبر منهم كانت تشكل جيشه (عليه السلام)[1].

وفي تأويل قوله (عليه السلام):- (فَأنِّي وُلِدْتُ عَلى الفِطرةِ، وسَبَقْتُ إلى الإيمانِ والهِجْرةِ)[2] يقول (المعتزلي): (إن الإمام (عليه السلام) لم يقل (سبقت كل الناس إلى الهجرة) وان قال (سبقت) فقط، ولا يدل ذلك على سبقه للناس كافة، ولا شبهة انه سبق معظم المهاجرين إلى الهجرة ولم يهاجر قبله إلا نفر يسير جداً وأيضا فقد قلنا انه علل أفضليته وتحريم البراءة منه مع الإكراه بمجموع أمور منها: ولادته على الفطرة، ومنها سبقه إلى الإيمان، ومنها سبقه إلى الهجرة وهذه الأمور الثلاثة لم تجتمع لأحد غيره...، وأيضاً فان اللام في الهجرة يجوز أن لا تكون للمعهود السابقة، بل تكون للجنس، وامير المؤمنين(عليه السلام) سبق ابا بكر إلى الهجرة التي قبل هجرته إلى المدينة)[3].

ويحتمل هنا أن الإمام(عليه السلام) (لم يكن يريد الهجرة بمعناها المعروف بترك الوطن أو المدينة، بل أراد الهجرة إلى الله تعالى، وترك ذلك المجتمع الذي تسود فيه كل مظاهر البعد عن الله تعالى، وهذا المعنى نجده في خطاب النبي (صلى الله عليه واله وسلم) عندما خاطب قومه (... إنّي مهاجرٌ إلى ربّي...)[4].

وفي تأويله لقول الإمام (عليه السلام):- (وَلَقَد عَلِمَ المُستَحفِظُون مِن أصحَابِ مُحمدٍ (صَلى اللهُ عَليه وآلِهِ وسَلَمَ))[5] يقول ابن ابي الحديد: (يمكن أن يعني بالمستحفظين الخلفاء الذين تقدموا لأنهم الذين أستحفظوا الإسلام أي جعلوا حافظين له، وحارسين لشريعته ولحوزته ويجوز أن يعني به العلماء والفضلاء من الصحابة لأنهم استحفظوا الكتاب أي كلفوا بحفظه وحراسته)[6].

ونعتقد هنا أنها الإشارة إلى الصحابة الذين كان لهم دور في حفظ الإسلام وتثبيت أركانه والدفاع عنه، ذلك انهم وقفوا هذا الموقف سواء في زمن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أو زمن الخلفاء من بعده، وكان مبتغاهم في ذلك هو خدمة الإسلام، ولو لا المواقف البطولية المشرفة لهؤلاء الصحابة لم يستطع الخلفاء النهوض بأعباء هذا الدين والوصول به إلى هدفه المنشود.
ولابن أبي الحدد تأويلات في كلام الإمام (عليه السلام): (إنَّما تَؤتِي الأرضُ)[7]، يقول:- (إنما تدهى الأرض من أعوز أهلها وفقرهم، والسبب الموجب لاعوازهم طمع ولاتهم في الجباية وجمع الأموال لأنفسهم، ولسلطانهم وسوء ظنهم بالبقاء ويحتمل الإمام (عليه السلام) أراد انهم يجمعون الأموال لأنفسهم ويظنون البقاء وينسون الموت والزوال، وأيضاً يحتمل أن يريد به انهم يتخيلون العزل والصرف فيتخذون الفرص ويجمعون الأموال ولا ينظرون إلى عمارة البلاد)[8].

وفي الموضوع نفسه أي الفقر والفقراء يقول (عليه السلام):- (فإنَّ للأقصَى مِنهُم مَثْلُ الذي للأدنَى وكلٌّ قَد آسترعَيتُ حقَّهُ)[9] وكلام الإمام (عليه السلام) هنا الإشارة إلى مبدأ المساواة في توزيع العطاء الذي اتبعه في عملية أو سياسة توزيع الأموال على المسلمين، ومعلوم أن هذه السياسة كان معمولاً بها زمن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وخلافة أبي بكر، ألا أنها

---

١ . ينظر في ذلك: التاريخ اليعقوبي: ١٧٧/٢، العلل: احمد بن حنبل: ٢٨٧/١، المعيار والموازنة: الإسكافي: ٢٣. ٢٣.
٢ . شرح نهج البلاغة: لابن ابي الحديد: ٥٤/٤.
٣ . المصدر نفسه: ١٢٥/٤.
٤ . شرح نهج البلاغة: ١٢٥/٤.
٥ . المصدر نفسه: ٨٦/١٧.
٦ . ينظر: المصدر نفسه.
٧ . المصدر نفسه: ٨٦/١٧.
٨ . المصدر نفسه.
٩ . شرح نهج البلاغة: ٨٥/١٧.

تغيرت زمن خلافة عمر بن الخطاب، الأمر الذي أوجد حالة من التفاوت الشاسع بين جماعة الصحابة واحدث فجوة في المجتمع الإسلامي، ولعلها السبب الفاعل في حدث (الفتنة) زمن الخليفة عثمان، وعودة الإمام (عليه السلام) إلى هذه السياسة لم ترض فئة كبيرة من الصحابة أو من كبار رؤساء القبائل من ميل الكثير منهم إلى معاوية[1].

وفي هذا القول هناك تأويل لابن أبي الحديد يقول فيه: أن يكون كل فقراء المسلمين سواء في سهامهم من العطاء، ليس فيها أقصى أو أدنى وان لا يؤثر من هو قريب نسبا وعلاقة، على من هو بعيد ليس له سبب أو نسب إليك، ولا علاقة بينه وبينك وان لا تصرف غلات ما كانت من الصوافي في بعض البلاد إلى مساكين ذلك البلد فأن حق البعيد عن ذلك البلد فيها مثل حق المقيم في ذلك البلد[2].

ومن تأويلات ابن ابي الحديد ما كان في كلام للإمام (عليه السلام) يقارن فيها بين الشجرة الطيبة محمد وآله (صلى الله عليه وآله وسلم) والشجرة الخبيثة (بني أمية) يقول (عليه السلام):- (وأنّى يَكُونُ ذَلكَ كَذلكَ ومِنّا النبُّي ومِنكُم المَكذّبُ ومِّنا أسدُ اللهِ ومنّكُم أسدُ الأحَلافِ)[3]، (أي كيف يكون شرفكم كشرفنا، ومنا النبي ومنكم المكذب يعني أبا سفيان بن حرب، كان عدو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والمكذب له والمجلب عليه، وهؤلاء الثلاثة أبو سفيان بأزاء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ومعاوية بازاء علي (عليه السلام) ويزيد بازاء الحسين (عليه السلام) بينهم من العداوة ما لا تبرك عليه الإبل)[4]، وفي قوله (عليه السلام):- (ومِنّا أسْدُ اللهِ ومّنكُم أسدُ الأحلافِ) فقد عني بالأول حمزة، وفي الثاني عتبة ابن ربيعة)[5]، ويقول (عليه السلام) (ومِنّا سِيَدّا شبابِ أهل الجَنَّةِ)[6]. يعني حسنا وحسينا (عليهما السلام):- (ومِنّكُم صِبيةُ النّارِ)[7] هي الكلمة التي قالها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لعقبة ابي ابي معيط حين قتله صبرا في يوم بدر، وقد قال (كالمستعطف من للصبية يا محمد؟ قال: النار، وقوله (عليه السلام):- (وَمّنا خَيرُ نِسَاءِ العَالمِينَ) يعني فاطمة(عليها السلام) نص رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على ذلك لا خلاف فيه، (ومِنْكُم حَمّالةُ الحَطَبِ) وهي أم جميل بنت حرب بن أمية، امرأة أبي لهب الذي ورد نص القرآن الكريم فيها بما ورد)[8].

ونلحظ تأويل ابن أبي الحديد لهذا النص فيه حالة من الربط الموضوعي بين كلام الإمام (عليه السلام) والحوادث التاريخية التي ترتبط ارتباطاً مباشراً بمعنى هذا الكلام وهذا مما يبعث على القول أن ابن أبي الحديد قد جعل تأويلاته اكثر واقعية، فضلا عن ذلك إنها استندت إلى نصوص الآيات القرآنية وأحاديث الرسول (صلى اله عليه وآله وسلم) والسيرة مما يعطي هذه التأويلات انطباعاً تاريخياً دقيقاً.

وعند تأويله كتاب الإمام (عليه السلام) لأهل مصر بتوليه الأشتر عليهما:- (أمّا بَعد فَقَد بَعثْتُ إليكُم عَبداً مِنْ عِبادِ اللهِ لا يَنَامُ أيَامَ الخَوفِ...)[9]، يجد القارئ لهذا التأويل طعم الثقة وحلاوة

---

١ . للمزيد من التفاصيل ينظر: الغارات، الثقفي: ١٤٨/١، تاريخ الطبري: الطبري: ٥٤١/٤، الفائق: الزمخشري: الزمخشري: ٢٩٦/١.
٢ . ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ٨٦/١٧-٨٧.
٣ . المصدر نفسه: ١٨٢/١٥.
٤ . المصدر نفسه.
٥ . شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ١٩٦/١٥.
٦ . شرح نهج البلاغة: ١٨٢/١٥.
٧ . المصدر نفسه: ١٩٧/١٥.
٨ . المصدر نفسه.
٩ . ينظر: شرح نهج البلاغة: لابن ابي الحديد: ١٥٦/١٦.

النقاش الموضوعي المشتمل على طرح السؤال والإجابة عنه وهو أسلوب دقيق وعلمي يدل على سعة الاطلاع والخلفية التاريخية الثرية.
ومما يشار إليه هنا ان المصادر التاريخية قد ذكرت أسماء القتلة المباشرين كعمرو بن جرموز الذي قاتل فيما بعد مع أصحاب الجمل وبعدها قتل الزبير ومن ثم خرج مع الخوارج في النهروان وقتل هناك[1]، وكذلك هرقوص بن زهير من أهل البصرة من بني سعد، خرج مع الخوارج وقتل في النهروان[2].

وفيما يتعلق بقول الإمام (عليه السلام): (إن الحكمُ إلاّ للهِ) يقول ابن أبي الحديد في تأويله (أي ليس حي من الأحياء ينفذ حكمه لا محالة ومراده لما هو من أفعاله إلا الحي القيوم وحده، فهذا هو معنى خذه الكلمة، وظلت الخوارج عندها فأنكروا على أمير المؤمنين (عليه السلام) موافقته على التحكيم، وقالوا كيف يحكم، وقد قال الله سبحانه (إن الحكم إلا لله)، فخلطوا لموضع اللفظ المشترك، وليس هذا الحكم هو ذلك الحكم، فإذن هي كلمة حق يراد بها باطل لأنها حق على المفهوم الأول ويريد بها الخروج نفي كل ما يسمى حكما إذا صدر عن غير الله تعالى وذلك باطل لان الله تعالى قد أمضى حكم المخلوقين في كثير من الشرائع)[3].

وعن خطبته (عليه السلام) التي تتعلق بأبناء الأنبياء إسماعيل وإسحاق وإسرائيل وما كان عليهم من أمور العذاب، يقول المعتزلي:- (لقائل أن يقول: ما نعرف أحداً من بني اسحق وبني إسرائيل احتازتهم الاكاسرة والقياصرة عن ريف الآفاق إلى البادية ومنابت الشيح، إلا أن يقال: يهود خيبر والنضير وبني قريضة وبني قينقاع وهؤلاء نفر قليل لا يعتد بهم، ويعلم من فحوى الخطبة انهم غير مرادين بالكلام ولأنه (عليه السلام) قال: تركوهم أخوان دبر وبر وهؤلاء لم يكونوا من أهل الوبر والدبر بل من أهل المدر، لأنهم كانوا ذوي حصون واطام، والحاصل أن الذين احتازتهم الاكاسرة والقياصرة من الريف إلى البادية وصاروا أهل وبر ولد إسماعيل، لابنو اسحق وبنو إسماعيل. والجواب: انه (عليه السلام) ذكر في هذه الكلمات وهي قوله (فاعتَبرُوا بِمَالِ ولْدِ إسمَاعِيلَ وَبَنِي إسرائِيلَ، المقهُورِيْنَ والقاهِرِيْنَ جَمِيْعاً) أما المقهورين فبنوا إسماعيل وأما القاهرون فبنو إسحاق وبنو إسرائيل لان الاكاسرة من بني إسحاق ذكر الكثير من أهل العلم أن فارس من ولد اسحق والقياصرة من ولد اسحق أيضاً لان الروم بنو العيص بن إسحاق وعلى هذا يكون الضمير في (أمرهم) و(تشتتهم) و(تفرقهم) يرجع إلى بني إسماعيل خاصة، فان قلت فبنو إسرائيل أي مدخل لهم ها هنا؟ قلت: لأن بني إسرائيل لما كانوا ملوكا بالشام في أيام أجاب الملك وغيره حاربوا العرب من بني إسماعيل غير مرة وطردوهم عن الشام، ألجأوهم على المقام ببادية الحجاز، ويصير تقدير الكلام: فاعتبروا بحال ولد أسماعيل مع بني اسحق وبني إسرائيل، فجاء بهم في صدر الكلام على العموم، ثم خصص فقال: الاكاسرة والقياصرة، وهم داخلون في عموم ولد إسحاق، وإنما لم يخصص عموم بني إسرائيل لأن العرب لم تكن تعرف ملوك ولد يعقوب فيذكر لهم أسماءهم في الخطبة بخلاف ولد إسحاق فأنهم كانوا يعرفون ملوكهم من بني ساسان ومن بني الأصقر)[4].

وعن كلام الإمام (عليه السلام) الذي يقول فيه: (للهِ بِلادُ فلانٍ، فَلَقَد قَوّمَ الأوْدَ ودَاوَى العَمَدَ، وأقَامَ السُّنةَ، وخَلَّفَ الفِتنةَ! ذَهَبَ نقيَّ الثّوب، قَلِيلَ العيْبِ، أصابَ خَيرَها، وسَبَقَ شَرَّهَا، أدّى إلى الله طَاعَتَهُ، وآتقَاهُ بحقِّهِ، رَحَلَ وتَرَكَهُم فِي طُرُقٍ مُتَشعبةٍ، لا يَهتدِي بهَا الضّالُ، ولا يَسْتيقِنُ المهْتدِي)[5].

---

١ . ينظر: شرح نهج البلاغة: للمعتزلي: ٢٣٦/١، بحار الأنوار: المجلسي: ٣٣٦/٣٢.
٢ . ينظر: المصدر السابق: ٢٦٨/٢، كشف الغمة: الاربلي: ٢٦٥/١.
٣ . شرح نهج البلاغة: ١٧/١٩.
٤ . شرح نهج البلاغة: ١٧١/١٣-١٧٣.
٥ . المصدر نفسه: ٣/١٢.

يقول ابن أبي الحديد مؤولا ذلك ورادا على الشارح الراوندي (فأما الراوندي فانه في الشرح: انه (عليه السلام) مدح بعض أصحابه بحسن السيرة وان الفتنة هي التي وقعت بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من الاختيار والأثرة، وهذا بعيد لان لفظ أمير المؤمنين يشعر إشعاراً ظاهرا بأنه يمدح واليا ذا رعية وسيرة، ألا تراه كيف يقول:- (فَلَقَد قَوَّمَ الأودَ ودَاوى العَمَدَ، وأقام السُّنة، وخَلَّف الفِتنة) وكيف يقول (أصابَ خَيرَها وسَبَقَ شَرَّهَا) وكيف يقول (أدّى إلى الله تعالى) وكيف يقول (رَحَلَ وتَرَكَهُم في طُرُقٍ متشعبةٍ) وهذا الضمير وهو الهاء والميم في قوله (وتركهم) هل يصح أن يعود ألا على الرعايا، وهل يسوغ أن يقال هذا الكلام لسوقه من عرض الناس وكل من مات قبل وفاة النبي (صلى الله وعليه وآله وسلم) كان سوقه لا سلطان له، فلا يصح أن يحمل هذا الكلام على إرادة أحد من الذين قتلوا أو ماتوا قبل وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كعثمان بن مظعون أو مصعب بن عمير، أو حمزة بن عبدالمطلب، أو عبيدة بن الحارث، وغيرهم من الناس)[1].

أما فيما يتعلق بالتأويلات الاخرى للبحراني فمنها ما ذكره حول قول الإمام (عليه السلام) (فإنَّ الشّيطانُ كامِنٌ في كِسْرِهِ)[2]، قال:- (انه أراد بالشيطان معاوية وقيل عمرو بن العاص، وذلك أن الشيطان لما كان عبارة عن شخص يضل الناس عن سبيل الله، وكان معاوية في أصحابه كذلك عنده (عليه السلام) لا جرم أطلق عليه لفظ الشيطان...
ويحتمل زيادة ان يريد الشيطان ولما كانت محال الفساد هي مظنة إبليس، وكان المضروب قد ضرب على غير طاعة الله كان محلا للشيطان فلذلك استعار له لفظ الجلوس في كسره)[3].

وفي تأويل قول الإمام (عليه السلام): (وآستَراحَ قومٌ إلى الفِتَن)[4] يرى ابن ميثم انه اشارة إلى من يعتزل الوقائع التي ستقع في آخر الزمان من شيعة الحق وأنصاره ويجد في اشتغال القوم بعضهم ببعض راحة له في الانقطاع والعزلة[5].

ويقول في تأويل قوله (عليه السلام) (وسأجهَدُ فِي أنْ أطهرَ الأرضَ مِن هَذَا الشّخصِ المَعكُوسِ والجِسمِ المَركُوسِ حَتى تَخرجُ المدَرَةُ مِنْ بَينِ حَبِّ الحصيدِ)[6]، انه تواعد أن يجتهد في تطهير الأرض من هذا الشخص المعكوس والجسم المركوس وأراد به معاوية بن أبي سفيان[7].

وفي تأويل قول الإمام (عليه السلام) (آنتَفعُوا بِبيانِ آللهِ وآتعظُوا بمواعظِ آللهِ، وآقبلوا نَصيحة آللهِ، فإنَّ آللهَ قد أعذرَ إليكم بالجَلَبةِ وأخَذَ عليكم الحُجّة...)[8] وقوله (عليه السلام): (وآعلَمُوا عبادَ آللهِ أنّ المُؤمِنَ يُستَحِل العَامَ...، ويحرُم العامَ...)[9]، ويقول البحراني موردا أقوال بعض الشارحين:- (إن كلام الإمام (عليه السلام) في هذه الخطبة إشارة إلى أن ما تثبت من طريق النص أما السعادة التي شهد بها النص في زمان النبي (صلى الله عليه وسلم) لا يجوز أن ينقض بالقياس أو الاجتهاد بل كل ما ورد به النص فيتبع به مورد النص فما كان حلالا بمقتضى النص وعمومه العام الماضي، فهو في هذا العام حلال، وكذا في الحرام وعموم هذا الكلام يقتضي عدم جواز نسخ النص وتصحيحه بالقياس وهو مذهب الأمامية لاعتفادهم بطلان القول بالقياس المتعارف ومذهب جماعة من الأصوليين مع اعترافهم بصحة القياس، ومن يجوز تخصيص به

---

١ . ينظر: شرح نهج البلاغة: المعتزلي: ٤؟١٢-٥.
٢ . شرح نهج البلاغة: البحراني: ٢/٢٤٢.
٣ . المصدر نفسه: ٢/٢٤٧.
٤ . شرح نهج البلاغة: البحراني: ٣/٢٧٣.
٥ . ينظر: المصدر نفسه: ٣/٢١٧.
٦ . المصدر نفسه: ٥/١٢٧.
٧ . المصدر نفسه: ٥/١٤٢.
٨ . المصدر نفسه: ٣/٤٣٨.
٩ . المصدر نفسه.

يحمل هذا الكلام على عدم قبول القياس في نسخ النص من كتاب أو سنة، وما أحدثه الناس إشارة إلى القياس)[1].

وكانت للإمام علي (عليه السلام) مجموعة من الخطب التي يصف بها جماعات من الشخصيات بأوصاف يمكن عدها تشخيصاً وبياناً لحال هذه الجماعة، ويبدو أن الغرض من ذلك هو تحذير الأمة من الخطر الذي تشكله هذه الجماعة على مسيرة الأمة.
وفي ضوء ذلك نجد هناك بعض التأويلات التي قدمها البحراني لأمثال هذه الخطب، من بينها خطبته التي يقول فيه (فإنَّ مِنْهم الذي (قد) شَرِبَ فيكُم الحَرامَ، وجُلِدَا حّداً في الإسْلامِ، وإنَّ منْهم مَنْ لم يُسلِم حتى رَضَخَتْ لَهُ عَلَى الإسلامِ الرضائِخُ)[2].

يشير البحراني: إلى أن الذي شرب منهم أي من هذه الجماعة في المسلمين الحرام هو إشارة إلى المغيرة بن شعبة حينما شرب الخمر في عهد عمر حين كان واليا على الكوفة، فصلى بالناس وهو سكران وزاد في الركعات، وقاء الخمر وشهدوا عليه وجلد الحد، وكذلك عنبسة بن ابي سفيان، جلده في الخمر خالد بن عبيدالله في الطائف، إما الذي لم يسلم حتى أرضخت له الرضائخ قيل هو أبو سفيان وابنه معاوية، حيث كانا من المؤلفة قلوبهم الذين يستمالون الى الدين وجهاد عدوه بالعطاء، وقيل هو عمرو بن العاص، ولم يشهر عنه مثل ذلك الا ما حكاه عليه السلام عنه من اشتراطه على معاوية طعمة مصر في مساعدته بصفين[3].

ومن كلام للإمام (عليه السلام) يشير إلى ظاهره تشخيص الأعداء فيقول (عليه السلام) (قَد خَاضُوا بِحارَ الفِتنِ وأخذُوا بِالبدعِ دُونَ السُّنَنِ)[4].

يقول البحراني في تأويل ذلك:- (يحتمل أن يكون التفاتا إلى صفة قوم معهودين؟ للسامعين كمعاوية ةأصحاب الجمل والخوارج، ويحتمل أن يكون منقطعا عما قبله متصلا بكلام لم يحكه الرضي (رضوان الله عليه) واليه ذهب بعض الشارحين، قال: وهو ذكر قوم من أهل الضلال قد كان اخذ في ذمهم وعيبهم، ولفظ البحار مستعار لما عظم من الفتن والحروب، وقد عرفت وجه الاستعارة قبل ورشح بذلك الخوض والبدعة قد يراد بها ترك السنة، وقد يراد بها أمر آخر يفعل مع ترك السنة، وهو الأظهر في العرف)[5].

وفي تأويل كلام الإمام (عليه السلام) وهو يتحدث عن فضائله وفضائل أهل بيته وهو جزء من كلامه السابق قال البحراني: أن الإمام (عليه السلام) (استعار لفظ الشعار لنفسه وأهل بيته ووجه المشابهة ملازمتهم للرسول (صلى الله عليه وسلم) واختصاصهم به، كما يلزم الشعر الجسد، ثم ذكر كونهم أصحابا له ثم كونهم خزانة علمه، كما نقل عن الرسول (صلى اله عليه واله وسلم) هو خازن علمي وفي رواية عيبة علمي، وقيل، خزنة الجنة على معنى أن من جاء يوم القيامة بولايتهم دخل الجنة بمنع العلم وإعطائه أو بمنع الجنة بسببهم وإعطائها، كما أم الخازن كذلك ثم كونهم الأبواب أي أبواب العلم، كما قال (صلى الله عليه واله وسلم) أنا مدينة العلم وعلي بابها وأبواب الجنة على الاستعارة السابقة)[6].

وفي الإطار نفسه، يقول البحراني في تأويل قوله (عليه السلام):- (كَانت فِي أيدِينَا فَدَكٌ مِن كلِّ ما أظلّتْهُ السّماءُ، فَشحّتْ عَليها نفُوسُ قَومٍ، وَسخَت عَنها نفُوس قومٍ آخرينَ)[7].

---

١ . المصدر نفسه: ٤٤٩/٥.
٢ . شرح نهج البلاغة: البحراني: ٢٤٨/٥.
٣ . المصدر نفسه: ٢٤٩/٥-٢٥٠.
٤ . المصدر نفسه: ٣١٢/٣.
٥ . المصدر نفسه: ٣١٣/٣.
٦ . شرح نهج البلاغة: البحراني: ٢١٣/٣.
٧ . المصدر نفسه: ١٢٥/٥.

يقول (أشار بالنفوس التي شحت بها إلى أبي بكر وعمر واتباعهما، وبالنفوس التي سمحت بها إلى وجوه بني هاشم ومن مال ميلهم)[1].

وعن تأويل بعض الخطب التي تحدثت عن الخوارج وصفين كقوله (عليه السلام): (زمَنْ لَجَّ وتَمادى فَهُو الراكسُ الذي رَانَ آللهُ عَلَى قِلبهِ وصَارتْ دِائرةُ السَّوءِ عَلَى رَأسِهِ)[2]، يقول البحراني:- (أن الذين لجوا في التمادي فهم الخوارج الذي لجوا في الحرب واعتزلوه (عليه السلام) بسبب التحكيم، وكانت قلوبهم في أغشية الشبهات الباطلة حتى صارت دائرة السوء على رؤوسهم فقتلوا ألا اقلهم)[3].

أما الخوئي فقد كانت له بعض التأويلات المنفردة في جوانب من كلام الإمام (عليه السلام)، ولعل من ابرز ذلك ما جاء في قوله (عليه السلام): (إنَّ آللهَ سُبحانَهُ لَم يَقصِمْ جَبّارِيٍّ دهرٍ قط إلاّ بَعدَ تَمهيلٍ ورخاءٍ)[4]، فيقول: أن هذا الكلام (يراد به إشارة إلى مآل معاوية وأمثاله من جبابرة الدهر...، والبالغين عليه من طلحة والزبير ومن حذا حذوهما من العتاة، والتنبيه على أن الله يقصم ظهرهم ويكسر صولتهم ويلبسهم ملكهم ودولتهم، وان طالت مدتهم)[5].

يرى الخوئي في قول الإمام (عليه السلام) (ولا يُتَركُوا عَقْداً إلاّ حلّوهُ وحَتَّى لا يبقَى بيتٌ مدرٍ ولا وبرٍ ألاّ دخلَهُ ظُلمُهُم)[6]، أن المراد (بالعقد والعهود المعاهدة بينهم وبين الناس، فالمراد بحلها نقضها، وأول ما وقع من ذلك ما كان من معاوية حيث نقض المعاهدة بينه وبين الحسن (عليه السلام) وأما العهود المأخوذة عليهم من الله تعالى وهو أحكام الدين وقوانين الشرع المبين فيكون حلها عبارة عن مخالفتها وعدم العمل بها)[7].

وفي تأويله لقوله (عليه السلام): (هَذَا مَا آجتَمَعَ عَلَيه أهلُ اليَمنِ حَاضرُهَا وبادِيَها ورَبيعةُ حَاضرُها وبَادِيهَا أنّهُم عَلَى كِتابِ آللهِ. يَدعُونَ ويَأمرُون بهِ ويُحبُونَ مَنْ دَعَا إليهِ وأمَرَ بهِ)[8]، يذكر يذكر الخوئي انه أشار إلى محاربات وأحقاد كانت بين الفئتين القحطاني والعدناني في أيام الجاهلية، فلما قام الإسلام أماتها، ألا أنها رجعت بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وبلغت اوجها بسياسة بني أمية للخلاف بين المسلمين لغرض الاستيلاء على مقاليد الحكم[9].

وفي تأويل قول الأمام (عليه السلام):- (ويَخرجُ مِن دِيلمُان بنو الصيادِ) وقوله فيهم: (ثُمَّ يَستَشرِي أمْرُهُم حَتَّى يَملِكُوا الزّوراءَ ويَخلعُوا الخلفَاءَ)[10]، يقول الخوئي أن هذا الكلام إشارة إلى بني بويه، وكان أبوهم صياد السمك يصيد منه بيده ما يتقوتون هو وعياله بثمنه، فاخرج الله تعالى من ولده لصلبه ملوكاً ثلاثة ونشر ذريتهم، حتى ضربت الأمثال بملكهم، وأيضا يشير إلى الصراع بينهم (والمترف بن الأجذم يقتله حتى ضربت الأمثال بملكهم، وأيضا يشير إلى الصراع بينهم (والمترف بن الأجذم يقتله ابن عمه على دجلة) وهذا إشارة إلى عز الدولة بختيار بن معز أبي الحسين، وكان معز الدولة اقطع اليد قطعت يده في الحرب، وكان ابنه عز الدولة مترفا محباً للهو والشرب قتله عضد الدولة فناصروا ابن عمه بقعر الجص على دجلة في الحرب وسلبه ملكه، فأما خلعهم الخلفاء فان معز الدولة المستكفي ورتب عوضه المطيع وبهاء

---

١ . المصدر نفسه: ١٣٦/٥.
٢ . المصدر نفسه: ٢٤٠/٥.
٣ . المصدر نفسه: ٢٤٠/٥.
٤ . منهاج البراعة: ٢٠٢/٦.
٥ . منهاج البراعة: ٢٠٣/٦.
٦ . المصدر نفسه: ١٠٩/٧.
٧ . المصدر نفسه: ١١٠/٧.
٨ . المصدر نفسه: ٣٥٩/٢٠.
٩ . المصدر نفسه: ٣٥٩/٢٠.
١٠ . المصدر نفسه:٩٨/٧.

الدولة أبا نصر بن عضد الدولة خلع الطائع ورتب عوضه القادر، وكانت مدة ملكهم كما اخبرنا (عليه السلام)[1].

وفي تأويل خطبته (عليه السلام) التي يتحدث فيها عن الفتنة المقبلة على الأمة وما بها من القبح والخوف والجهالة (تَرِدُ عَلَيكُم فَتْنَتُهُم شوهاءَ مخشيةً وقِطَعاً جاهليةً ليَس فِيها منارُ هدىً ولا عَلَمٌ يُرى نحنُ أهلُ بيتٍ مِنهَا بِمنْجاةٍ ولَسنَا فِيها بِدُعَاةٍ)[2]، وهذا الكلام كما يرى الخوئي إشارة إلى (كونها قبيحة عقلا وشرعا مخوفة للنفوس، مرعبة للقلوب تكون على شكل طوائف ودفعات منسوبة إلى الجهال متصفة بالضلالة لكونها على غير قانون عدل، وما يظهر من كلام الشراح من كون المراد بالجاهلية الحالة التي كانت عليها العرب قبل الإسلام، من الجهل بالله ورسوله وشرايع الدين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر والتعصب والأخلاق الذميمة، ومنها أيضا بيان لوجه الجهالة أي ليس فيها إمام هدى يهتدي به ويستضاء بنوره، ولا قانون عدل يسلك به سبيل الحق)[3].

وبخصوص الكلام على الجهالة والجاهلية، هناك تأويل آخر للخوئي عن كلام الأمام (عليه السلام) الذي يقول فيه:- (عبادَ آللهِ لا تركَنُوا إلى جهالَتِكُم، ولا تَنْقَادُوا إلى أهْوائِكُم فإنّ النازلَ بهَذا المنزلِ نازلٌ بشفا جرْفٍ هَارٍ)[4]، أي لا تميلوا (إلى الأهواء الباطلة المخرجة عن كرائم الأخلاق... وعن حق المصالح إلى باطلها...، ويحتمل أن يكون المراد به من لدعى الخلافة من غير استحقاق لها الذي وضع نفسه في مقام ونزل بمنزل ليس له أهلية به ويشعر بذلك ما سيأتي منه نهيه (عليه السلام) عن الشكاية إلى من لا يقدر على إزالة الشكوى وما ذكر بعده من أوصاف الإمام الحق(عليه السلام))[5].

ومنها أيضاً قوله (عليه السلام): (وأيمُ آللهِ لو فرّقُوكُم تَحتَ كُلِّ كَوكَبٍ لَجمَعَكُم آللهُ لشَرِّ يَومِ الهَمِّ)[6]. يقول الخوئي في تأويله لذلك (ويَنتَقِمُ بسوءِ أعمَالهِم مِنهُمُ، وكنى بشر اليوم عن ظهور المسودة من أهل العراق وخرسان وانتقامهم من بني أمية وأهل الشام، ويحتمل أن يكون إشارة إلى ظهور إمام الزمان (عليه السلام) وجمعهم في الرجعة والمراد جمع صنفهم)[7].

وفي تأويله بكلام للأمام (عليه السلام): (ألا وفي غدٍ – وسيأتي غدٌ بِمَا لا تَعرفُونَ – يَأخذُ الوالِي مِنْ غيرِهَا عُمّا لِها عَلَى مَسَاوئ أعمَالِهَا... وتلقي إليه سلماً مقاليْدَهَا)[8]، من نهج البلاغة يقول الخوئي:- (اعلم أن هذه الخطبة حسبما ذكره السيد (ره) وأراده في ذكر الملاحم أي الوقائع العظيمة المتضمنة القتل والاستئصال واتفق الشراح على أن هذا الفصل منها إشارة إلى ظهور القائم (عج)[9].

ولعل من التأويلات البارزة التي تميزت بكثرتها عند الخوئي هي ما كانت في أهل البيت (عليه السلام) نحو بيان فضلهم وكرامتهم، ومن بين الخطب التي تناولت هذا المعنى ما جاء في قوله (عليه السلام): (فَهُوا إمَامُ مَن آتقَى وبَصِيرَةٌ مَن آهتَدى)[10].

---

١ . منهاج البراعة: ٩٨/٧.
٢ . المصدر نفسه: ٧٣/٧.
٣ . المصدر نفسه.
٤ . المصدر نفسه: ٢٠١/٧.
٥ . ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٣/٧.
٦ . المصدر نفسه: ٢٢١/٧.
٧ . منهاج البراعة: ٢٢٣/٧.
٨ . المصدر نفسه: ٢١٦/٥.
٩ . المصدر نفسه: ٣٠٨/٨.
١٠ . المصدر نفسه: ٧٨/٧.

حيث يعني انه صلوات الله عليه واله قدوة المتقين وبصيرة المهتدين بهم في أسوة حسنة وهو (سرَاجٌ لَمَعَ ضوءُه وشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ، وزَنَدٌ بَرَقَ لَمعُهُ)[1] شبهه (عليه السلام) (بالسراج والشهاب والزند في كونه سبب هداية الخلق كما أن هذه الثلاثة كذلك ورشح التشبيه الأول بلمعان الضوء، والثاني بارتفاع النور والثالث ببروق اللمع ويحتمل أن يكون وجه التشبيه في الثالث إشارة أنوار الهداية)[2].

ومن التأويلات الخاصة بأهل البيت (عليهم السلام) قوله ويظهر (لكُم مَنْ يَجمعُكُم ويَضُمُّ نَشَرَكُم فَلاَ تَطمعُوا فِي غيرِ مُقبلٍ ولا تِيأسُوا مِن مُدبرٍ فإنَّ المُدبرَ عَسَى أنْ تَزلَّ إحَدى قَائمتَيْهِ)[3]، (أي تفرقكم، وأشار(عليه السلام) به إلى الإمام المنتظر اعني المهدي صاحب الزمان (عليه السلام)، وقيل أشار به إلى قائم بني العباس بعد انقضاء دولة بني أمية والأول اظهر)[4].

وأن قوله (عليه السلام) (ألا إنَّ مَثَلَ آلِ مُحمدٍ كَمثَلِ نجُمِ السّمَاءِ إذا حَوى نجمٌ طَلَعَ نَجمٌ) (أراد به الأئمة الأثنى عشر (سلام الله عليهم) وتشبيههم النجوم إما من حيث انهم يهتدى بهم في سبيل الله كما يهتدى بالنجم في ظلمات البر والبحر)[5]، ومنها أيضاً إشارته إلى واقعة الطف (وسيوفُكُم عَليهم مُسلطةٌ وسيوفُهُم عَنكُمَ مقْبوضةٌ ألا إنَّ لكُلِّ دمٍ ثِائراً ولكُلِّ حقٍّ طَالباً)[6]، (وما كان من بني أمية وتابعيهم فيها من سفك الدماء)[7].

وأشار إلى فضائله وكراماته يقول (عليه السلام): (اللّهم إنِّي أولُ مَنْ أنابَ وَسمِعَ وأجابَ لَم يسبِقْنِي إلاّ رسُولُ الله (صلّى اللهُ عليه وآله وسلم))[8]. يقول الخوئي: أي (رجع إليك وسمع دعوة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأجاب أليه، ولم يسبقني ألا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالصلاة، أما كون هذه الجملة تأكيداً لما سبق فلأنه إذا كان أول الناس إسلاما مع عدم كون الإسلام معروفاً حينئذ متوقعا به الانتفاع في الدنيا، لابد وان يكون إسلامه لله سبحانه وابتغاء لرضاه، ومن كان هذا حاله في بداية أمره كيف يخطر ببال عاقل انه يطلب الدنيا وحطامها ويجرد عليها السيف في آخر عمره، وأما كونه (عليه السلام) أول من أناب وأجاب إلى الأيمان والإسلام فهو المتفق عليه بين الشيعة والمشهور بين الجمهور، لم يخالف في ذلك إلا شرذمة منهم لا يعتد بخلافهم)[9].

ومما أشار إليه في فضائله بقوله (عليه السلام): (وإنَّ مَعِي لَبَصِيرتِي ما لبّسَت ولا لُبِّس عَليَّ وإنّها للفئةُ الباغيةُ فِيها الحَما والحُمةُ والشُّبَهةُ المَغلوفةُ)[10]، يقول الخوئي: (يحتمل احتمالا قويا أن يكون المراد انه ما لبست عليّ نفسي ولا على الناس امري وما اخبرني به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الحق بالاتباع أحق، وفي هذا الكلام تعريض عليهم بأنهم غابت عنهم عقولهم وتاهت حلومهم، وان ما قدموا عليه أمر ملتبس وان خروجهم إنما هو بهوى النفس والناس مدلسون ما يلبسون)[11].

---

١ . المصدر نفسه٧/٨٧.
٢ . المصدر نفسه: ٧/٨٨.
٣ . المصدر نفسه: ٧/١٢٧.
٤ . منهاج البراعة: ٧/١٢٧.
٥ . المصدر نفسه: ٧/١٣١.
٦ . المصدر نفسه: ٧/١٣١.
٧ . المصدر نفسه: ٧/١٨٠.
٨ . المصدر نفسه: ٨/٢٢٩.
٩ . المصدر نفسه: ٨/٢٢٩.
١٠ . المصدر نفسه: ٨/٣٠٨.
١١ . منهاج البراعة:٨/٣٠١.

ومنها أيضاً ما كان في قول الإمام (عليه السلام): (كَمْ اطّرَدْتُ الأيامَ أبحثُهَا عَنْ مَكنُون هَذَا الأمرِ فأبى آللهُ إلاّ إخفاءَهُ)[1] ففي تأويله يقول الخوئي: (قلت: يمكن توجيهه بان يكون المراد بهذا الأمر خفاء الحق ومظلومية أهله وظهورالباطل وغلبة أصحابه وكثرة أعوانه لأنه (عليه السلام) سعى في أول الأمر في اخذ حقه غاية السعي فلم يتيسر وجرت الأمور لم يكن يخطر ببال أحد وقوع مثلها.
(وفي آخر الأمر لما انتهى إليه وحصل له الأنصار والأعوان وجاهد في الله حق الجهاد وغلب على المنافقين، سنحت فتنةالتحكيم التي كانت من غرائب الأمور، ثم بعد ذلك لما جمع العسكر وأراد الخروج إليهم وقعت الطامة الكبرى، فالمراد بالمكنون سر ذلك وسببه فظهر لي وأبى الله إلا إخفاءه عنكم لضعف عقولكم عن فهمه، إذ هي من غوامض مسائل القضاء والقدر)[2].

لعل هذا من أهم تأويلات الشارحين، مع وضوح آليات تأويلهم في ضوء هذا التأويل (التأويل التاريخي) في هذا المقام.

قائمة المصادر والمراجع

١- بحار الانوار محمد باقر المجلسي، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣.
٢- التاريخ احمد بن ابي يعقوب اليعقوبي تقديم السيد محمد صادق بحرالعلوم، المكتبة الحيدرية، النجف الاشرف ١٩٦٤.
٣- تاريخ الرسل والملوك ابو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨.
٤- شرح نهج البلاغة ابن ابي الحديد المدائني المعتزلي، تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧.
٥- شرح نهج البلاغة كمال الدين هيثم بن علي بن ميثم البحراني، ط١، مطبعة انور الهدى، قم، ايران، ١٤٢٧.
٦- العلل احمد بن حنبل بن محمد الشيباني، تحقيق وصي الله محمود عاس، المكتب الاسلامي، بيروت، د. ت.
٧- الغارات ابراهيم بن محمد الثقفي، ط١، تحقيق عبدالزهراء الحسيني، دار الكتاب، قم، د. ت.
٨- الفائق في غريب الحديث، محمود بن عمر بن جار الله الزمخشري، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ.
٩- كشف الغمة علي بن عيسى الاربلي، تعليق هاشم الرسولي، مكتبة بني هاشمي، تبريز، ١٣٨١هـ
١٠- المعيار والموازنة، ابو جعفر محمد بن عبدالله الاسكافي، تحقيق محمد باقر المحمودي، د. ت.
١١- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة العلامة المحقق حبيب الله الهاشمي الخوئي، صنفه المحقق حسن زاده الآملي، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٣.

١ . المصدر نفسه: ١١٠/٩.
٢ . المصدر نفسه: ١١٦/٩.

أثر الانزياح في جمالية بلاغة نهج البلاغة(دراسة الدنيا إنموذجا)

الاستاذ المساعد الدكتور:طالبة الماجستير

آفرين زارع و ناديا دادبور(جامعة شيراز- الجمهورية الاسلامية الايرانية)

الملخص:

إن النص هو الجسر الذي يوصلنا إلى الدلالات الجميلة السامية التي قصدها الكاتب وأرهق نفسه ليلقيها على السامع أو المتلقي، فإذا قصر بال المخاطب عن فهم المقصود فاته الكثير من الجماليات الخفية وهذا ما يسوء وينوء، فلسد هذه الفجوة بدأت الدراسات الأسلوبية تتكاثف لدى النقاد المعاصرين حتى ظهرت أسلوبية تسمى بالانزياح هي التي تخرق درجة الصفر المعياري وبخرقها تسهم إسهاما كبيرا في جمالية النصوص ولاسيما الأدبية والفنية منها؛ فالانزياح بأنواعه التركيبي والاستبدالي والصوتي يعتبر مركزا رئيسا في دائرة النص الفني البلاغي وما يلمع في النصوص لمعان الدر والياقوت هو نهج البلاغة .

استهدفت هذه المقالة القيام بتحليل انزياحي شامل في خطب نهج البلاغة التي تتمحور في معنى الدنيا لتكشف عن ساقي حقيقتها ولتبين أثر الانزياحات النصية ودورها الحاسم في جمالية بلاغة نهج البلاغة واستنتجت أخيرا بأن الانزياحات الموجودة في هذه النصوص هي التي أسهمت في تعميق الثالوث الدلالي وارتقاء المستوى البلاغي في هذا النص الذي انفرد ببلاغته.

الكلمات الرئيسة: نهج البلاغة،الجمالية،أسلوبية الانزياح،التحليل،الدنيا.

نهج البلاغة هو نهج في البلاغة ومحيط عظيم من المعارف الحقة التي لا يكاد أحد يدرك غورها ويمعن فحواها وهو نور قد سطع من صدرٍ وصفه رسول الله - صلي الله عليه و آله وسلّم – بباب مدينة العلم فمن يدق باب مدينة العلم لا شك يدخل مدينة مفعمة بالكنوز النادرة.

فهذا الكلام الذي يكون دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق،لاشك يتميز بميزات خاصة ترفع مستواه عن النصوص العادية الموجودة .

وهذه الميزات تتمظهر في الأسلوبيات الحديثة بشكل أدق.

ومن أهم هذه الأسلوبيات التي ترعرعت في العصور المتقدمة واعتبرت ميزاناً جديراً في تقييم النصوص هي أسلوبية الانزياح.

فالقيام بعملية تطبيقية وتبيين مواضع الانزياحية تعطي المخاطب قدراً كبيراً من الإيحائية الخفية التي استترت في طيات الكلام وهذا ما يفتح النوافذ البديعة أمام المتلقي.

نهج البلاغة وهو أكثر النصوص غني و ثراءً لابد أن يكون المحور الرئيس في الدراسات الأسلوبية، لأنه يقدم بضاعة ثمينة للأدب يتضح هذا الأمر اتضاحاً واسعاً إثر الدراسات التطبيقية.

أما ماهو الانزياح وما الدور الذي يقوم به في نضوج النص الأدبي فيكاد الإجماع ينعقد على أنّ الانزياح:

«خروج عن المألوف أو ما يقتضيه الظاهر أو هو خروج عن المعيار لغرض قصد إليه المتكلم أو جاء عفوَ الخاطر، لكنه يخدم النص بصورةٍ أو بأخرى و بدرجات متفاوته...» وهو كما يعتقد صلاح فضل: الانتقال المفاجئ للمعنى[1].

والانزياح ينقسم إلى أقسام مختلفة وكل قسمٍ منه يلعب دوراً حاسماً في ترقية المستوى الدلالي الإيحائي في النص.

فالانزياح يدرس على مستويين رئيسين: المستوى اللغوي والمستوى التركيبي:

---

١ . راجع: أبوالعدوس ،٢٠١٠/١٧٥.

١. المستوى اللغوي الذي يسمى بالانزياح الاستبدالي يعالج اللغة الصرفة الموجودة في ذاتها من دون النظر إلى موقعها التركيبي وتستوعب الأمور التالية:
الاستعارة
التشبيه
الكناية
٢. المستوى التركيبي: يدرس اللغة على نسق الوحدات التركيبية والترتيب الموجود في البنية العميقة. الأمورالتي يتطرق الانزياح التركيبي إليه تنقسم إلي أقسام عدة منها:

التقديم و التأخير

الحذف و الإضافة

الالتفات

الانتقال من موضوع إلي آخر

إضافة إلى هذين القسمين الرئيسين الذين سبق ذكر هما توجد انزياحات أخرى منها: الانزياح الصوتي الذي يعالج مدى تأثير الفونيمات المختلفة في دلالتها أو تأثير التكرار في إيحائية النص، والانزياح الدلالي الذي يسعى في توسيع عنصر المفاجاة لينمّي الفاصل المعنوي بين البنية العميقة والبنية السطحية.[١]

الانزياح الاستبدالي في نهج البلاغة:
التشبيه:الأركان الرئيسة في التشبيه الكامل هو: المشبه، والمشبه به وأداة التشبيه ووجه الشبه.
فدرجة الانزياحية في التشبيه تتكاثف حين يحذف أداة التشبيه ووجه الشبه ويغترب التشبيه.
ولا يغترب التشبيه إلّا في التباعد الدلالي الموجود بين المشبه والمشبه به.
أنظر إلى التشبيه التالي:
«تّى كأنّ الذي ضمن لكم قد فرض عليكم».[٢]

أداة: كأنّ
المشبه: الذي ضمن لكم
المشبه به: فرض عليكم وجه الشبه: شدة العناية والاهتمام درجة الانزياحية: ايجاد العلاقة بين وحدتين دلاليتين متضادتين: الضمان والفرض

هنا يدور الكلام حول الناس الغافلين الذين لم يهتموا بما فرض عليهم من الواجبات، بل أرهقوا أنفسهم في سبيل الحصول على الأموال؛ جعل الإمام هذه الغفلة التي أدت إلى إهمالهم الدين نقطة رئيسة لانتباههم و إيقاظهم فلهذا صنع حصراً دلالياً يوصل الضمان إلي الفرض.
فالله سبحانه وتعالى ضمن أرزاق الناس وثمة طلب منهم أمرا واحداً هو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً لأنه ما خلق الجنّ والإنس إلاّ ليعبدوه.
لايتم هذا الغرض الدلالي إلّا إثر هذه الانزياحية أي الانتقال من الاهتمام بالواجبات المفروضة إلى الاهتمام بالرزق المضمون.أنظر إلى الخريطة التالية:

الرزق	مضمون	إهمالها وعدم الاهتمام بها
الواجبات الدينية	**مفروضة**	**يجب العناية والاهتمام بها**

١ . راجع: محمد ويس، ٢٠٠٥، ١١١-١٢٠ و ٧٠-٧١ ؛ ميرغني، ٢٠٠٩، ٧٠و٧١.
٢ . خ ١١٤ / ٢٧٩ .

فالتشبيه ودرجة الانزياحية الكامنة فيه هو الذي أثر أثراً بالغاً في تأدية المعنى.
«انمّا الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار»:[1]

المشبه المشبه به وجه الشبه درجة الانزياحية:	الدنيا دارمجاز عدم البقاء والفناء الانتقال من الواقع إلى المجاز	الآخرة دارقرار القرار والأبدية الانتقال من الوحدة المعنوية الغير محسوسة إلي الوحدة المادية المحسوسة
أداة التشبيه	محذوف لدنوّ طرفي التشبيه	محذوف لدنوّ طرفي التشبيه

الإمام استخدم هذاالتعبير ليخرج الناس عن العادية التي اتكؤوا عليها خطأً و يبين لهم ما قال الله سبحانه و تعالى: «وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدارالآخرة لهي الحيوان»[2].

فالإنسان الذي أبصرالنور في هذه الدنيا ولم يذق حياة أخرى، كثيراً ما يعتبر هذه الدنيا مأمناً ومستقراً لنفسه، ويغفل عن الحقيقة التي لابد منها وهي الموت والانتقال من هذه الدنيا إلى الآخرة الأبدية.
فإذا كانت الدنيا تنتهي بما فيها من حلاوة ومرارة، فهي لا تجدر أن تكون حقيقة سرمدية؛ إذ الذي يزول لا يكون إلّا مجازاً، ولكن هذه الحقيقة غير ملموسة عند من يعيش في الدنيا.
فالإتيان بهذا التشبيه، وحذف الأداة للتسوية وامتزاج بين المشبه والمشبه به يلعب دوراً حاسماً في تأدية المعنى.
والآخرة التي بعيدة عن أهل الدنيا غالباً ما تنسى وتداس تحت أرجل الجهالة، فهذه الوحدة الدلالية توقظ الناس حيث إنّها تبعدهم عن الواقع الذي اطمئنوا إليه وترشدهم نحو الحقيقة القاطعة؛ فما يكون عند الناس مجازاً (الآخرة) يصبح واقعاً ملموساً وما يكون واقعاً ملموساً عندهم يتحول إلى المجاز الذي لا طائل وراءه. أنظر إلي النموذج التالي:

مجاز
حقيقة
الآخرة

- «فكانت كيومٍ مضى أو شهر انقضى»[3].

		نوعية الوحدة	درجة الانزياحية
المشبه	الدنيا	مادية محسوسة مكانية	إلحاق المحسوس المادي المكاني بالوحدة الزمانية المعنوية.
المشبه به	يوم، شهر	زمانية معنوية.	
أداة التشبيه	ك		
وجه شبه	الانقضاء		

هذه الوحدة المعنوية تذكرنا هذه الآية الشريفة:
«قال قائل منهم كم لبثتم قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يومٍ»[4]؛ يحسب الإنسان أنه يعمّر ما بقى الدهر أو يظن بأن هذه الدنيا لا انقضاء لها فهذا التشبيه الزمكاني قَلَّبَ ظهر المجن وجعل الحقيقة نصب العين وهذا الانزياح الدلالي الذي أنجبه هذا التشبيه، له كبير دور في كشف غطاء الجهالة وظهور المعنى الذي أغمض الناس عيونهم عنه.

---

١ . خ ٢٠٣ / ٤٦٦ .
٢ . العنكبوت / ٦٤.
٣ . خ ١٣٢ / ٤١٨ .
٤ . الكهف؛١٩.

فاليوم الذي ينقضي أو الشهر الذي يولى ليس له شأن في أعمال الشخص حالا أو مستقبلا.
وحدة المشبه به زمانية وهي تعطي المخاطب معنى خاصاً؛ إذ هو يبصر بأن الدنيا مهما طالت قصيرة جداً بالنسة إلى الآخرة التي يوم واحد منها كألف سنة.
«وكان ليلهم في دنياهم نهاراً تخشعاً واستغفاراً وكان نهارهم ليلاً توحشاً وانقطاعاً»[1].
فالمؤمنون الذين يعيشون في هذه الدنيا لابد أن يغتنموا فرصهم القليلة ويدّخروا زاداً جديراً لرحلتهم إلى دار قرارهم فيصبح ليلهم كالنهار«وبالأسحارهم يستغفرون»[2] فلا يضطجعون في الليالي ولا تكف ألسنتهم عن ذكر الرحمن في السحارى.
هذا المعنى الدلالي انساق في انزياحية بديعة. أنظر إلي النموذج التالي:

المشبه	المشبه به	وجه شبه	أداة التشبيه	درجة الوحدة	درجة الانزياحية
الليل	النهار	الاستيقاظ و التنبه	حذف	زمانية	الطباق الزماني (تشابه بين وحدتين متضادين)

هذا التشبيه يتميز بدرجة كبيرة من الانزياحية؛ إذ وَحَّدَ بين وحدتين متباعدتين؛ فالليل يشبه النهار، والنهار يقترب من الليل.
والتباين الموجود في هذه الانزياحية تباين زماني لوني فالليل مظلم حالك وهو ساعة جعل للنوم، والنهار مضيءٌ فاتح جُعل للعمل والنشاط.
فليس هذا التشبيه إلّا انزياحاً تاماً لأنه استخدم الطباق في إثبات دلالته:
الليل (الاستيقاظ و العبادة)
النهار
قال الإمام علي - عليه السلام - في وصف الدنيا وزمنها المحدد:
«ألا وإنّ الدنيا قد ولّت حذّاء فلم يبق منها إلّا صبابة كصبابة الإناء اصطبها صابها ... فلم يبق منها إلّا سملة كسملة الإداوة أو جرعة كجرعة المقلة لو تمزّزها الصديان لم ينقع»[3].

		نوعية الوحدة	نوعية الانزياحية
المشبه	ما بقي من الدنيا	معنوية ذهنية زمانية	الانتقال من الوحدة المعنوية الذهنية الزمانية إلى الوحدة المادية الحسية
المشبه به	صبابة في الإناء	مادية حسية	
وجه شبه	القلة		
أداة التشبيه	ك		

إنّ الدنيا تمضي بسرعة فائقة والموت يقترب شيئاً فشيئاً وكأنه لم يبق من الدنيا إلّا قليلاً وهذه القلة يشبه الماء القليل الذي يبقى في قراره الإناء.
الزمان شُبه بالماء الذي بقي في الإناء بعد صبه؛ تشبيه الزمان الذي لا يمكن مسه بالسائل الذي يرى بجامع الكمية القليلة، لا يكون إلّا انزياحاً مفاجئاً.

المشبه	مابقي من الدنيا	نوعية الوحدة ذهني زماني	درجة الانزياحية الانتقال من الوحدة
المشبه به	سملة الإداوة جرعة المقلة	مادي حسي مادي حسي	الذهنية الزمانية إلى الوحدةالمادية
وجه شبه	عدم الانتفاع لأجل الكمية القليلة		
أداة	ك		

لكن الإمام لن يكتفي بتشبيه الزمن القليل والفرصة القصيرة إلى صبابة الإناء، بل لتقرير المعنى في ذهن السامع يستخدم انزياحين آخرين.

---

١ . خ ١٣٢ / ٤١٨.
٢ . الذاريات / ١٨.
٣ . خ ٥٢ / ١٥٦.

ومن الملحوظ أن التشبيهين يتفقان في نوعية الوحدة ودرجة الانزياحية، وهذا يظهر دقة الكلام؛ فالبنية العمقية ترشدنا إلى أنّ هذا التركيب اللفظي يحتوي على ثلاث مؤكدات خفية، تمظهرت إثر هذا التحليل الإنزياحي الذي أزاح الستار عن وجه البنية السطحية.
هذه التشابيه وردت لتساعد المتلقي على إدراك ماهية الدنيا وحقيقتها الفانية.
وهنالك تشجيع على اغتنام الفرص والاهتمام بالثواني الباقية؛ هذا ما يؤدي إلى إقناع المخاطب و إيقاظه.
أما الانزياح الاستبدالي فلا ينحصر في التشبيه بل الاستعارة تقع في قمة هذا النوع من الانزياحية.
فلتبيين دورها(الاستعارة) في تأدية المعنى وإيحائية النص ندرس نماذج منها؛ كلما ابتعد طرفا التشبيه كثرت درجة الانزياحية في التشبيه.
نماذج من الانزياح الاستبدالي (الاستعارة):
«كونوا من أبناء الآخرة ولاتكونوا من أبناء الدنيا فإنّ كل ولد يلحق بأمه يوم القيامة»[1].
الاستعارة

المشبه	المشبه به	وجه الشبه	الدنيا	الأم
	التشابه و التماثل	الآخرة	الأم	

درجة الانزياحية

المشبه	المشبه به
الدنيا	الأم
العالم المادي و ما فيه	إنسان
دون حياة	حي
كبير حجماً	صغيرٌ جرماً

ففي هذه الاستعارة عنصر المفاجاة واضح جداً: تشبيه الدنيا والآخرة بالأم، وتشبيه الذين تعلقوا بالدنيا أو اهتموا بالآخرة بأولاد هذه الأم.
ما يثيرالعجب في هذه الوحدة الدلالية،هي العلاقة التي وجدت إثر هذا التشبيه الخفي.
فالأولاد يولدون من الأم، يربون في حضنها و يأخذون ميزاتها فأهل الدنيا كالدنيا، غدارون، غير مطمئنين ولايهجون إذ لاقرار في وجودهم الذي تزحزح عن الإيمان؛ وأهل الآخرة كالآخرة يتميزون بالثبوت و الحيوية ونشاطهم ماءٌ تفجرعن إيمانهم الخالص العميق.
وهذا المعنى اتخذ سبيل الرقيّ والتعالي لأجل الانزياحية الكبيرة التي تمتع بها النص.
«إنّ اليوم عمل ولاحساب وغداً حسابٌ ولاعمل»[2].

المشبه	المشبه به	المشبه	المشبه به
الدنيا	اليوم	آخرة غداً	
وحدة مادية	وحدة زمانية	وحدة معنوية	وحدة زمانية
الدنووالقرب	الدنوالزماني و القربالزماني	البعد	البعد الزماني

هذه الانزياحية تتمظهر في اغتراب المشبه في الواقع العادي عن المشبه به، إن الذين يعيشون في هذه الدنيا، يغترون بها ويحشدون الآمال ويشيدون القصور لأنفسهم وكأنها هي ولا غيرها.
فهذه الاستعارة رؤية تنبيهية كأنه يقول:
لا تغتروا بالدنيا ولا تحسبوها سرمدية أزلية.
كأنها يوم ينقضي بسرعة فائقة.

---

١. خ ٤٢ / ١٤٧.
٢. خ ٤٢ / ١٤٧.

وهذا اليوم ليس يوم النزهة والترفيه ولايوم الكسل والعطل بل هو يومٌ لابد من العمل فيه لأنّ الغد آتٍ من قريب ولا حائلاً عنه يحيد.
فإنّ غداً لناظره قريب .
الآخرة لقربها تمثلت في وحدة زمانية قريبة أي الغد.
فهنالك انتقال من الوحدة المادية إلى الوحدة الزمانية:

الدنيا	مادي
اليوم	زماني

«فخذوا من ممركم لمقركم»[1].

الدنيا كالممر؛ والعقل السليم يحكم ببذل الجهود وإرهاق النفس فيه لعمران المقر، وعمارة الممر وترك المقرّ، غاية الجهل والغباوة.
هذه الاستعارة توضح حقيقة الدنيا وماهيتها فمهما يكن من الأمر الإنسان لا شك يغادر الدنيا ولا شك يصل إلى الآخرة التي تخبره عن عمله.
هذا التجسيد يزيل الغموض عن وجه الحقيقة ويكشف من ساقي الدنيا؛ الدنيا جسر يوصل الإنسان إلى مقرّه أي الآخرة، فلا داعي للاهتمام بها لنفسها.

المشبه	المشبه به	الوحدة المشتركة
الدنيا أتراحها وأحزانها	الممر	عدم البقاء الحركة والنشاط وسيلة لاغاية

شبكة الانزياحية

حياة الدنيا	الممر
وحدة معنوية	وحدة مادية
عنصر الحركة غير واضح	عنصر الحركة بارز جداً

حذف المشبه في جميع الاستعارات ووضع المشبه به لتبيين المعنى هو العامل الرئيس في تضخيم المعني و تكثيف الصورة.
الممر يحتوي على مشاكل خاصة وصعوبات مرهقة لكن هذه الصعوبات لاتدوم ولا تثقل كاهل المارّ لأنه لاينظر إليها بل يريد أن يجتازها ليصل إلى ماقصده، فتخف عليه وتسهل.
الممرعادة ما طويل ومحدد ولا أحد يستقر فيه بل هو مكان الحركة والنشاط وهوالوسيلة للوصول إلى الغاية فالدنيا كذلك.
والإمام علي عليه السلام بهذه الوحدة القصيرة وضح قسماً كبيراً من ماهية الدنيا.
شبكة الانزياحية هي التي ساعدت على تعميق المعنى وتوسيع استيعابية الكلام.
«إنّ اليوم مضمار وغداً السباق»[2].

هذه الصورة الانزياحية رائعة وهي تحث الناس علي العمل ومبادرة الأعمال الصالحة.
المضمار الموضع والزمن الذي تضمر فيه الخيل.
وتضمير الخيل أن تربط ويكثر علفها وماؤها حتى تسمن ثم يقلل علفها وماؤها وتجري في الميدان حتى تهزل... وإنما يفعل ذلك بالخيل لتخفف في الجري يوم السباق كما أننا نعمل اليوم في الدنيا للحصول على السعادة في الأخرى»[3].

المشبه	**المشبه به**	**الوحدة المشتركة**

---

١ . خ ٢٠٣/ ٤٦٦.
٢ . خ ٢٨/ ١٢٥.
٣ . عبده، ٢٠٠٠/١٢٥و ١٢٦.

الدنيا **الإنسان** **اتخاذ الزاد والعمل الصالح**	**يوم المضمار** **الخيل** **التعلف و التهيأ للسباق**	**ساحة التأهب و الاستعداد**
شبكة الانزياحية		

فلا بد للإنسان أن يتزود في دنياه لأخراه.
ولابد أن يسعى ويجتهد لينال قصب السبق من الآخرين حتى يصبح من الفائزين.
لأنّ «السابقون السابقون اولئك المقربون»[1] فهذه الاستعارة خير تمثيل للاستعداد للآخرة. الدنيا دار منافسة والآخرة دار يتميز فيه الخبيث من الطّيب.
«كيف يكون بينهم تزاور وقد طحنهم بكلكله البلى وأكلتهم الجنادل والثرى»[2].

هنا تتمظهر صورة الدنيا الحقيقة ومصيركل حي أبصر النور فيها، فكل من عليها سائر إلى الموت وإنا لله وإنا إليه راجعون.
هذا وصف الموتى الذين رحلوا من هذه الدنيا الدنية؛ إذ طحنهم الفناء بكلكله وصاروا خير قوت لاحجار الأرض وترابه.
الفناء كأنه جمل أناخ على الأحياء وأهلكهم وكأنّهم أطعموا أحجار الأرض وثراه حينما اضطجعوا في قبورهم، هذا التجسيد الدقيق الانزياحي يلعب دوراً حاسماً في التصوير الخطابي.
أنظر إلى الشبكة الانزياحية التالية:

المشبه	**المشبه به**	**الوحدة المشتركة**
الفناء	**الجمل**	**الجلوس والإناخة**
العصوبات التي تؤدي إلى الفناء	**الكلكل**	**الثقل**
وضع الميت في القبر، ورش التراب عليه	**أكل الجنادل والثرى**	**إمحاءالشيء وإزالته**

الفناء معني معنوي انزاح إلي الجمل حيوان ذي روح مادية .
الصعوبات المستعصية شبهت بكلكل الجمل وهذا انتقال من الوحدة المعنوية إلى الوحدة المادية.
وضع الميت في القبر، ورشّ التراب عليه عبر عنه بتجسيد مفاجئ، كأن الأحجار والتراب حيوان شرس افترس الميت وأكله حتى صار هباءً منثوراً، فالاستعارة وهي من أهم أنواع الانزياح الاستبدالي أفعمت كلام الامام، وقامت لتؤدي المعنى المقصود، وتصور ما يصور بأروع شكل، وراحت تنعش الكسالي وتوقظهم من سكرتهم التي غمرتهم.
أما الكناية تعتبر من أنواع الانزياح الاستبدالي؛ من نماذجها هي:
«إلزموا الأرض واصبروا على البلاء »: كناية عن السكون[3].

«رياحهم راكدة »: ركود الريح كناية من انقطاع العمل وبطلان الحركة[4].

«أخرجوا من الدنيا قلوبكم»[5].

تتجلى درجة الانزياحية في الكناية باختلاف المعنى الكنائي بالنسبة إلى المعنى اللغوي المعجمي.

---

١ . الواقعة / ١٠.
٢ . خ ٢٢٦ / ٥٠٣ .
٣ . خ ١٩٠/ص ٤١٧.
٤ . خ ٢٢٦/ ص ٥٠٣.
٥ . خ ٢٠٣ / ٤٦٦.

الشبكة الانزياحية		
المعنى اللغوي المعجمي الزموا الأرض: لزوم الشيء: عدم مفارقته والتعلق به رياحهم راكدة: ركود الريح: انقطاع هبوبها و سكونها	المعنى الكنائي السكون انقطاع العمل وبطلان الحركة	نقطة المفاجاة الانتقال من المعنى المادي إلى المعنى المعنوي. لزوم الأرض السكون الانتقال من الصورة المادية الطبيعية إلى الصورة المادية الإنسانية انقطاع الهبوب انقطاع العمل
أخرجوا من الدنيا قلوبكم: الخروج من المأزق: التخلص منه	انقطاع النفس عن حبّ الدنيا	الانتقال من الوحدة المادية إلي الوحدة المعنوية. التخلص من المأزق الانقطاع عن الدنيا

ما يستنتج من الشبكة الانزياحية هو:

أولاً: لزوم الأرض والسكون عن المحاربة عند عدم توفر أسباب المغالبة أمرلازم و هذا المعنى مؤكد عليه إثر هذا الانتقال أي العدول من المادي إلى المعنوي؛ ولايتم المعنى إلّا بواسطة الانزياحية.

ثانياً: ترك الانزياح أثراً بعيداً في الكناية الثانية: كل من عليها فان وكل من عليها يتماثل مصيره والغابرون الذين خمدت أصواتهم وانقطعت نشاطاتهم مثلهم كمثل الريح التي شرعت تهب حتى إذا ركدت كأن لم يكن لها أثر، فهكذا الموت يقطع عملهم المتواصل ويبطل حركتهم.

فهنالك انتقال من الصورة الطبيعية أي هبوب الرياح إلى الصورة الإنسانية المادية أي الحركة والنشاط.

ثالثاً: الدنيا مأزق ضيق لايجدر بالعناية والاهتمام بل الذي يسجن في المأزق لا يزال يجتهد في خلاص نفسه منه؛ فالدنيا سجن ضيق ولابد للقلب أن يتخلص منه وينقطع عنه.

فالهيكل المعنوي البعيدعن الحس شبه بالهيكل المادي الحسي.

٢. الانزياح التركيبي: وهو ما يقع في الروابط الموجودة بين الدلالات في عبارة واحدة أو في التراكيب عامةً وقيمة احتوائه على كمية كبيرة من الطاقات الجمالية.[١]

كما أنه «يتمثل في وقوع الكلمة في موقع يخالف المكان الصحيح على حسب النظام اللغوي والنحوي في اللغة المعينة ...»[٢].

يمكن أن ندرج في محيط الانزياحات التركيبية الأمور التالية:

١.الحذف

٢.التقديم و التأخير

٣.الالتفات

١.الحذف:

«لا ينال امرؤ من غضارتها رغباً إلّا أرهقته من نوائبها تعباً»[٣].

في هذا القسم قصد الإمام تنبيه المخاطب على عدم الاغترار بالدنيا؛ إذ حلاوتها قليلة ولذتها فانية؛ يلحقها تعب مرير وأرق طويل.

فلتبيين هذا المعنى وتوسيع دائرة الدلالة حذفت الصفة.

---

١ . راجع : محمد ويس؛ ٢٠٠٥/١٢٧-١٢٠.

٢ . ميرغني، ٢٠٠٩/ ٧٢-٧٠.

٣ . خ ١١١/ ص ٢٧١.

فتنكير «رغباً وتعباً» هوالدال على هذه الانزياحية، واستيعابية المعنى شاسعة؛ يمكن استنتاجات عديدة من هذه الوحدة اللفظية.
فيعبر حيناً لاينال رغباً صغيراً إلّا أرهقته من نوائبها تبعاً طويلاً.
أو يمكن أن ينقلب النظرعن هذه الإيحائية إلى أخرى نحو:
لاينال امرؤ من غضارتها رغباً [حسناً] إلّا أرهقته من نوائبها تعباً [خبيثاً سيئاً]
و لولا الحذف لما تكاثفت قدرة النص الإيحائية ولبقي الكلام كما يرى في البنية السطحية.
فشبكة الانزياحية تتجلى في الخريطة التالية:

الدلالة في البنية السطحية: لاينال ... رغباً إلا أرهقته ... تعباً شبكة الانزياحية الدلالة في البنية العميقة:			
		واحداً	**خبيثاً**
لاينال رغباً		**قليلاً صغيراً**	**إلا أرهقته تعباً**	**طويلاً كبيراً**
دور الانزياح		**حسناً ممتعاً**	**دور الانزياح**	**مهلكاً مؤذياً**
تكثيف المعني أي: الانتقال من معنًى واحد إلى معان كثيرة			**تكثيف المعنى أي: الانتقال من معنًى واحد إلى معان كثيرة**	

«فخذوا من ممركم لمقركم»[1].
فعل " أخذ " من الأفعال التي تتعدى بالمفعول لكن هذه الوحدة تفقد المفعول وانزاحت عمّا وضع في أصل اللغة.
فانظر إلى شبكة الانزياحية:

		البنية المتوقعة (العميقة)		**الفعل**	**الفاعل**	**المفعول به**	**الضميمة**	**ضميمة الضميمة**
شبكة الانزياحية				**خذ**	**واو**	**الزاد**	**من ممركم**	**لمقركم**
		البنية السطحية (المفاجاة)		**الفعل**	**الفاعل**	**المفعول به**	**الضميمة**	**ضميمة الضميمة**
				خذ	**واو**		**من ممركم**	**لمقركم**

(راجع: الجنابي، ٢٠١٠، ٩٢).
فحذف المفعول به (ما يؤخذ من الممر للمقر) وهذا مما أدي أولاً إلى توسيع دائرة الدلالة؛ إذ كل عمل صالح مهما يكن صغيراً أو كبيراً يثقل المكيال ويعبّد الطريق الذي يسلكه الإنسان، فهذا الزاد يشمل جميع الحسنات ولا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا تحصى.
ثانياً: إنّ الفاصل الزمكاني بين الممر (الدنيا) والمقر(الآخرة) قصير جداً حيث إنك لا تشعر بعد رحلتك هذا الفاصل؛ فالأجل يقترب منك عاجلاً أو آجلاً فحذف المفعول به في هذه الوحدة اللفظية يرشدنا إلى هذا المعنى اللطيف الدقيق.

---

١. خ ٢٠٣ / ٤٦٦.

«فانية فانٍ من عليها»[1].

الحذف ههنا أدى إلى التوحيد الدلالي الذي يقع بين المسند والمسند إليه أو بين الصفة والموصوف.

الدنيا فانية.

فحذفت الدنيا لتصبح هي والفناءشيئاً واحداً.

«كل من عليها فانٍ * ويبقي وجه ربك ذو الجلال والإكرام»[2]، فلعبت الانزياحية دوراً دلالياً ملحوظاً في هذا المعنى الدلالي.

أنظر إلى الخريطة التالية:

المعنى الحقيقي

الدنيا فانية الانزياحية

حذف الدنيا التوحيد الدلالي

الدنيا الفناء الفناء البحت الدنيا

فلولا هذه الانزياحية لم نكن نعي هذا المعنى ولفاتت هذه الملاحظة الجديرة بالاهتمام فلابد للإنسان أن يقطع حبل علاقاته من الدنيا الدنية الفانية.

٢. التقديم والتأخير:

وهو من أكثر الانزياحات التركيبية شيوعاً.

ويكثر في مختلف النصوص كما يحمل دلالات متباينة، ويسهم إسهاماً كبيراً في تضخيم المعنى ونضوجه الدلالي ومن أمثلة ذلك: «وكل شيءٍ من الدنيا سماعه أعظم من عيانه. وكل شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه»[3].

في هذه الوحدة تتقدم الشمولية على سائر الوحدات وذلك يتمظهر في تقديم (كل)، ثم في تنكير (شيء) وهو يؤدي إلى توسيع دائرة الايحائية.

فكل ما يوجد في الدنيا كبيرسمعا لا عينا وهو يتبدل إلى شيء حقيرضئيل لوعوين واقترب من الإنسان وهو خلاف لما يصوره الإنسان من تضخيم وتكثيف .

ففي الشطر الثاني من هذا المقطع، تتمظهر الآخرة فيما يقابل تصوير الدنيا، فالشمولية نفس الشمولية والأداة نفس الأداة (كل) والتنكير نفس التنكير؛ لكن ما يجعل الوحدة مقابل الوحدة المسبقة هو الاستبدال المكاني أي الانزياح المكاني في كلمتي: «سماع وعيان» .

فالآخرة أشد من من الدنيا وأعظم، فما نسمع عنها مجرد لفظ ينتشر في الفضاء لكن الحقيقة أعظم درجة أكبر نطاقا .

وهذا الانزياح أفضل طريق تبين كيفية الدنيا والآخرة والفاصل الزمكاني موجود بينهما.

أنظر إلى الخريطة التالية:

		الانزياح التركيبي		
كل شيءٍ		**من الدنيا** **تقديم الدنيا على الأخرى**		**سماعه أعظم من عيانه** **تقديم السماع على العيان**
كل شيء		**من الآخرة** **تقديم الأخرى على الدنيا**		**عيانه أعظم من سماعه** **تقديم العيان على السماع**
تقديم الشمولية				

١ . خ١١١ / ٢٧٢.
٢ . الرحمن / ٢٦و٢٧.
٣ . خ ١١٤ / ٢٧٩.

ولولا الانزياح التركيبي لفات كل ما قصد بهذين الشطرين من نقص درجة الدنيا وتعظيم درجة الأخرى. فلماذا قدم الدنيا على الأخرى ؟
ما يبدو من ظاهر الأمر - والله أعلم - أن الدنيا قريبة منا وهذه القرابة الزمكانية أدت إلى عظم الدنيا في عيوننا وارتقاء مستواها في أذهاننا؛ فقدم الدنيا لينبه لما في الدنيا من الدنو والدناءة مقارنة مع الآخرة، وأخّر الآخرة لتبين هيبتها وتعظيم شأنها؛ إذ عيانه أعظم من سماعه وما يتصف بهذه الصفة لا شك أمر جليل ولابد من الاستعداد والتأهب للقائه (خ ٢٧٩/١١٤)
" أفلا تائب من خطيئته قبل منيته ألاعامل لنفسه قبل يوم بؤسه " (خ ٢٧٩/١١٤) .
البنية السطحية انزاحت عن البنية العميقة وهذا أدى إلى تكثيف الإيحائية الموجودة في النص.
أنظر إلي الجدول التالي:

البنية السطحية	**أفلا**	**تائب**	**من خطيئته**	**قبل منيته**	**ألا عامل**	**لنفسه**	**قبل يوم بؤسه**
البنية العميقة	**أفلا**	**تائب**	**قبل منيته**	**من خطيئته**	**ألا عامل**	**قبل يوم بؤسه**	**لنفسه**

فإن التوبة من الخطيئة يجب أن يكون قبل إدراك الناس الموت، كما أن العمل للنفس لا طائل وراءه إلا إذا كان قبل يوم البؤس أي الموت، وهذا المعنى يتجلى واضحا في الانزياحية التي أحدثت في البنية السطحية و لولاها لفات الغرض الغائي الذي استهدفه الخطيب وهو المبادرة بالعمل قبل فوات الأوان، واغتنام الفرص قبل انقطاع النفس .
فلهذا قدم الخطيب، التائب من الخطيئة علي المنية وقدم العامل للنفس على يوم البؤس .
«العيش فيها مذموم والأمان فيها معدوم وأنما أهلها فيها أغراض مستهدفة ترميهم بسهامها وتفنيهم بحمامها»[١].

الانزياح التركيبي في هذه الوحدة الدلالية يترآى في تقديم ما يحبذه الأنسان من العيش والأمان وانتهاء الوحدة بالحقيقة التي لا تحلو لكنها حقيقة وهي ذم العيش وانعدام الأمان، وأن الأهل يرمي بسهام الموت فيفنى.
وتقدم الجار والمجرور الذي يوفي معنى الوعائية وهو (في) تأكيدا على ما في الدنيا من:عيش فان وأمان زائل وأهل راحل .

البنية السطحية	**العيش**	**فيها**	**مذموم**	**الأمان**	**فيها**	**معدوم**	**أهلها**	**فيها**	**أغراض**
البنية العميقة	**العيش**	**مذموم**	**فيها**	**الأمان**	**معدوم**	**فيها**	**أهلها**	**أغراض**	**فيها**

في كل الوحدات التركيبية توسطت (فيها) وهي وحدة لفظية متقدمة جي ء بها لتدل على الدنيا وما فيها من زخارف لا ملاذ فيها و كلها سائرة إلى الهلاك.
ومن أنواع الانزياح التركيبي هو الالتفات أي الانتقال من أسلوب إلى آخر؛ يمكن أن يكون هذا الانتقال من الفعل الماضي إلى المضارع أو ضمير المخاطب إلى الغائب أو غيرذلك نحو:
الالتفات من الايجاب إلى السلب:
«الزموا الأرض واصبروا على البلاء ولا تحركوا بأيديكم»[٢].

الالتفات الاستدراكي المعنوي:
وهو الذي يتم بـ«بل ولكن» لجذب المخاطب وتنبيهه إلى المعطوف ببل وما يلي لكن من معنى .
«ثم ظعنوا عنها بغير زاد مبلّغ ولا ظهر قاطع، فهل بلغكم أن الدنيا سخت لهم نفسا بفدية وأعانتهم بمعونة أو أحسنت لهم صحبة بل أرهقتهم بالقوادح، وأوهنتهم بالقوارع»[٣].

---

١ . خ٢٢٦، ٥٠٢.
٢ . خ ١٩٠/٤١٩.
٣ . خ ١١١/٢٧٣.

الالتفات من الأسلوب الخبري إلى الأسلوب الإنشائي:
«وكانوا أحق بها وأهلها في ملك دائم ونعيم قائم؛ فارعوا عباد الله ما برعايته يفوز فائزكم»[1].
الالتفات من مقومات الخطب، ولا سيما الطويلة منها؛ فإذا المخاطب انفلت عن الموضوع وانزاح عن الجوالموجود فالالتفات ينبهه ويستقيم فكره ويقوم اتجاهه .
ففي الالتفات من الإيجاب إلى السلب نرى الخطيب يأمر المخاطب بغية الإرشاد؛ ما إن شعر بأن المخاطب ازدجر ونفر من الأمر أو تعودت أذنه على استماع هذا السياق، عدل عنه إلى حيث قال: الزموا أرض، واصبروا على البلاء ولا تحركوا بأيديكم .
فعدل عن الأمر في فعلي الزموا واصبروا إلى صيغة النهي وهو: لا تحركوا .
أما الالتفات الاستدراكي المعنوي فنوع آخر من أنواع الالتفات يدرك بالمعنى ويأتي غالبا ما بأدواة الاستدراك: بل ولكن .
فالمتلقي يستدرك ما سبق قوله بما يلي هذين الحرفين: وذلك ما مثلناه في النموذج الثاني .
أنظر إلى الخريطة التالية:

نوع الانزياح	أداة الانزياح	درجة الانزياحية
الالتفات الاستدراكي المعنوي	**أداة الاستدراك**	**ترجمة الاستفهام الإنكاري بصورة الفعل الماضي اليقيني**
	بل فهل بلغكم أن الدنيا سخت لهم نفساً بفدية أو أعانتهم بمعونة أو أحسنت لهم صحبة أرهقتهم بالقوادح وأوهنتهم بالقوارع	

فالإمام (عليه السلام) يبدأ كلامه بالاستفهام الإنكاري لتستعد نفوس المخاطبين وتكثر استيعابيتها ولتستقبل الحقيقة برحابة صدر، ثم يأتي بالحقيقة اليقينية: فالدنيا لا تجود على الإنسان ولا تساعده ولا تصاحبه صحبة صديق نصوح بل الحق أنها تتعب من فيها لا بقادحة بل بقوادح وتضعف من التصق بها لا بقارعة بل قوارع .
فهنا انزياح آخر وهو العدول عن المفرد إلى صيغة الجمع دلالة على كثرة المصائب التي تصل إلى أبناء الدنيا الذين اشتغلوا بها وانشغلوا عما يفيدهم في حياتهم الأخرى.
الالتفات الأسلوبي أي الانتقال من الأسلوب الخبري إلى الأسلوب الإنشائي:
وذلك من أرقى الأساليب الموجودة في الفن الخطابي وهو مما يثير رغبة المخاطب ويشجعه على مواصلة الاستماع إلى الكلام والاستمتاع به .
وذلك نحو المثال الثالث الذي أشرنا إليه.
أنظر إلى الشبكة الانزياحية التالية:

«كانوا أحق بها وأهلها فى ملک دائم ونعيم قائم

فارعوا عباد الله برعايته ما يفوز فائزكم»[2]

فعل	فعل
ناقص	تام
ماضٍ	مخاطب
للغائب	أمر

فهذا انتقال من الفعل الناقص إلى الفعل التام من حيث اللفظ، وانتقال زماني من الماضي إلى المخاطب وانتقال سياقي من الغائب إلى لمخاطب.
والانزياح التركيبي واسع النطاق، مترامي الأطراف.

---

١ . خ١٩٠/٤١٩.
٢ . خ١٩٠/٤١٨ و ٤١٩.

نهج البلاغة يزخر بهذه الأسلوبية التي أدت إلى تعميق معناه الدلالي .
لكننا أتينا بنماذج قليلة واخترنا باقة من ورود هذه الحديقة الجميلة الفواحة .
ومما تجدرملاحظته ههنا أن الدنيا في نهج البلاغة لم يكن إلا مقارنة بين الدنيا الدنية والآخرة السرمدية وهذا ما جعل الطباق يكثر فيه.
فعنصر الطباق وهو انزياح عن الوحدات الدلالية الإيجابية يجعل دائرة زمكانية واسعة بين الوحدات المتضادة و يؤدي إلى توسيع المعنى؛ إذ يقول الفلاسفة: «تعرف الأشياء بأضدادها»، وهذا ما يسمى انزياحا دلاليا
من نماذجه:
«فإن الدنيا لم تخلق لكم دار مقام بل خلقت لكم مجازا»[١].

«أيها الناس إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار»[٢].

«فخذوا من ممركم لمقركم»[٣].

«عذبها أجاج، وحلوها صبر وغذاؤها سمام وأسبابها رمام»[٤].

«حيها بعرض موت وصحيحها بعرض سقم»[٥].

«لم يكن امرؤ منها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة»[٦].

«لا يمسي منها في جناح أمن إلا أصبح على قوادم خوف»[٧].

«وذي أبهة قد جعلته حقيرا وذي نخوة قد ردته ذليلا»[٨].

«إن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل».
أنظر إلى الشبكة الانزياحية:
لم نتمكن من إدراك ماهية الدنيا إلا إثر هذه الانزياحية الدلالية التي أوجدها التباين الدلالي؛ فالدنيا دار مجاز مقابل الآخرة التي هي دار قرار والدنيا الممر الذي لابد من اجتيازه مقابل الآخرة التي هي دار قرار والدنيا يوم عمل واجتهاد، والآخرة يوم حساب وجزاء .
والملحوظ أن الطباق في كل مجموعة من المجموعات يشكل وحدات مشتركة ايجابية؛ وهذه الوحدات الاشتراكية التي ذكرت بفواصل خاصة هي التي أحكمت مواضع الوحدات المضادة .
أنظر إلى النموذج التالي:
من يمعن النظر في الوحدات المشتركة يبصر بكل وضوح أن هناك سيرا منطقيا دلاليا بين هذه الوحدات، فالدنيا دار مجاز يمر به الإنسان، وفي هذا الممر لابد أن يدخر الزاد؛ فهذا الممر يوم عمل ولا حساب .
والآخرة دار قرار يستقر فيه الإنسان ويحاسب بأعماله و يرى ما ادخر من الزاد.
فهذه الوحدات المضادة في البنية السطحية تحتوي على فحوى اشتراكية في البنية العميقة:أما الدنيا من دون النظر إلى العقبى فحياة مليئة بالتضاد وذلك يتبين في النموذج التالي:
على أساس ما يتبين من الانزياحية في الجدول يستنتج بأن الدنيا التي دارمجاز هي التي تموج بالتضاد حيث إنه يمكن القول بأن الدنيا هي انزياحية فحسب فلا عذوبة فيها إلا ينتهي بالكدرة ولا الحلاوة فيها إلا يليها مرارة .

---

١ . خ١٣٢/٣٠٥.
٢ . خ١٣٢/٣٠٥.
٣ . خ٢٠٣/٤٦٦.
٤ . خ١١١/٢٧٢.
٥ . خ١١١/٢٧٢.
٦ . خ١١١/٢٧١.
٧ . خ١١١/٢٧١.
٨ . خ١١١/٢٧٢.

الغذاء الذي يتناول ذو غصة قاتلة يشبه السم الهالك، ومن تمسك بحبل منها رآه تقطع وصار رميما فتيتا؛ أفراحها قرينة الأتراح؛ وأمنها لا يطمأن به وكأنه التجاء من الرمضاء بالنار؛ إذ هو رهين الخوف والرهبة وهذا الانزياح يرشدنا إلى شيء من التشكيك الوجودي الذي ذهب إليه بعض الفلاسفة؛ فالدنيا دار الأضداد و دار الأضداد هي المجاز حقا.

هذا المعنى العميق الذي نراه في الفِقَر لم يكن يوجد إلا بفضل الانزياح.

إضافة إلى الانزياح الدلالي نشاهد انزياحات أخرى تتوقف على الفونيمات، والنبر، والإيقاع الموجود في النص، وهو ما يؤثر أثرا كبيرا على الدلالات البنيوية التي تشكل البنية العميقة أو السطحية وذلك ما يسمى بالإنزياح الصوتي ويتجلى بمظاهر مختلفة منها:الحزم الصوتية، والسجع، والتكرار ثم تأثير كميات الأصوات المتكاثفة في النص.

١ - الحزم الصوتي: وهو يتمثل في: «بث مجموعة من الأصوات المكورة في نسيج الخطاب لإثارة طاقتها الإيحائية الكامنة وتفجير إمكاناتها الوافرة»[١].

في الواقع الحزم الصوتية مجموعة من الأصوات التي تكوّن وحدة لفظية واحدة حيث إن الصوت يوحي المعنى الدلالي فلا يمكن حينئذ تغييره لأن التغيير يسبب حرمان اللفظ من الطاقة الإيحائية الفونيمية.

ومن أمثلة الحزم الصوتية في نهج البلاغة هي:

زحزح: تزحزح تزحزحا عن مكانه: تباعد وتنحى؛ فالزاء من الحروف الرخوة المجهورة المرققة، والحاء رخوة مهموسة مرققة حلقية، فتكرار هذين الحرفين واحدا تلو الآخر أدى إلى انطباق الصوت والمعني إضافة إلى ذلك إن وزن فعلل يدل على الحركة؛ فللفظ انطباق تام والمعنى، زلزل: تزلزل تزلزلا الأرض: اضطربت وارتجفت واهتزت؛ الزاء كما أشرنا حرف مجهور، اللام حرف منحرف؛ فالزاء تدل على الصوت الرهيب الذي ينبعث إثر الزلزال؛ اللام تدل على انحراف الأرض وما تحويه من الأشياء؛ و الوزن: هو فعلل الذي يدل على الحركة، إذن الحزمة الصوتية تنطبق على الوحدة الصوتية.

ضعضع فلانا: ألقاه في اضطراب؛ حرف الضاد حرف شديد مجهور مفخم ؛ والعين مجهور حلقي؛ فشدة الضاد وتكرارها وجهورة العين وعمقها دلّا على شدة الاضطراب والقلق الموجود . الوزن فعلل يدل على خفق القلب وغليان النفس .

حنين: حن حنينا: صوّت؛ الحاء حرف رخو مهموس مرقق والنون حرف أنفي لثوي، والحنين هو صوت حزين إثر فاجعة أو كارثة أو قيل: صوت شوق للقاء حبيب؛ فحرف الحاء الرقيق المهموس يدل على رقة الذي يحن ولثوية النون يدل على التأوهات التي تخرج عن صدر متلهف.

فالحزم الصوتية تؤثر على تجميل النص وتقريب المعنى الدلالي، وكلام الإمام لا يخلو منه بل الحزمة الصوتية جعلت من خطبه بضاعة دسمة غالية.

٢.السجع: هو موسيقى النثر كما يعضد القدرة الإيصالية التي تتكئ عليها ويجعل الكلام يبلغ الآذان ويلج القلوب، وجلّ الخطب في أي موضوع كانت لا تخلو من السجع.

ومن نماذجها في نهج البلاغة:

«فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع»[٢].

«ألا إنكم في أيام أمل من ورائها أجل»[٣].

«فهي تحفز بالفناء سكانها وتحدر بالموت جيرانها»[٤].

أنظرإلى الخريطة التالية:

---

١ . تامر، ١٩٩٦/ ٤٤.
٢ . (خ١٢٥/٢٨.
٣ . خ١٢٦/٢٨.
٤ . خ١٥٦/٥٢.

نوع الانزياح الصوتي: **السجع** **أدبرت و آذنت أقبلت و أشرفت**	**الإيحائية** **انتهاء المقطع بالتاء المهموسة يدل على مضي الدنيا بهمس غير محسوس وإقبال الآخرة بشكل غير متوقع**
أجل أمل **تحفز تحدر**	**اللام تدل علي القطع، فالأمل ينقطع بالأجل والأجل يقطع يد الأمل إلى الأبد** **تحفز الدنيا الإنسان على زخارفها التي تريها جهرة وهذا ما يبدو من حرف الزاء؛ فالدنيا تحيط الناس بالموت دوماً.** **الراء للتكرار يدل على هذا الحكم المستمر في الدنيا.**

فالسجع يلعب دورا حاسما في تأدية المعنى المنشود، وكما جاء فيما سبق ايحائية المقاطع التي ختمت بالتاء تدل على الخفية وعدم الوعي، فمضي الزمن غير محسوس والموت الذي يلحق الدنيا بالعقبى لا يخبر، واللام تدل على القطعية؛ قيد الأجل تعجل في إزالة الآمال ولا شك يأتي الأجل ويضرب الآمال بصرامة وقاطعية .

والدنيا ثمة تغر الإنسان؛ وتلهية بزخارفها؛ وتحدر دم الناس أجمعين وهذا سنة الله ولا تجد لسنة الله تبديلا؛ والموت حقيقة تتكرر ولا يعرف سلطانا أو فقيرا؛ والراء هي حرف التكرار وتدل على تكرار الموت .

أحيانا السجع يدل على تأوه مقلوب على من مات، والهاء تدل على الأفول والزوال .

وذلك تتمثل في هذا الشطر من كلام الإمام علي (عليه السلام):

«الذين احتلبوا درتها وأصابوا غرتها وأفنوا عدتها وأخلقوا جدتها»[1].

التأوه المقلوب يتجلى في ما تكرر في آخرالمقاطع أي(ها) وفي هذا الشطر نرى التكرار والسجع يقترنان، و ثمة الهاء المهموسة تدل على الأفول والزوال فاحتلبوا درتها فراحت نحو الزوال وأفنوا عدتها فتأوهوا على ما أصابهم .

بالرغم من أن السجع هو انزياح صوتي صريح، لكن هناك انزياح صوتي رائع حينما يتوقع المستمع الإتيان بوحدة صوتية خاصة ثم يفاجئه المتكلم ويأتي بوحدة صوتية مختلفة وذلك نحو:

«فان الدنيا لم تخلق لكم دار مقام بل خلقت لكم مجازا»[2].

فان مقام يتطلب اسما يشبهه في الوزن في المقطع الثاني، لكن مجازا الذي جاء في المقطع الثاني يختلف معه اختلافا كبيرا وذلك لغاية دلالية؛ فإن مقام يختتم بحرف الميم الذي يدل على القطعية والثبوت ثم تنضم إليه حركة الكسرة بعد الفتحة بعمق وذلك يدل على ما في لفظ مقام من معنى .

أما مجازافلم يأت على وزنه ولا اختتم بحرف الميم كما ختم مقام .

انتهى مجازا بحركة الفتحة التي تنتشر في الفضاء وهذا ما يؤدي إلى تقويم إيحائية هذه الكلمة .

وكل هذا جي ء به ليتميز الخلاف الشائع الموجود من: مقام ومجاز.

٣.التكرار: التكرار من انواع الانزياحات الصوتية التي تقوم بتكثيف المعنى الدلالي الذي غالبا ما يكون للتوكيد .

ومن أمثلة التكرار في نهج البلاغة هو:

«فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غدا»[3].

---

١ . خ٥٠٨/٢٣٠.
٢ . خ٣٠٦/١٣٢.
٣ . خ١٢٧/٢٨.

«فلم يبق منها إلا سملة كسملة الإداوة أو جرعة كجرعة المقلة»[1].

«لوحننتم حنين الوله العجال»[2].

«لوانماثت قلوبكم انمياثا»[3].

«محمولا على أعواد المنايا يتعاطى به الرجال الرجال»[4].

فالتكرارفي هذه الأمثلة تكرارتجاور واضافة إلى التوكيد المعنوي يرشدنا إلى المعنى الوصفي الذي تتضمنه اللفظة؛ وذلك نحو:سملة كسملة الإداوة أو جرعة كجرعة المقلة؛ حيث بيّن بأداة التشبيه المعنى الذي تحمله السملة أو الجرعة.

ومما جاء للتوكيد فحسب، يمكننا الإشارة إلى: «انماثت قلوبكم إنمياثاً» و «يتعاطى به الرجال الرجال».

فالتكرار أيضاً يقوم بمهمة هامة في القذف المعنوي، وما يتميز به التكرار اللفظي هو أنه يشمل التكرار الصوتي الذي يساعد الموسيقى.

فبعد ما تعرفنا على الانزياح الصوتي وقطفنا منه باقة من كلام أميرالمؤمنين عزمنا على تبيين تأثير المد و أثره الدلالي في النص وذلك في خطبة ٢٠٣ نموذجاً والمعنونة بـ:

التزهيد من الدنيا والترغيب في الآخرة؛ أما الخطبة فهي:

«أيها الناس، إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار، فخذوا من ممركم لمقركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم؛ وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم؛ ففيها اختبرتم ولغيرها خلقتم. إن المرء إذا هلك قال الناس: ما ترك؟ وقالت الملائكة: ما قدم؟ لله آباؤكم، فقدموا بعضا يكن لكم فرضا، ولا تخلوا كُلّا فيكون عليكم».

تكرر المد في هذه الخطبة القصيرة ست وعشرين مرة وهذا التكرار يقارن حرف الميم القاطع الذي يكون من الحروف المغلقة.

ولهذا المد في الخطبة ـ على ما علمنا ـ سبع دلالات هي:

١.النداء الخفي لإيقاظ البشرية

٢ - تأوه مقلوب على الذين استمسكوا بزخارف الدنيا

٣ - وجود الهاء الخفية وتكرارها ينبه المخاطب، وكأن هذا الحرف حرف تنبيه يهمس في أذن المتلقي.

٤ - المد امتداد الحياة من الدنيا إلى الأخرى، فالحياة ليست لها نهاية والموت جسر يمد الحياة الدنيوية إلى الحياة الأخروية.

٥ - حرف المد يرشدنا إلى الوقوف وامتداد والقيام نحو العمل الصالح للآخرة.

٦ - وجود حرف المد مع أدوات النفي للتوكيد، وذلك يتمظهر في حرف «لا».

٧ - وجاءت للتوكيد على تحقق وقوع وقطعية الموت وذلك يتمظهر في«إذا».

فتكرار المد في هذا المقطع إنزياح عن الكلام العادي؛لأن الكلام العادي يخلو من التكرار وهذا يسمى الانزياح الصوتي الدلالي الذي يجعل النص يستوعب كثيرا من المعاني الجميلة.

النتائج:

١ - نهج البلاغة يعد من النصوص الإسلامية السامية ويستوعب كثيرا من الأسلوبيات التي أحدثت في العشرينيات.

٢ - إن كلام الإمام علي عليه السلام دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق وما يدل علي ذلك هو التطبيقات التي يقوم بها الباحثون ومثال ذلك أسلوبية الانزياح الذي احتوى نهج البلاغة على كثير من نماذجها.

---

١ . خ١٥٦/٥٢.
٢ . خ١٥٦/٥٢.
٣ . خ١٥٧/٥٢.
٤ . خ٣٠٦/١٣٢.

٣ - الانزياح بأنواعه من الاستبدالي والتركيبي والصوتي يتمثل تماماً في نهج البلاغة وهذا جعل النص يحتوي على بنيات عميقة متكاثفة.
٤ - نهج البلاغة وهو العقد الفريد الذي يتلألأ بين النصوص تصدّر عن صدر كان ساحة واسعة من العلم و المعرفة ومن العلوم الشاملة التي لابد أن يطلع عليها هي التي مهدّت أرضية خصبة للنموالإيحائي، فخطب نهج البلاغة تقترب من الإعجاز بل هي الإعجاز حقاً لا غرو فيه؛ إذ منزلة الخطيب وهوعلي بن أبي طالب من الرسول بمنزلة هارون من موسى كما أن نهج البلاغة هو أخو القرآن.
٥ - إن الدنيا وحقيقتها تتجلى لنا بأدق شكل وأحسن صورة في هذا التحليل الإنزياحي.
٦ - هذه الدراسة الموجزة نافذة أمام من أراد الولوج في محيط هذا البحر الذي لا يساجل ولا يخلو من اللآلي الحقة التي تكمن فيه.

قائمة المصادر والمراجع

١.القرآن الكريم
٢.نهج البلاغة (شرح: محمد عبده)
٣.أبو العدوس، يوسف، (٢٠١٠م)، التشبيه والاستعارة من منظور مستأنف، الطبعة الثالثة، عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع .
٤.الجنابي، أحمد نصيف، (٢٠١٠م)، البنية والأسلوب في التراكيب القرآنية وقضية الإعجاز مقاربة أسلوبية لسانية، الطبعة الأولى، عمان:داركنوز المعرفة العامية للنشر والتوزيع .
٥.سلوم، تامر، (١٩٩٦)،"الانزياح الصوتي الشعري"، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد:١٢المأخوذ من الموقع:noormags .
٦.محمد ويس، أحمد، (٢٠٠٥)، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة الجامعية.
٧.ميرغني، هاشم، (٢٠٠٩)،"أسلوبية الإنزياح ودورها في التحليل النصي: رواية "عصافير آخر أيام الخريف نموذجا"، مجلة العلوم والثقافة، الرقم الخامس المأخوذ من الموقع: .http//www.sustech.edv١s stsff.pvb١icarions/٢٠/٠٠٦/٢/٢٢٤٠٠٥٦٩
المصادر والمراجع المساعدة
١.أنصاريان، علي، (١٣٦٢ش)، الدليل على موضوعات نهج البلاغة، تهران: انتشارات اميركبير.
٢.إبن أبي الحديد، (٢٠٠٧م)، شرح نهج البلاغة (تقديم:محمد إبراهيم)، بغداد: دارالكتاب العربي.
٣.إبن ميثم البحراني، (لا تا)، شرح نهج البلاغة، تهران: چاپ دانشگاه.
٤. البحيري، أسامة، (٢٠٠٩)، البنية المتحولة في البلاغة العربية، الطبعة الأولى،كفرشيخ: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع .
٥.جرداق، جورج، (١٣٩٥ه)، روائع نهج البلاغة، بيروت، القاهرة: دارالشروق.
٦.خوئي، حبيب الله، (١٣٥٢ه)، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، تبريز: مطبعة عنيمة .
٧. الخويسكي، زينكامل، (٢٠٠٩)، في الأسلوبيات، الأزاراريطة: دارالمعرفة الجامعية.
٨.شوشتري، محمد تقي، (١٣٧٦ش)، بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، تهران: اميركبير.
٩. الصابوني، الشيخ محمدعلي (٢٠٠٦)، الإبداع البياني في القرآن العظيم والأمثال والتشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية مع الإمتاع بروائع الإبداع، الطبعة: الأولى، بيروت: شركة أبناء الشريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع المكتبة العصرية.
١٠. علوان، سلمان محمد، (٢٠٠٨م)، الإيقاع في شعر الحداثة، ط:١، الإسكندرية العامرية.
١١. عياشي، المنذر، (٢٠٠٩)، الأسلوبية وتحليل الخطاب، الطبعة الأولى، دمشق: مركز الإنماء الحضاري، دارالمحبة- دارالآية .

١٢.قطب راوندي، سعيد بن هبة الله (١٤٠٦ه)، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، قم: مكتبة آية الله المرعشي النجفي.
١٣.مغنية، محمدجواد، (١٩٧٢م)، في ظلال نهج البلاغة، بيروت: دارالعلم للملايين.
١٤.وغليسي، يوسف، (٢٠٠٨)، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الطبعة الأولى، الجزائر: منشورات الاختلاف، وبيروت: الدار العربية للعلوم وناشرون .
١٥.هنداوي، عبد الحميد أحمد يوسف، (٢٠٠٨م)، الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، بيروت: شركة أبناء الشريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، المكتبة العصرية.

اثر نهج البلاغة في المؤلفات الأندلسية - العقد الفريد إنموذجاً

الاستاذ المساعد الدكتور: حسين لفته حافظ (جامعة الكوفة - مركز دراسات الكوفة)

المقدمة:

كان لشخصية الإمام علي (عليه السلام) تأثير قوى وحضور واسع في المؤلفات التي جاءت بعده، ولم يقتصر تأثيرها على المؤلفات المشرقية وخاصة تلك المؤلفات التي اهتمت بالبيان والخطابة والبلاغة، واذكر منها كتاب البيان والتبين للجاحظ وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وكتاب نقد النثر لابن وهب الكاتب، فضلا عن الرسائل البيانية التي تركها بعض المؤلفين أمثال الرسالة العذراء لابن المدبر وغيرها من الرسائل، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد إنما امتد تأثير الإمام علي بشخصيته الفذة وبيانه الرائع على المؤلفات المشرقية, إنما امتد الى المؤلفات التي تركها كبار العلماء من بلاد الأندلس، واخص بالذكر ابن عبد ربه الأندلسي صاحب كتاب العقد الفريد، فقد لفت انتباهي تأثر هذا العالم الفقيه بشخصية الإمام علي كثيرا، وانعكس هذا التأثر بما تركه في مؤلفه السالف الذكر، وبدا هذا التأثير واضحا فيما يقتبسه من كلام بليغ للإمام علي لغرض الاستشهاد به في مواضع كثيرة جدا، وفي ابواب متعددة ومتنوعة، فقد كان منهج الرجل انه يأتي بكلام الإمام علي (عليه السلام) بعد كلام الله جل شانه وكلام نبيه المصطفى صلى الله عليه واله وسلم، مما يعطينا تصورا واضحا عن منزله هذا الكلام ومدى تأثيره في المؤلف ويكاد يكون هذا الأمر منهجا الزم المؤلف ابن عبد ربّه نفسه به، اما عن المواضع التي يرد فيها الاستشهاد فهي كثيرة ومتنوعة.

منها مايرد في فضيلة العلم اذ قال فيه: حَدَّثنا أيوب بن سُليمان قال حَدَّثنا عامر بن مُعاوية عن أحمد بن عِمْران الأخنس عن الوليد بن صالح الهاشميّ عن عبد الله بن عبد الرحمن الكُوفي عن أبي مِخْنف عن كُميل النَّخعيّ، قال: أخذ بيدي عليٌّ بن أبي طالب كَرَّم الله وجهه، فخرج بي إلى ناحية الجبَّانة، فلما أسحر تنفّس الصُّعداء، ثم قال: يا كُميل، إنّ هذه القلوب أوْعِيَة، فخيْرها أوعاها، فاحفظ عنّي ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم ربَّاني، ومتعلّم على سبيل نَجَاة، وهَمَج رَعَاع، أتْباع كلّ ناعق، مع كلّ ريح يَميلون، لم يَسْتضيئوا بنُور العِلْم، ولم يَلْجأوا إلى رُكْن وَثيق. الخ الخطبة[1]

اما عن منهج الدراسة فقد اعتمدت فيه المنهج التحليلي وذلك باحصاء مواضع استشهاد المؤلف بكلام الإمام علي (عليه السلام) ومن ثم دراستها وتبين مكامن التأثير في هذا المؤلف الكبير،اما عن مصادر الدراسة فقد تنوعت هذه المصادر لتشمل كتب التاريخ والأدب فضلا عن كتب الشروح.

الدراسة:

أولا: منهج ابن عبد ربة في التعامل مع أحاديث الإمام علي (عليه السلام) تباين منهج ابن عبد ربه في التعامل مع النصوص التي تعود للإمام علي عليه واختلفت طريقة توظيفه لهذه النصوص، الا ان الأغلب الأعم انه كان يورد كلام الله أولا ومن ثم كلام نبيه ليستشهد بعدها الى بكلام الإمام، ومثال ذلك حديثه عن الغلو في الدين في الباب الذي افرده له: «قال النبي (ص): إن اللهّ بَعثني بالْحَنِيفيَّة السَّمْحة ولم يبعثني بالرهبْانية المُبْتدعة، سُنَّتي الصلاة والنوم، والإفطار والصَّوم، فمن رَغِب عن سُنتي فليس مني.

وقال (ص): إنّ هذا الدِّين مَتِين فأوْغل فيه برفق، فإنّ المنبَتَ لا أرْضاً قَطع ولا ظَهْراً أبقى.

---

١ . ينظر العقد الفريد: ٢،٢٢٠.

وقال عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه): «خَير هذه الأمَّة هذا النَّمط الأوْسط، يَرْجع إليهم الغالي ويَلحق بهم التّالي.»[1]

وفي أحيان أخرى كان ابن عبد ربه يقدم قول الإمام على غيره معززا كلامه بنصوص من القران الكريم، انظر الى قوله في فضل العشيرة:
قال عليّ بنُ أبي طالب (رضي الله عنه): عشيرةُ الرجل خيرٌ للرجل من الرجل للعَشِيرة، إن كَفَّ عنهم يداً واحدة كَفُّوا عنه أيدياً كثيرة، مع مودَّتهم وحِفَاظهم ونُصْرتهم. إنّ الرجل لَيَغْضَب للرجل لا يَعْرفه إلا بنسَبه، وسأتْلُو عليكم في ذلك آياتٍ من كِتاب الله «تعالى»، قال اللهّ عزّ وجلّ فيما حكاه عن لُوط: «لَوْ أنَّ لِي بِكُم قُوّة أوْ آوِى إلى رُكْن شَدِيد»! يعني العشيرة، ولم يكن للوط عَشيرة: فوالذي نفسي بيده ما بعث الله نبيًّا من بعده إلا في ثَرْوَة من قومه، ومَنعة من عَشِيرته، ثم ذكر شُعيباً إذ قال له قومُه: «إنَّا لَنَرَاكَ فِينا ضعِيفاً ولَوْلارَهطك لَرَجَمْناكَ»، وكان مَكْفوفاً، واللّه ما هابُوا «الله ولا هابوا» إلا عشيرتَه[2].

اما في مواضع أخرى فكان كلام الإمام علي يأتي مسبوقا بكلام بعض الحكماء المشهورين، ولعل السبب وراء ذلك يعود الى ان بعض الحكماء قد سبقوا الإمام من حيث المدة الزمنية ومثال ذلك حديثه عن السؤال اذ جاء فيه:
«قال النبي (ص): لأنْ يأخذ أحدُكم أحْبُلَه فَيَحْتطب بها على ظَهره أهونُ عليه من أن يَأتيَ رجلاً أعطاهُ اللهّ من فَضْله فيسأله، أعْطاه أو منعه. وقال: مَن فَتح علِى نفسه باباً من السَّؤال فَتح الله عليه سَبْعين باباً من الفَقر. وقال أكثم بن صَيْفِيّ: كلّ سُؤال وإن قَلَّ أكثرُ من كلّ نَوَال وإن جَلَّ. ورَأى عليُّ بن أبي طالب كَرَّم الله وجهَه رجلا يَسأل بعَرفات فقَنَّعَه بالسَّوط، وقال: وَيلك! أفي مِثل هذا اليوم تَسأل أحداً غيرَ اللّه؟»[3].

ومن الجدير بالذكر ان صاحب العقد الفريد تأثر كثيرا بكلام الإمام علي (عليه السلام) حتى انه في أحيان كان يورد كلام الإمام علي دون ان يعلق عليه إيمانا منه ان النص يتكلم عن نفسه، ويشير الى مراد صاحبه،خاصة وان المؤلف كان يضع العنوان الرئيسي ليأتي بعد ذلك تعليقه على هذا العنوان، وقد جاء هذا في حديثه عن مواعظ الحكماء:
«قال عليّ بن أبي طالب كرّم الله وَجْهَه: أُوصيكم بخَمس لو ضرَبتم عليها آباط الإبل لكان قليلاً: لا يَرْجُوَن أحدكم إلا ربّه، ولا يخافنَ إلا ذنبه، ولا يستحي إذا سُئل عما لا يَعلم أن يقول: لا أعلم. وإذا لم يعلم الشيء أن يتعلّمه واعلموا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطع الرأس ذهب الجسد. وقال أيضاً: من أراد الغِنَى بغير مال، والكثرةَ بلا عَشية، فليتحوَّل من ذُلِّ المَعصية إلى عزِّ الطاعة » أبى الله إلا أن يُذِلّ مَن عصاه.
وقال الحسنُ: مَن خاف اللهّ أخاف اللهّ منه كل شيء، ومن خاف الناسَ أخافه الله من كل شيء.[4]،

ومما يلفت النظر ان ابن عبد ربه في حديثه عن الانبياء الذين سبقوا النبي صلى الله عليه واله وسلم كالنبي عيسى (عليه السلام) ايضا كان يورد قول الإمام علي (عليه السلام) لاحظ قوله في التوبة: «مرَّ المسيح «بن مَريْم» (عليه السلام) بقَوْم من بني إسرائيل يَبكون، فقال لهم:ما يُبكيكم؟ قالوا: نَبْكي لذنوبنا؟ قال: اترُكوها تُغْفَر لكم. وقال عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه:عجباً لمَن يَهْلك ومعه النجاةُ! قيل له: وما هي؟ قال: التوبة والاستغفار.»[5]

---

١ . العقد الفريد:٣،٦٧.
٢ . العقد الفريد: ٢،١٩٨.
٣ . المصدر نفسه ، وينظر النثر الأندلسي في عصر الطوائف: ١٤٥.
٤ . العقد الفريد:٥، ١٢٣.وينظر نهج البلاغة:١، ٢٠٦
٥ . المصدر نفسه .

يلاحظ القاريء لكلام الامام علي انه يمتاز بميزتين هما البلاغة والشمول، ويكفي لكل واحدة من هاتين الميزتين فخرا لكلام الامام وشرفا،وهو الذي ادى الى ان يقترب كلامه من حد الإعجاز.

ثانيا: تأثر الكُتّاب بأقوال الإمام علي (عليه السلام):

تنبه ابن عبد ربه الى مسالة مهمة، تتعلق بتأثر الكتاب سواء كانوا شعراء ام أصحاب البيان بكلام الإمام علي لأنهم وجدوا في هذا الكلام أسلوبا بارعا في الأداء وجودة عاليه ومضمونا قويا مما دفعهم الى محاكاة هذا الكلام والتأثر به في كتابتهم الفنية، واستطاع ابن عبد ربه بفطنته ان يتنبه الى هذه المسالة ومن الأمثلة على ذلك:حديثه عن المبادرة بالعمل الصالح، «ومن قولنا في هذا المعنى:

بادرْ إلى التَّوْبة الخَلْصَاء مُجْتهداً والموتُ وَيْحك لم يَمْدُد إليك يَدَا
وأرقبْ من الله وَعْداً لَيْسَ يُخْلِفُه لا بُدَّ لله من إنجاز ما وَعَدَا

وقال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) لأصحابه: فيم أنتم؟ قالوا: نَرْجُو ونَخاف؟ قال: مَن رجا شيئاً طَلَبَه، ومن خافَ شيئاً هَرَب منه.

وقال الشاعر:

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلم تَسْلُك مَسَالكها إنّ السَّفِينَةَ لا تَجْرِى عَلَى اليَبس»[1]

ومثاله ايضا في حديثه عن القناعة:

«وقال عليٌّ بنُ أبي طالب (رضي الله عنه): الرِّزق رزْقان: فرزْقٌ تطلبه ورزْقٌ يطلبك، فإن لم تأته أتاك.

وقال حبيب:

فالرِّزق لا تَكْمَدْ عليه فإنه يأتي ولم تَبْعث إليه رسولا

وفي كتاب للهند: لا ينبغي للمُلتمس أن يَلْتمس من العيش إلا الكَفَافَ الذي به يَدْفع الحاجة عن نَفْسه، وما سِوىَ ذلك إنما هو زيادة في تَعَبه وغَمِّه.»[2] غفلة ونسْياناً كما تَسْلو البهائم. وهذا الكِلامُ لعليّ ابن أبي طالب كرّم الله وجهَه يُعزِّي به الأشْعَثَ بن قيْس في ابن له، ومنه أخذه ابن جُرَيْج. وقد ذكَرَه حبيب في شعره فقال:

وقال عليّ في التعازي لأشْعَثٍ وخاف عليه بعضَ تلك المآثِم
أتَصْبرُ لِلْبلْوَى عَزَاءً وحِسْبَةً فتُؤْجَرَ أمْ تَسْلُو سلُوَّ البهائم

أتى عليٌّ أبي طالب (كَرَّم الله وجهه) لأشْعَث يُعَزِّيه عن ابنه، فقال: إن تَحْزَنْ فقد آستحقَّتْ ذلك مِنك الرّحم، وإن تَصْبر فإن في الله خَلَفاً من كلِّ هالك، مع أنّك إن صَبَرت جرَى عليك القَدَر وأنت مَأجُور، وإن جَزِعْت جَرَى عليك القَدَر وأنت آثِم.»[3]

ولعل المؤلف انتبه الى مسالة تأثر الكتاب بشخصية الإمام فكان هذا التأثر على شكل قصائد نقل ابن عبد ربه كثيرا منها، ومن ذلك ما أورده من أبيات للسيد الحميري:

«قال السيّد الحِميريّ يَرْثي عليَّ بن أبي طالب كَرَّم الله وَجْهه ويَذكر يومَ صِفِّين:

إنّي أدين بما دان الوَصـــــي به وشاركتْ كفُه كَفّي بصِفّيـــنا
في سفْكِ ما سَفكَتْ فيها إذا احتُضِروا وأبرز اللّهُ للقِسطِ المَوازيناض
تلك الدِّماء معاً يا ربّ في عُنقـــي ثم اسْقِني مثلَها آمينَ آمـــينا
آمين من مِثْلهم في مِثْل حالِهـــمُ في فِئْيَة هاجَرُوا للّهّ ساريـــنا
لَيْسُوا يريدون غيرَ اللّهّ رَبِّهـــم نعم المُراد تَوَخَّاه المُريـــدونَا»[4]

---

١ . العقد الفريد: ٦، ٥٣.
٢ . المصدر نفسه .
٣ . العقد الفريد: ٤، ٧٣.نهج البلاغة:١، ٢١٨.
٤ . العقد الفريد:٢، ١٦٣ ، والأبيات في الديوان: ٥٦.

وأبيات الشاعر هنا تكشف عن فضل ومنزلة الامام علي في عيون الشعراء والأدباء تلك المنزلة التي يحاول المؤلف ان ينبه اليها، بغية التاثير في المتلقي ودفعه الى متابعة منزلتها الشريفة عند الله ورسوله.

ثالثا: بلاغة الإمام (عليه السلام) وأثرها في العقد الفريد:

أشار ابن عبد ربه الى إبداع الإمام علي (عليه السلام) وخاصة في مجال البلاغة، والتفت ابن عبد ربه الى المنزلة الشعرية التي يتمتع بها الإمام تلك المنزلة التي يرى فيها بعض الباحثين إنّ الدين الإسلامي لم يقف موقف الضّد عن قول الشعر، ولم ينه عنه، بل شجّع عليه كما في بعض روايات أهل البيت عليهم السلام، نجد أن لا مانع من صدور الشعر منهم عليهم السلام ولكن الكلام في صحة نسبة بعض الأبيات إليهم، فالدّيوان المشهور للإمام أمير المؤمنينu منسوب إليه، ومقتضى شهرة هذا الدّيوان ؛ هو عدم نفيه عنه بجملته.[1]

ومن أروع ماقدمه ابن عبد ربه في هذا الباب انه اختار أحاديث للإمام على تحت باب التوقيعات وهو فن ازدهر في ذلك العصر لما يمتاز به من بلاغة نادرة تتمثل في توظيف مختلف الفنون البلاغية حتى ان بعض هذا الكلام يشبه المثل والنادرة، حتى قامت حوله دراسات حاولت ان تظهر القيمة البلاغية التي تشتمل عليها، ومن ذلك ماأورده ابن عبد ربه تحت عنوان: توقيعات علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه):

«وقّع إلى طلحة بن عُبيد اللّه: في بيته يُؤتىَ الحَكَم. ووقّع في كتاب جاءه من الحسن بن عليّ (رضي الله عنه)ما: رأيُ الشَّيخ خير من مَشهد الغلام. ووقّع في كتاب لسَلْمان الفارسيّ، وكان سأله كيف يُحاسَب الناسُ يوم القيامة: يَحاسَبون كما يُرْزَقون. ووقّع في كتاب الحُصين بن المُنذر إله يذكر أنّ السيف قد أكثر في ربيعة: بقيّة السِّيف أنمى عددا.

وفي كتاب جاءه من الأشتر النَّخَعي فيه بعضً ما يَكره: مَن لك بأخيك كله؟ وفي كتاب صَعصعة ابن صَوْحان يسأله في شيء: قيمةُ كلّ امرىء ما يُحسن.»[2]

ومن تلك الصور التي تشير الى تمكن الامام على في فن القول الأدبي الأبيات الشعرية التي يحرص المؤلف على إيرادها في مواضع مختلفة نحو قوله: «وكان علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) يخرج كل يوم بصفين حتى يقف بين الصفين ويقول:

يوم لا يقدر لا أرهبه ومن المقدور لا ينجي الحذر»[3]

فضلا عن هذا يورد ابن عبد ربه أبيتا أخرى للإمام علي وذلك في قوله:

«كتب عقِيلُ بن أبي طالب إلى أخيه عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) يسأله عن حاله، فكتب إليه عليٌّ (رضي الله عنه):

فإنْ تَسألِينيّ كيفَ أنتَ فإنني **جَليدٌ على عَض الزَّمان صَلِيبُ**

عَزيزٌ عليَّ أنْ تُرى بي كآبةٌ فيفرح واشٍ أو يُسَاء حَبيـــب»[4]

فالإمام يتحدث عن التسامح مع النعمة والتذلل مع المصيبة، إيمانا بالله سبحانه وتعالى، لانه يريد من الإنسان ان يتحرر من قيود المادة وأغلالها، لذا يركز على التقوى التي تهب النفس القوة والنشاط، وتصونها من الانحراف والشطط، وتدفع بها الى ملكوت الله حيث السعادة الأبدية.

---

١ . ينظر شعر اهل البيت عليهم السلام: ٢٩٨-٢٩٩ ، وتاريخ الأدب العربي: ١، ١٧٥-١٧٩.
٢ . العقد الفريد: ٣، ١٢٣ ، وينظر الشيعة في الأندلس: ١٣ وما بعدها .
٣ . ينظر العقد الفريد:٤، ١٦٧، نهج البلاغة:٣، ١٨٠-١٨١.
٤ . المصدر نفسه .

ومما يعزز إيمان المؤلف بمدى قدرة الامام علي على إنتاج الكلام الفني المؤثر على الرغم من شخصيته الفقهيه العظيمة، والتي لا يرى ابن عبد ربه انها تعارض قول الشعر انه افرد قسما في عقده سماه (الشعراء الفقهاء المبرزين):
وكان عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) إذا برز إلى القتال أنشد:

أيّ يومي من الموتِ أفر **يومَ لا يُقدر أم يوم قُدر**

يومَ لا يُقدر لا أرهبه **ومِن المقدور لا يَنْجو الحَذِر**

وكان إذا سار بأرض الكوفة يرتجز ويقول:

يا حبذا السير بأرض الكُوفه أرضٍ سواءٍ سَهْلة مَعروفه[1]

ومن الأبيات الأخرى التي انفرد ابن عبد ربه بنسبتها الى الإمام قوله:

فَحقَّ البُكاءُ لَهُم أن يَطيبَا
١ – أولَئِكَ إخوانِيَ الذاهِبونَ ****
وَفارَقتُ بَعدَ حَبيبٍ حَبيبَا[2]

٢ - رُزِئتُ صَبيباً عَلى فاقَةٍ****

ومن الجدير بالذكر ان بلاغة الامام علي (عليه السلام) اثرت كثيرا في ابن عبد ربه مما دفعه ذلك الى ان يفرد عنوانا خاصا سماه (فصول من البلاغة) اكثر ما أورده فيه أحاديث للامام علي تنطوي هذه الأحاديث على بلاغة عاليه يشهد لها كل من تأملها بدقة وتمعن، وتمتاز مثل هذه الأحاديث بالإيجاز، فنجد ألفاظا قليلة ومعاني كثيرة، ومن ذلك قوله:
«فمن أهل هذه الصناعة: عليّ بن أبي طالب، كرم الله وجهه، وكان مع شرفه ونُبله وقَرابته من رسول اللّه (ص)، يكتب الوحي، ثم أفضت إليه الخلافة بعد الكتابة »[3]

لاشك أن عليا كان مؤهلا تأهيلا خاصا ومعدا اعدادا ثقافيا من الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم إذ يقول صلى الله عليه وآله وسلم:(أنا مدينة العلم وعلي بابها)، وقوله:(أنت مني بمنزلة هارون من موسى)، وقوله:(علي أقضاكم).
ونقل عنه ايضا: «وقال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (صلواتُ الله عليه): لا مالَ أعودُ من عقل، ولا فَقر أضرُّ من جَهل.»[4]

كان الامام بطبيعته وتركيبه النفسي مجبولا على الزهد والتقوى والاعراض عن الدنيا ومواساة الفقراء ليكون النموذج الأسمى للحاكم العادل .
وقوله أيضا: «وقال عليُّ بنُ أبي طالب (رضي الله عنه): قِيمة كلِّ إنسان ما يحسن.»[5].

إذن لم يجد الامام (عليه السلام) محيصا من استفراغ جميع قدراته البيانية وبذل امكاناته الخطابية كافة من أجل العودة بالناس إلى الدين بشتى الاساليب البلاغية فاستغل جميع الفرص والمناسبات للتذكير والوعظ والإرشاد والاحتجاج والرد والمجابهة،ولاسيما أن المسلمين ابتعدوا بمواقعهم عن جوهر الاسلام.
وقد رأى أكثر الدارسين لنهج البلاغة أنه أثر إنساني خالد لا يحده مكان، ولا تنتهي الحاجة إليه في زمان، لانه من الآثار الإنسانية التي (لم توضع لفريق دون فريق، ولم يراع فيها شعب دون

---

١ . العقد الفريد: ٢، ٤٦.
٢ . العقد الفريد: ٤، ٧٧. نسبهما إلى أمير المؤمنينu: الشيخ الصدوق(ت٣٨١هـ) ، والماوردي (ت٤٥٠هـ) ، ، والنيسابوري(ت٥٠٨هـ) ، والمتقي الهندي(ت٩٧٥هـ)
ونسبهما أبو نعيم الأصفهاني(ت٤٣٠هـ) إلى محمد بن إدريس الشافعي(ت٢٠٤هـ) وهما في أشعاره .ينظر شعر الشافعي ، ٢٢٩.
٣ . المصدر نفسه .ونهج البلاغة ٣، ٩.
٤ . العقد الفريد: ٤، ٥٦ وينظر العمدة لابن رشيق القيرواني: ١، ٦٧., وشرح ابن ابي الحديد:٧، ١٢٥.
٥ . العقد الفريد: ١، ٢٨٧ وينظر في الأسلوب الأدبي: ١٥وما بعدها .

شعب، وإنما خوطب بها الإنسان أني وجد وكان. ولأنها تلامس كل قلب، وتضمد كل جرح، وتكفكف كل دمعة، كانت ملكا أجمعين، وكانت خالدة عند الناس أجمعين)[1] لاحظ ابن عبد ربه

ان الإمام علي (عليه السلام) كان خطيبا مفوَّ ها لا يُشقُّ غباره، لذلك راح ينقل من خطبه ومنها قوله: «من كلامه رضوان الله عليه: قال ابن عباس: لما فرغ علي بن أبي طالب من وقعة الجمل، دعا بأجرتين فعلاهما، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أنصار المرأة، وأصحابَ البهيمة، رَغا فَجِئْتم، وعُقِر فانهزمتم.دخلتُ شرَ بلاد، أبعدها من السماء، بها يَغيض كل ماء، ولها شر أسماء، هي البصرة والبُصَيرة والمُؤتفكة وتَدْمر أين ابن عباس؟ فدُعيت، فقال لي: مُرْ هذه المرأة فَلترجع إلى بيتها الذي أُمرت أن تَقَر فيه.»[2]

وتكشف هذه الخطبة عن قدرة الإمام علي (عليه السلام) على التأثير في نفوس سامعيه حتى انه كان يخلب الباب سامعيه ويؤثر في نفوسهم تأثيرا عميقا، فخطب الإمام تمتاز بأنها فصيحة الألفاظ قصيرة الجمل، كثيرة المجاز والطباق عامرة بالاستعارات والتشابيه، على أنها بريئة كل البراءة من التعمل والتكلف، وذلك هو فيض العبقرية الذي يقصر عنه النقد، ولا يحيط به التحليل، فضلا عن هذا امتازت خطب الإمام بأنها كانت تحمل طابع القران الكريم.
ومن الجدير بالذكر ان قوة المعاني والألفاظ، وقوة الحجة والبرهان تبرز في خطب الامام (عليه السلام)[3]، وهنا يتحدث الخطيب الى إرادة سامعيه لإثارة عزائمهم واستنهاض هممهم،

ومن ابرز سماته التكرار، وضرب الأمثال، واختيار الكلمات الجزلة ذات الرنين الموسيقي العذب.

رابعا :اهم القيم التي أثرت في الفكر الأندلسي:

أ- شخصيةالإمام علي (عليه السلام):

اثرت شخصية الامام في المؤلفات الاندلسية،وقد فصل ابن عبد ربه الحديث عن شخصية الامام علي (عليه السلام) في باب افرده لهذا الشأن سماه: فضائل علي بن ابي طالب (كرم الله وجهه): قال فيه: «أسلم علي وهو ابن خمسَ عشرةَ سنة، وهو أول من شَهد أن لا إله إلا اللهّ وأن محمداً رسولُ الله.
وقال النبي (عليه الصلاة والسلام) مَن كنتُ مولاه فعلي مولاه. اللهم وال مَن والاه وعادِ مَن عاداه. وقال له النبي (ص): أما تَرضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غيرَ أنه لا نبيّ بعدي؟ وبهذا الحديث سَمَّت الشيعةُ علي بن أبي طالب الوصيِّ، وأولوا فيه أنه استخلفه على أمته إذ جعله منه بمنزلة هارون من موسى؛ لأنّ هارون كان خليفة موسى على قومه إذا غاب عنهم.
وقال السيد الحِمْيري رحمه الله تعالى:

إني أدينُ بما دانَ الوَصيَّ به وشاركتْ كفّه كَفّيّ بصفّينا

وجمع النبي (ص) فاطمة وعليا والحسَنَ والحُسين فألقى عليهم كساءَه وضمهم إلى نفسه ثم تلا هذه الآية: إنما يُريد اللّهُ ليُذهبَ عنكم الرجسَ أهلَ البَيت ويُطهَركم تَطْهيرا. فتأولت الشيعةُ الرجس هاهنا بالخَوض في غمرة الدُّنيا وكُدورتها. وقال النبيّ (ص) يومَ خَيبر: لأعطين الراية غداً رجلاً يُحب الله ورسولَه، ويُحبه
الله ورسولُه، لا يُمسي حتى يَفتح الله له. فدعا عليًّا، وكان أرمدَ، فَتفَل في عينيه، وقال:
اللهم. قِه داءَ الحر والبرد. فكان يلبس كُسوة الصيف في الشتاء وكُسوة الشتاء في الصيف ولا يضره[4].

ب- الصبر والإقدام في الحرب:

---

١ . دراسات في نهج البلاغة: ٥.
٢ . العقد الفريد: ٢، ١٨٧ وينظر البيان والتبيين:٢، ٣٤-٤٤.ونهج البلاغة:٣، ٢٥٣.
٣ . ينظر عصر القران: ٤٣-٤٤.
٤ . العقد الفريد: ٤، ١٤٣ وينظر: عبقرية الامام علي:٥ ومابعدها .

اورد المؤلف كلام الامام في هذا الباب: «وقال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه): من أكثر النظر في العواقب، لم يشجع.»

ج- المشورة:

«وكان علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) يقول: رأي الشيخ خير من مشهد الغلام.»

د-العطية قبل السؤال:

«وقال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) لأصحابه: من كانت له إلي منكم حاجة فليرفعها»[1]

هـ -الحض على طلب العلم:

وقال عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه): قيمة كلِّ إنسان ما يُحْسن فضلا عن هذا عزز ابن عبد ربه موقف الامام من طلب العلم بقوله:

أخذ بيدي عليٌّ بن أبي طالب كَرَّم الله وجهه، فخرج بي إلى ناحية الجبَّانة، فلما أسحر تنفّس الصُّعداء، ثم قال: يا كُميل، إنّ هذه القلوب أوْعِيَة، فخيْرها أوعاها، فاحفظ عنِّي ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم ربَّاني، ومتعلِّم على سبيل نَجَاة، وهَمَج رَعَاع، أتباع كلّ ناعق، مع كلِّ ريح يَميلون، لم يَسْتضيئوا بنُور العِلْم، ولم يَلْجأوا إلى رُكْن وَثيق.[2]

نلاحظ ان الألفاظ يتجلى فيها أنّ الإمام ينتقيها سجية، فيحل كل لفظ في محله وكما هو واضح في نصوصه الشريفة.

و- تبجيل العلماء وتعظيمهم: اورد المؤلف قول الامام:

«وقال عليٌّ بن أبي طالب رضوان الله عليه: من حق العالِم عليكَ إذا أتيتَه أن تُسَلِّم عليه خاصَّة، وعلى القوم عامَّة، وتَجْلس قُدَامه، ولا تشِر بيدك، ولا تَغْمِز بعَيْنِك، ولا تَقُل: قال فلان خلافَ قولك، ولا تأخذ بثَوْبه، ولا تُلحَّ عليه في السؤال.»[3]

ك- معاتبة الصديق واستبقاء مودته:

اورد فيه ابن عبد ربه قول الحكماء ليتبعه بقول الإمام: «قالت الحكماء: مما يجب للصَّديق على الصديق الإغْضاء عن زلاّته، والتَّجاوز عن سيّآته، فإن رجع وأعتب وإلاّ عاتبتَه بلا إكثار، فإنّ كثرَة العتاب مَدْرجة للقَطِيعة.

وقال عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه): لا تَقْطع أخاك على ارتياب، ولا تهجره دون استِعْتاب.[4]

ل- باب في السلام والاذن:

هنا يورد المؤلف قول النبي الاكرم (صلى الله عليه واله وسلم) ومن ثم قول الامام علي (عليه السلام) نحو قوله:

وقال النبي (ص): الاستئذان ثلاثة، فإن أُذن لك وإلاّ فارجع.

وقال عليٌّ بن أبي طالب (رضى الله عنه): الأولى إذْن، والثانية مؤامرة، والثالثة عزيمة، إمّا أن يأذنوا وإمّا أن يردّوا.[5]

م- المواعظ والزهد:

وهو باب واسع اكثر ابن عبد ربه الحديث فيه عن اقوال الامام علي (عليه السلام) ومنها:

«وقال عبدُ الله بن عبّاس. ما انتفعَتُ بكلام أحدٍ بعدَ رسول الله (ص) ما انتفعتُ بكلامٍ كتبَه إليّ علي بن أبي طالب (رضي الله عنه). كَتب إليّ: أمّا بعد، فإن المرءَ يَسره إدراكُ ما لم يَكُن ليَفوتَه، ويسوءُه فَوْتُ ما لم يكن لِيُدْركه، فَلْيَكن سرورُك بما نِلْتَ من أمر آخرتك، ولْيَكن أسفُك

---

١ . العقد: ٣، ٢٨ وينظر النثر الاندلسي:٩٦.

٢ . المصدر نفسه وينظر: حركة التاريخ عند الامام علي (عليه السلام):٢١ومابعدها .

٣ . العقد الفريد: ٤، ١٣٦.وينظر غريب نهج البلاغة: ٦٧ ، ٦٩ ـ ٧٥ .

٤ . المصدر نفسه، وينظر: خصائص أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام):٢٣ ومابعدها.

٥ . العقد الفريد: ٥، ٣٥ وينظر الامام علي في ملاحم نهج البلاغة:٢٥ ومابعدها .

على ما فاتَك منها. وما نِلْتَ من أمر دُنياك فلا تكن به فَرِحاً، وما فاتك منها فلا تَأسَ عليه جَزَعا، وليكن هَمُّك ما بعد الموت.»[1]

ومن الباحثين من يرى إنّ هذا الإرث إذا قيس بالموروث الأدبي كان له ثمنه الذي لا يُضاهى به شيء ؛ لذا كان ضرورياً أنْ يُستعان به على تفسير القرآن، واستجلاء غوامضه وتوضيح مقاصده ؛ وذلك لأنّ صاحب نهج البلاغة كان قد تلبّس بالقرآن الكريم، وأصبحت علاقته بالقرآن وطيدة متينة، وقد جسّد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تلك العلاقة، بقوله: «عليٌّ مع القرآن، والقرآنُ مع عليٍّ لا يفترقان حتى يَردا عليَّ الحوضَ»[2]

ن- التوبة:

ويقرن المؤلف حديث الامام علي هنا مع حديث الانبياء من الامم السابقة انظر الى قوله: «مرَّ المسيح «بن مَريْم» (عليه السلام) بقَوْم من بني إسرائيل يَبكون، فقال لهم:ما يُبكيكم؟
قالوا: نَبْكي لذنوبنا؟ قال: اترُكوها تُغْفَر لكم. وقال عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه: عجباً لمَن يَهْلك ومعه النجاةُ! قيل له: وما هي؟ قال: التوبة والاستغفار.»[3]

وحديث الامام علي (عليه السلام) والذي اورده ابن عبد ربه بصفة عامة ذو خصائص تميزه من كثير من النصوص والآثار فهو جزيل العبارة قوي الأسر رائع الأسلوب بعيد عن التكلف قريب من الفهم سهل التناول،جمع في الألفاظ القليلة المعاني السائرة واكتفى بالجمل القصيرة عن الكلمات المتتابعة يعايش الذائقة الفنية عند العرب ويصافح القلوب روعة وجمالا ومفردات.
ويستطيع المتأمل لهذا الكلام انه اثر في المؤلفات الأندلسية لكونه يمتاز بالاحاطة والشمول: لأنه يعالج أغراضا شتى في العقائد وفي العبادات(الصلاة،الصوم، الزكاة،...الخ)، وشؤون الاجتماع(المعاملات، الأسرة، الآداب، السلوك، العلاقات، تنمية الحس الجماعي، محاربة الآفات الفاسدة)، وفي ضرورات الحياة (الشراب، والطعام،واللباس،)،نظم الحرب والسياسة والحكمة والمثل، والوصايا، والحكاية، والتشريع، أي في الجوانب المادية والروحية للإنسان.فضلا عن جدة الأغراض والموضوعات وتأثرها الشديد بالقران الكريم.

الخاتمة:

وبعد هذه الرحلة المتواضعة مع كتاب العقد الفريد، لغرض الوقوف على ابرز ماتركه الامام علي (عليه السلام) من بصمات واضحة على التراث الأندلسي متمثلا بالعقد كنموذج لهذا التاثير، كان لابد من تسجيل الامور الاتية:

١- لم يقتصر تاثير الامام علي مقصورا على الانتاج الفكري والادبي انما امتد ليشمل العادات الاجتماعية والتقاليد والاعراف التي نقلها المؤلف الى المجتمع الاندليسي انذاك وقد تركت اثارها فيهم.

٢- ساعدت أقوال الامام علي وحكمه البالغة ووصاياه الشريفة التي نقلها صاحب العقد الفريد الى المجتمع الأندلسي على تألق الاندلس حتى أصبحت مهد الحضارة العربية خاصة وإننا نعرف ان بلاد الاندلس في زمن العرب اصبحت موطن الفلاسفة والعلماء والشعراء ومركز الفنون والآداب.

٣- جعلت اراء ابن عبد ربه الاندلسي حول الامام علي (عليه السلام) وانتاجه المتمثل بنهج البلاغة رائدا من رواد الفكر الشيعي في الاندلس وقد تنبه الى هذه المسالة بعض الباحثين، خاصة وان هذا الرجل تشيع واظهر حبه للإمام علي (عليه السلام) وأولاده كما انه لا يخفي بغضه وسخطه على خصومه وعلى أولائك الذين آذوا أبناءه فيما بعد.

---

١ . المصدر نفسه .
٢ . ينظر ينابيع المودة: ١/ ٢٦٩ .و التقييد في نهج البلاغة:٢.
٣ . العقد الفريد:٣، ١٣٤ وينظر موسوعة الإمام على (عليه السلام): ٤١٥ومابعدها .

٤- تبين من خلال البحث كثرة حديث المؤلف عن بيان فضائل الامام علي (عليه السلام) استنادا على الأحاديث النبوية، حتى ان المؤلف كان يحاول ان يبين بلاغة الإمام علي ومدى تفوقه في هذا المجال من خلال كثرة مايورده له، خاصة وانه يملك قدرة واسعة في الصياغة الفنية.

قائمة المصادر والمراجع

القران الكريم
١- الامام علي في ملاحم نهج البلاغة، الشيخ علي عزيز الابراهيم،مكتبة السائح طرابلس،ط١, ١٩٩٦م.
٢- البيان والتبيين، أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر المؤسسة السعودية بمصر، ط٥، ١٩٨٥م.
٣- تاريخ الأدب العربي، احمد حسن الزيات، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط٢٥، (د.ت).
٤- التقييد في نهج البلاغة، دراسة نحوية،عباس اسماعيل سيلان،رسالة ماجستير,الجامعة المستنصرية،٢٠٠٦
٥- حركة التاريخ عند الإمام علي (عليه السلام)،محمد مهدي شمس الدين،المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٥م.
٦- خصائص امير المؤمنين علي بن ابي طالب،الشريف الرضي،منشورات مؤسسة الاعلمي،بيروت لبنان،ط١, ١٩٨٦م.
٧- دراسات في نهج البلاغة،محمد مهدي شمس الدين، ط٢, بيروت،١٩٧٢م.
٨- ديوان السيد الحميري،دار الكتاب العربي، د.ت.
٩- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد عبد الحميد بن محمد (ت٦٥٦هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الساقية للعلوم، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١ م.
١٠- شعر اهل البيت المعصومين (عليهم السلام)، عادل لعيبي سلمان الربيعي,رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الكوفة،٢٠١٠م.
١١- الشيعة في الأندلس، دار الكتاب العربي، بغداد، ط١, ٢٠١٠م.
١٢- عبقرية الامام علي،عباس محمود العقاد،دار الكتاب اللبناني، بيروت،ط١, ١٩٧٤م.
١٣- عصر القران،محمد مهدي البصير، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٧م.
١٤- العقد الفريد، احمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (٣٢٨هـ) تحقيق: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط٣، ١٩٨٧م
١٥- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ابن رشيق لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني ت(٤٥٤هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت – لبنان، ط٤، ١٩٧٢م
١٦- في الأسلوب الأدبي، د. علي ابو ملحم،دار ومكتبة الهلال، ط٢،١٩٩٥م.
١٧- موسوعة الامام علي (عليه السلام)،الشيخ مهدي الريشهري،ايران، د.ت.
١٨- النثر الاندلسي في عصر الطوائف، د. حازم عبدالله خضر, دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م.
١٩- ينابيع المودة، سليمان الحنفي (ت ٢٩٤هـ)، تح: سيد علي جمال، دار الأسوة، طهران، ٢٠٠١ م.

التأويل لنص نهج البلاغة في شروح ثلاث

الاستاذ المساعد : الدكتور حامد ناصر الظالمي ود. مرتضى عباس فالح

كلية التربية – جامعة البصرة (قسم اللغة العربية)

يتناول هذا البحث فكرة اختلاف التأويل بين شارحي نهج البلاغة وتعدد وجهات نظرهم حسب تعدد مدارسهم ومنطلقاتهم ومتبنياتهم فمن المعروف ان شروح نهج البلاغة تجاوزت المئة شرح وقراءة ولكننا هنا حاولنا ان نركز على المدارس الفكرية الاكثر شيوعاً والشراح الذين ينتمون لها لذا وقع اختيارنا على ابن ابي الحديد المعتزلي ت ٦٥٦ هـ ممثلاً المدرسة الاعتزالية ولابن ميثم البحراني ٦٧٩ هـ ممثلاً للمدرسة الصوفية ولحبيب الله الهاشمي الخوئي ١٣٢٤ هـ ممثلاً للمدرسة الامامية الاثني عشرية، هذا من جانب ومن آخر ان هذه الشروح تتسم بالسعة والشمولية في مادتها وتأويلها ومن جانب ثالث ومهم حسب ما نعتقدان تلك الشروح كانت قد أهديت الى امراء زمانهم أو انها كُتبت بطلب او بإشارة من اولئك الأمراء الى هؤلاء الشراح ومن الطبيعي ان تتنوع الآراء هنا فمنها تأويل عقائدي ومنها دلالي ومنها بلاغي ونحوي وغير ذلك ولكننا هنا في هذا البحث اقتصرنا على التأويل التأريخي والمقصود به تفسير الحوادث التاريخية التي جاء ذكرها في نهج البلاغة وكيف فهمها هؤلاء الشراح اذ، جاء ذكر وقائع وملاحم وشخصيات وأماكن وألفاظ تدل على واقع اجتماعي معين عاشه الامام علي فهل كان كلام الامام مقتصراً آنذاك على ما عاشه ام ان كلامه يمتد الى زمن يتجاوز زمن القول وهذا ما عرفناه في ضوء البحث وان نصوص النهج وإن أريد بها الواقعة المحددة التي جاء النص بسببها الا ان النص كذلك يتجاوز زمنه الى ما هو ابعد لذلك بقي هذا النص مدار حديث وتأويل واختلاف واتفاق ونقاش ومعارضه كل حسب ما يراه فيه وهكذا تعدد شراحه وهذا البحث نموذج لذلك اختلف الشراح الثلاثة في تأويل لفظة الضليل في قول الامام علي (عليه السلام) «لَكأني انظُر الى ضليلٍ قَد نَعَقَ بالشَّامِ وفَحَصَ برَاياتِهِ فِي ضَواحِي كُوفَان»[١] (الضليل)، اذ يرى ابن أبي الحديد: انه كثير الضلال، وهو كناية عن عبد الملك بن مروان لان هذه الصفات والإمارات فيه، أتم من غيره، لأنه قام بالشام حين دعا لنفسه، وهو معنى نعيقه وفحصت راياته بالكوفة تارة حين شخص بنفسه الى العراق وقتل مصعباً، وتارة لما استخلف الأمراء على الكوفة كبشر بن مروان أخيه وغيره حتى انتهى الأمر الى الحجاج، وهو زمان اشتداد شكيمة عبد الملك وثقل وطأته، وحينئذ صعب الأمر جدا وتفاقمت الفتن مع الخوارج وعبد الرحمن بن الأشعث فلما كمل أمر عبد الملك وهو معنى (اينع زرعه) هلك، وعقدت رايات الفتن المعضلة من بعده، كحرب أولاده مع بني المهلب، وكحروبهم مع زيد بن علي(عليه السلام)وكالفتن الكائنة بالكوفة أيام يوسف بن عمر وخالد القسري وعمر بن هبيرة وغيرهم، وما جرى من الظلم واستئصال الأموال وذهاب النفوس»[٢].

أما ابن ميثم فيرى أن الإمام (عليه السلام) لم يرد شخصاً بعينه كمعاوية مثلاً أو السفياني كما قيل، بل قد يريد به شخصاً آخر وهو الاحتمال الغالب على الظن[٣].

والمورد الآخر الذي اختلفت فيه آراء الشراح التي اشتملت على ذكر الملاحم عندما قال «تلتف القرون بالقرون»[٤] إذ ذكر ابن أبي الحديد انه وعد بظهور دولة أخرى، وقصد بذلك الدولة

١ . شرح نهج البلاغة: لابن ابي الحديد: ٧/ ٩٨ .
٢ . ينظر: شرح نهج البلاغة: ٧/ ٩٩ .
٣ . ينظر: المصدر نفسه: ٣/ ١٢ .
٤ . المصدر نفسه: ٧/ ٩٨ .

العباسية التي ظهرت على دولة بني أمية ومراده من القرون الأجيال من الناس، وفيه أيضاً إشارة الى ما يحصل من عمليات قتل للأمراء الأمويين وأسراهم[1].

أما ابن ميثم فلم يشر صراحة الى أن مراد الإمام (عليه السلام) بهذا القول بنو العباس بل انه أراد مجموعة من الناس، وكنى بالتفاف بعضهم ببعض عن احتمالهم في بطن الأرض، واستعار لفظ الحصد لمشابهتهم الزرع، فكنى بحصدهم عن موتهم وقتلهم[2].

ونجد اختلافاً بالتأويل بين البحراني والخوئي، في قوله (عليه السلام): «..قَد خَاضُوا بِحَارَ الفِتَنِ واخَذُوا بالبِدَعِ دِونَ السّنَنِ»[3] فيرى البحراني:- «يحتمل أن يكن التفاتاً الى صفة قوم معهودين للسامعين كمعاوية وأصحاب الجمل والخوارج، ويحتمل أن يكون منقطعا عن كلام قبله متصلا بكلام لم يحكه الرضي (رض) واليه ذهب بعض الشارحين »[4].

أما الخوئي فيقول:- «والأظهر عندي انه متصل بالكلام السابق، ووجه نظمه انه لما امر بوجوب متابعته، وفرض طاعته وطاعة رسول الله (ص) التفت الى حكاية حال المخالفين لرسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) والمغيرين لوصيته، والغاصبين لخلافته من الخلفاء الثلاثة ومتابعتهم، وكيف كان. فتشبيه الفتن بالبحار لإهلاكها واستئصالها فمن دخل فيها يغرق كما يغرق البحر الخائض فيه»[5].

والى جانب هذا الاختلاف في تأويل بعض أقوال الأمام علي(عليه السلام) نجد أن هناك حالة من الاتفاق في تأويلات أخرى، اذ يتفق ابن أبي الحديد والبحراني في تأويلات كلامه(عليه السلام) عن الملاحم ويؤولانه: بأنه متعلق بعبد الملك بن مروان وفترة حكمه وأمرته وقصر مدتها، وانه استخدم لفظ (الاكبش) تعبيرا عن أبنائه الأربعة: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام حيث لم يل الخلافة من بني أمية ولا من غيرهم أربعة اخوه إلا هؤلاء، كما انه يجوز أن يعني به بني مروان لصلبه وهم عبد الملك وبشر ومحمد وعبد العزيز، وكانوا أكباشا أبطالاً فقد ولي عبد الملك الخلافة، وبشر ولي العراق، ومحمد ولي الجزيرة، وعبد العزيز ولي مصر، ولكل منهم آثار مشهورة[6].

وحول كتابه لأخيه (عقيل بن أبي طالب) عن قريش وأفعالها معه، الذي يقول في جانب منه:- «فَجَزَتْ قُرِيشاً عني الجوَازِي. فقد قَطَعُوا رَحمِي وسَلَبُونِي سُلطانَ ابنِ امُي، وامَا مَا سألتَ عَنهُ مِن رَأيي فِي القِتَالِ فإنَّ رأيي قِتَالُ المُحِلِينَ حتى ألقَى الله»[7]، يقول ابن أبي الحديد: «إن هذه الكلمة تجري مجرى المثل، بمعنى صنعت لي كل خصلة من نكبة أو شدة أو مصيبة أو جائحة، أي جعل هذه الدواهي كلها جزاء قريش بما صنعت بي، وبسلطان ابن أمي يعني به الخلافة إشارة الى رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) لأنهما ابنا فاطمة بنت عمرو بن مروان بن عائذ بن مخزوم. أم عبد الله وأبي طالب»[8].

ويوافقه في ذلك التأويل البحراني ولكنه يضيف على ابن ابي الحديد: «وقيل أن أمه فاطمة بنت أسد كانت تربي رسول الله (صلى الله عيه واله وسلم) إذ كفله أبو طالب يتيما فهي كالأم فاطلق عليه البنوة مجازا»[9].

---

١ . المصدر نفسه: ٧/ ١٠١ .
٢ . ينظر: المصدر نفسه: ٣ / ١٢ .
٣ . شرح نهج البلاغة: البحراني: ٣ / ٣١٢ .
٤ . ينظر: المصدر نفسه: ٣/ ٣١٣ .
٥ . منهاج البراعة: ٩ / ٢٠٦ .
٦ . ينظر: شرح نهج البلاغة: المعتزلي: ٦/ ١٤٧، شرح نهج البلاغة: البحراني: ٣/ ١٧٣ .
٧ . شرح نهج البلاغة: المعتزلي: ١٦ / ١٤٨ .
٨ . المصدر السابق: ١٦ / ١٥١-١٥٢ .
٩. شرح نهج البلاغة: ٥ / ٨٠ .

أما عن قوله(عليه السلام) «لا يُنْدَبُ قَتِيلُهم ولا يُفْقَدُ غائِبهُم»[1] يرى ابن أبي الحديد ليس يريد به من يقتلونه بل القتيل منهم وذلك لان اكثر الزنج الذين أشار اليهم كانوا عبيد الدهاقين في البصرة وبناتها ولم يكونوا ذوي زوجات واولاد بل كانوا على هيئة الشطار عزابا فلا نادبة لهم وقوله «لا يفقد غائبهم» يريد به كثرتهم وانهم كلما قتل منهم قتيل سد مسده غيره، فلا يظهر اثر قتله[2].

فاتفق معه بذلك الخوئي لكنه أضاف أن هذا الكلام قد يتعلق بقائد الزنج وجيشه[3].

وفي تأويل قوله(عليه السلام):- «أنا فَقأتُ عينَ الفِتنَةِ» يرى البحراني انها إشارة الى أهل البصرة[4]، ويشاركه الخوئي في هذا التأويل ويضيف انه (عليه السلام) قد يريد أهل النهروان كذلك أو عموم فتن المنافقين والكافرين[5].

وفيما يتعلق بالخطب التي نقلت كلامه مع الخواج وما كان له من محاججات معهم خالصة فيما يتعلق بأمر التحكيم، ومن هذه الخطابات قوله:- «وقد كُنتُ نَهيتكُم عَن هذِهِ الحُكُومةِ فبيتُم عَلَي إباء المخَالِفِينَ المنَابذينَ»[6]، إذ يقول البحراني في ذلك كأنه يقول لهم «أن كان الحق هو عدم الحكومة فلم طلبتموها وأبيتم علي إباء المخالفين المتنابذين لما نهيتكم عنه حتى صرت الى أهوائكم فيها وان كان الحق هو ايقاعها فلما شاققتموني الآن لما أوقعتها وجعلت الله عليّ بها عهداً وعلى التقديرين يلزمهما الخطأ. وفي الموضوع نفسه يرى الخوئي ايضاً[7].

ناقش الخوئي تأويلات من سبقه من الشراح، إذ قام بمناقشة آراء ابن ابي الحديد والبحراني فعند شرحه قول الإمام (عليه السلام):- «كَأنِّي قَد نَعَقَ بِالشَّامِ وفَحَصَ بِرَايَاتِهِ في ضَوَاحِي كُوَفان، فَعَطفَ عَلَيهَا عَطْفَ الضّرُوس، وَفَرَشَ الأرضَ بالرّؤوس قَد فَغَرَتْ فأغرثُهُ وثَقُلَتْ في الأرض وطأتُهُ»[8]، يرى أن «هذا كناية عن استيلاء السفياني وتمكنه في الأرض لا عن ظلمه وجوره كما توهم الشارح المعتزلي، إذ لا ملازمة بين شغل الوطي والجور عرفا كما هو ظاهر»[9].

وحول الحكمين يناقش الخوئي رأي المعتزلي بقوله:- «أقول: أما قوله إن الحكمين لو تأملا الكتاب لوجدا فيه النص الصريح على خلافة أمير المؤمنين، فهو حق لا ريب فيه، لان الآيات الدالة على خلافته (عليه السلام) كثيرة لا تحصى، وقد مضى جملة منها في مقدمات الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية، وأما قوله لان فيه النص الصريح على حجية الإجماع فلا يخفى ما فيه من الخبط والخطأ، لأنه مع وجود النص من القرآن على اصل الخلافة لا داعي إلى إقامته النص على حجية الإجماع تم الاستدلال به على خلافته وإنما هو أشبه شيء بالآكل من القضاء، ولعل الشارح انما التزم به لأجل حماية الحمى، وذابا عن الخلفاء لأنه لو التزم بوجود النص على اصل الخلافة لم يجد بدا من الالتزام ببطلان خلافة المتحلفين كالالتزام ببطلان خلافة معاوية وفي ذلك إبطال ما اختار من المذهب والدين»[10].

وللخوئي مناقشة حول كلامه (عليه السلام) استعمل فيه كلمات مثل «الجفاء والعصبية والجهل وتعطيل السنة» «وقد علمتم انه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمته ولا الجاهل فيضلهم بجهله ولا

---

١ . شرح نهج البلاغة: المعتزلي: ٨/ ١٢٥ .
٢ . المصدر نفسه: ٨ / ١٢٦ .
٣ . ينظر: منهاج البراعة: ٧ / ١٤٦ .
٤ . شرح نهج البلاغة: ٢ /٣٨٧ .
٥ . ينظر: منهاج البراعة: ١٠ / ٢٠٧ .
٦ . شرح نهج البلاغة: المعتزلي: ٨/ ١٢٦ .
٧ . ينظر: شرح نهج البلاغة: للبحراني: ٢ / ٩٢ .
٨ . ينظر: منهاج البراعة: ١٠ /٢٠٧.
٩ . المصدر نفسه: ٨ /٣١٧.
١٠ . منهاج البراعة: ١٥٦/٨، وينظر: شرح نهجة البلاغة: للمعتزلي: ٣١٨/٨.

الجافي فيقطعهم بجفائه ولا الحائف للدول فيتخذ قوما دون قوم ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة»[1]، فيقول: أن «الأمامية تزعم أنه قد رمز بالجفاء والعصبية لقوم دون قوم إلى عمر ورمز بالجهل إلى من كان قبله، ورمز بتعطيل السنة إلى عثمان ومعاوية، وأما نحن فنرى انه عليه السلام لم يعن ذلك.
وإنما قال قولا كليا غير مخصوص وهذا هو اللائق بشرفه، وقول الأمامية دعوى لا دليل عليها ولا يعدم كل أحد أن يستنبط من كلام ما يوافق غرضه وإن غمض، وان لا يجوز أن تبنى العقائد على مثل هذه الاستنباطات الدقيقة»[2]، وبخصوص قوله (عليه السلام):- «فأما شَيَطانُ الرّدهةِ فَقَد كُفيتُهُ بصَعقةٍ سَمعتُ لَهَا وَجَبة قَلبهِ ورَجّه صَدرهِ...»[3]، يطرح الخوئي هنا الآراء التي قيلت في تأويل هذا القول ومنها أن المراد في شيطان الردهة ذو الثدية رئيس الخوارج ومنها انه أحد الأبالسة من أولاد إبليس اللعين وأما الشارح المعتزلي قال:- «ورووا في ذلك خبرا عن النبي (صلى الله عليه واله وسلم) وانه كان: يتعوذ منه»[4]، أما الخوئي فيرى: أن «الأظهر في ذلك أن يكون المراد به شيطان الجن ويكون الإشارة بهذا الكلام ما وقع منه عليه السلام في بئر ذات العلم»[5]، أما فيما يتعلق بالتأويلات التي انفرد بها كل واحد من الشراح الثلاثة فقد اخترنا نماذج معينة من كل شارح لتبيان ظاهرة التأويل عندهم.
فلو جئنا إلى ابن أبي الحديد لوجدنا تأويله في قوله (عليه السلام):- «الإمرَةُ عَلى أُناسٍ وَخِيمةٌ العَاقبةِ ذاتُ مَشَقّةٍ فِي العَاجلةِ فَهي في عَاجِلِها كَالماءِ الآجنِ يجدُ شاربُهُ مَشَقّةً آكلها ولُقمةٌ يغصُّ بهَا آكلُها ومجتِني الثّمرة لغيرِ وَقتِ إيناعَها كَالزَرِعِ بِغيرِ أرضِهِ»[6] فيقول: «يغص مفتوح حرف المضارعة ومفتوح العين أصله عصصت بالكسر» «ويحتمل الأمران معاً للعاجلة لأن الغصص في أول البلع كما أن ألم شرب الماء الآجن يحدث في أول الشرب ويجوز ألا يكون الإمام (عليه السلام) قد عنى الإمرة المطلقة بل أراد الإمرة المخصوصة يعني بيعة السقيفة»[7].

ومن تأويلاته الأخرى ما كان في قول الإمام (عليه السلام) «قَد كَانَتْ لكُم أمورٌ مِلتُم فِيها عَلَيّ ميلةً»[8] فيقول:- «فمراده أمر عثمان وتقديمه في الخلافة عليه، ومن الناس من يحمل ذلك على خلافة الشيخين ايضاً، ويبعد عندي أن يكون أراده لان المدة قد طالت ولم يبق من يعاتبه...، فان هذا الكلام يشعر معاتبة قوم على أمر كان أنكره منهم، وأما بيعة عثمان ثم ما جرى بينه وبين عثمان من منازعات طويلة وغضب تارة وصلح أخرى ومراسلات خشنة ولطيفة وكون الناس بالمدينة كانوا حزبين وفئتين:- أحداهما معه (عليه السلام) والاخرى مع عثمان، فان صرف الكلام إلى ما قلناه بهذا الاعتبار أليق»[9].

وربما يكون الإمام (عليه السلام) قد عنى بجانب من كلامه بيعة الشيخين وما جرى من أمور بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ولا سيما ان هناك الكثير من الخطب التي بين فيها هذه الامور، أما القول بطول المدة فانه لا ينفي الإشارة إلى ذلك طاعة أن أغلب الاحداث التي حدثت نتيجة الابتعاد عنه، ومبايعة غيره، وأما قوله «وَلَمْ يَبَقَ مَنْ يُعَاتبُهُ» فهو رأي مردود إذ

---

١ . منهاج البراعة: ١٥٦/٨.
٢ . المصدر نفسه: ٢٣٨/٨.
٣ . المصدر نفسه: ١٩/١٢.
٤ . المصدر نفسه: ٢٣/١٢.
٥ . المصدر نفسه: ٢٤/١٢.
٦ . شرح نهج البلاغة: المعتزلي: ٢١٤/١.
٧ . المصدر نفسه.
٨ . شرح نهج البلاغة: المعتزلي: ٢٧٦/١.
٩ . المصدر نفسه: ٢٨٠/١.

هناك مجموعة كبيرة من الصحابة ما زالوا أحياء، وتصل أعدادهم إلى المئات، بل أن النسبة الأكبر منهم كانت تشكل جيشه (عليه السلام)[1].

وفي تأويل قوله (عليه السلام):- «فَأنِّي وُلِدْتُ عَلَى الفِطرةِ، وسَبَقْتُ إلى الإيمانِ والهِجْرةِ»[2] يقول (المعتزلي): «إن الإمام (عليه السلام) لم يقل (سبقت كل الناس إلى الهجرة) وان قال (سبقت) فقط، ولا يدل ذلك على سبقه للناس كافة، ولا شبهة انه سبق معظم المهاجرين إلى الهجرة ولم يهاجر قبله إلا نفر يسير جداً وأيضا فقد قلنا انه علل أفضليته وتحريم البراءة منه مع الإكراه بمجموع أمور منها: ولادته على الفطرة، ومنها سبقه إلى الإيمان، ومنها سبقه إلى الهجرة وهذه الأمور الثلاثة لم تجتمع لأحد غيره...، وأيضاً فان اللام في الهجرة يجوز أن لا تكون للمعهود السابقة، بل تكون للجنس، وامير المؤمنين(عليه السلام) سبق ابا بكر إلى الهجرة التي قبل هجرته إلى المدينة»[3].

ويحتمل هنا أن الإمام(عليه السلام) «لم يكن يريد الهجرة بمعناها المعروف بترك الوطن أو المدينة، بل أراد الهجرة إلى الله تعالى، وترك ذلك المجتمع الذي تسود فيه كل مظاهر البعد عن الله تعالى، وهذا المعنى نجده في خطاب النبي (صلى الله عليه واله وسلم) عندما خاطب قومه «... إنّي مهاجرٌ إلى ربّي...»[4].

وفي تأويله لقول الإمام (عليه السلام):- «ولَقَد عَلِمَ المُستَحفِظُون مِن أصحَابِ مُحمدٍ (صَلى اللهُ عَليه وآلِهِ وسَلَمَ) »[5] يقول ابن ابي الحديد: «يمكن أن يعني بالمستحفظين الخلفاء الذين تقدموا لأنهم الذين أستحفظوا الإسلام أي جعلوا حافظين له، وحارسين لشريعته ولحوزته ويجوز أن يعني به العلماء والفضلاء من الصحابة لأنهم استحفظوا الكتاب أي كلفوا بحفظه وحراسته»[6].

ونعتقد هنا أنها الإشارة إلى الصحابة الذين كان لهم دور في حفظ الإسلام وتثبيت أركانه والدفاع عنه، ذلك انهم وقفوا هذا الموقف سواء في زمن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أو زمن الخلفاء من بعده، وكان مبتغاهم في ذلك هو خدمة الإسلام، ولو لا المواقف البطولية المشرفة لهؤلاء الصحابة لم يستطع الخلفاء النهوض بأعباء هذا الدين والوصول به إلى هدفه المنشود.
ولابن أبي الحدد تأويلات في كلام الإمام (عليه السلام): «إنَّما تَؤتِي الأرضُ»[7]، يقول:- «إنما تدهى الأرض من أعوز أهلها وفقرهم، والسبب الموجب لاعوازهم طمع ولاتهم في الجباية وجمع الأموال لأنفسهم، ولسلطانهم وسوء ظنهم بالبقاء ويحتمل الإمام (عليه السلام) أراد انهم يجمعون الأموال لأنفسهم ويظنون البقاء وينسون الموت والزوال، وأيضاً يحتمل أن يريد به انهم يتخيلون العزل والصرف فيتخذون الفرص ويجمعون الأموال ولا ينظرون إلى عمارة البلاد»[8].

وفي الموضوع نفسه أي الفقر والفقراء يقول (عليه السلام):- «فإنَّ للأقصَى مِنهُم مَثْلُ الذي للأدنَى وكلٌّ قَد آسترعَيتُ حقَّهُ»[9] وكلام الإمام (عليه السلام) هنا الإشارة إلى مبدأ المساواة في توزيع العطاء الذي اتبعه في عملية أو سياسة توزيع الأموال على المسلمين، ومعلوم أن هذه السياسة كان معمولاً بها زمن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وخلافة أبي بكر، ألا أنها

---

١ . ينظر في ذلك: التاريخ اليعقوبي: ١٧٧/٢، العلل: احمد بن حنبل: ٢٨٧/١، المعيار والموازنة: الإسكافي: ٢٣. ٢٣.
٢ . شرح نهج البلاغة: لابن ابي الحديد: ٥٤/٤.
٣ . المصدر نفسه: ١٢٥/٤.
٤ . شرح نهج البلاغة: ١٢٥/٤.
٥ . المصدر نفسه: ٨٦/١٧.
٦ . ينظر: المصدر نفسه.
٧ . المصدر نفسه: ٨٦/١٧.
٨ . المصدر نفسه.
٩ . شرح نهج البلاغة: ٨٥/١٧.

تغيرت زمن خلافة عمر بن الخطاب، الأمر الذي أوجد حالة من التفاوت الشاسع بين جماعة الصحابة واحدث فجوة في المجتمع الإسلامي، ولعلها السبب الفاعل في حدث (الفتنة) زمن الخليفة عثمان، وعودة الإمام (عليه السلام) إلى هذه السياسة لم ترض فئة كبيرة من الصحابة أو من كبار رؤساء القبائل من ميل الكثير منهم إلى معاوية[1].

وفي هذا القول هناك تأويل لابن أبي الحديد يقول فيه: أن يكون كل فقراء المسلمين سواء في سهامهم من العطاء، ليس فيها أقصى أو أدنى وان لا يؤثر من هو قريب نسبا وعلاقة، على من هو بعيد ليس له سبب أو نسب إليك، ولا علاقة بينه وبينك وان لا تصرف غلات ما كانت من الصوافي في بعض البلاد إلى مساكين ذلك البلد فأن حق البعيد عن ذلك البلد فيها مثل حق المقيم في ذلك البلد[2].

ومن تأويلات ابن ابي الحديد ما كان في كلام للإمام (عليه السلام) يقارن فيها بين الشجرة الطيبة محمد وآله (صلى الله عليه وآله وسلم) والشجرة الخبيثة (بني أمية) يقول (عليه السلام):- «وأنّى يَكُونُ ذَلكَ كَذلكَ ومِنّا النبُّي ومِنكُم المَكذّبُ ومِّنا أسدُ اللهِ ومنّكُم أسدُ الأحَلافِ»[3]، «أي كيف يكون شرفكم كشرفنا، ومنا النبي ومنكم المكذب يعني أبا سفيان بن حرب، كان عدو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والمكذب له والمجلب عليه، وهؤلاء الثلاثة أبو سفيان بأزاء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ومعاوية بازاء علي (عليه السلام) ويزيد بازاء الحسين (عليه السلام) بينهم من العداوة ما لا تبرك عليه الإبل»[4]، وفي قوله (عليه السلام):- «ومِنّا أسْدُ اللهِ ومّنكُم أسدُ الأحلافِ» فقد عني بالأول حمزة، وفي الثاني عتبة ابن ربيعة»[5]، ويقول (عليه السلام) «ومِنّا سِيَدّا شبابِ أهل الجَنَّةِ»[6]. يعني حسنا وحسينا (عليهما السلام):- «ومِنّكُم صِبيةُ النّارِ»[7] هي الكلمة التي قالها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لعقبة ابي ابي معيط حين قتله صبرا في يوم بدر، وقد قال «كالمستعطف من للصبية يا محمد؟ قال: النار، وقوله (عليه السلام):- «وَمّنا خَيرُ نِسَاءِ العَالمِينَ» يعني فاطمة(عليها السلام) نص رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على ذلك لا خلاف فيه، «ومِنْكُم حَمّالةُ الحَطَبِ» وهي أم جميل بنت حرب بن أمية، امرأة أبي لهب الذي ورد نص القرآن الكريم فيها بما ورد»[8].

ونلحظ تأويل ابن أبي الحديد لهذا النص فيه حالة من الربط الموضوعي بين كلام الإمام (عليه السلام) والحوادث التاريخية التي ترتبط ارتباطاً مباشراً بمعنى هذا الكلام وهذا مما يبعث على القول أن ابن أبي الحديد قد جعل تأويلاته اكثر واقعية، فضلا عن ذلك إنها استندت إلى نصوص الآيات القرآنية وأحاديث الرسول (صلى اله عليه وآله وسلم) والسيرة مما يعطي هذه التأويلات انطباعاً تاريخياً دقيقاً.

وعند تأويله كتاب الإمام (عليه السلام) لأهل مصر بتوليه الأشتر عليهما:- «أمّا بَعد فَقَد بَعثْتُ إليكُم عَبداً مِنْ عِبادِ اللهِ لا يَنَامُ أيَامَ الخَوفِ...»[9]، يجد القارئ لهذا التأويل طعم الثقة وحلاوة

---

١ . للمزيد من التفاصيل ينظر: الغارات، الثقفي: ١٤٨/١، تاريخ الطبري: الطبري: ٥٤١/٤، الفائق: الزمخشري: الزمخشري: ٢٩٦/١.
٢ . ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ٨٦/١٧-٨٧.
٣ . المصدر نفسه: ١٨٢/١٥.
٤ . المصدر نفسه.
٥ . شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ١٩٦/١٥.
٦ . شرح نهج البلاغة: ١٨٢/١٥.
٧ . المصدر نفسه: ١٩٧/١٥.
٨ . المصدر نفسه.
٩ . ينظر: شرح نهج البلاغة: لابن ابي الحديد: ١٥٦/١٦.

النقاش الموضوعي المشتمل على طرح السؤال والإجابة عنه وهو أسلوب دقيق وعلمي يدل على سعة الاطلاع والخلفية التاريخية الثرية.
ومما يشار إليه هنا ان المصادر التاريخية قد ذكرت أسماء القتلة المباشرين كعمرو بن جرموز الذي قاتل فيما بعد مع أصحاب الجمل وبعدها قتل الزبير ومن ثم خرج مع الخوارج في النهروان وقتل هناك[1]، وكذلك هرقوص بن زهير من أهل البصرة من بني سعد، خرج مع الخوارج وقتل في النهروان[2].

وفيما يتعلق بقول الإمام (عليه السلام): «إنِ الحكمُ إلاّ للهِ» يقول ابن أبي الحديد في تأويله «أي ليس حي من الأحياء ينفذ حكمه لا محالة ومراده لما هو من أفعاله إلا الحي القيوم وحده، فهذا هو معنى خذه الكلمة، وظلت الخوارج عندها فأنكروا على أمير المؤمنين (عليه السلام) موافقته على التحكيم، وقالوا كيف يحكم، وقد قال الله سبحانه «إن الحكم إلا لله»، فخلطوا لموضع اللفظ المشترك، وليس هذا الحكم هو ذلك الحكم، فإذن هي كلمة حق يراد بها باطل لأنها حق على المفهوم الأول ويريد بها الخروج نفي كل ما يسمى حكما إذا صدر عن غير الله تعالى وذلك باطل لان الله تعالى قد أمضى حكم المخلوقين في كثير من الشرائع»[3].

وعن خطبته (عليه السلام) التي تتعلق بأبناء الأنبياء إسماعيل وإسحاق وإسرائيل وما كان عليهم من أمور العذاب، يقول المعتزلي:- «لقائل أن يقول: ما نعرف أحداً من بني اسحق وبني إسرائيل احتازتهم الاكاسرة والقياصرة عن ريف الآفاق إلى البادية ومنابت الشيح، إلا أن يقال: يهود خيبر والنضير وبني قريضة وبني قينقاع وهؤلاء نفر قليل لا يعتد بهم، ويعلم من فحوى الخطبة انهم غير مرادين بالكلام ولأنه (عليه السلام) قال: تركوهم أخوان دبر وبر وهؤلاء لم يكونوا من أهل الوبر والدبر بل من أهل المدر، لأنهم كانوا ذوي حصون واطام، والحاصل أن الذين احتازتهم الاكاسرة والقياصرة من الريف إلى البادية وصاروا أهل وبر ولد إسماعيل، لابنو اسحق وبنو إسماعيل.
والجواب: انه (عليه السلام) ذكر في هذه الكلمات وهي قوله «فآعتَبرُوا بِمَالِ ولْدِ إسمَاعِيلَ وَبَنِي إسرائِيلَ، المقهُورِيْنَ والقاهِرِيْنَ جَمِيْعاً» أما المقهورين فبنوا إسماعيل وأما القاهرون فبنو إسحاق وبنو إسرائيل لان الاكاسرة من بني إسحاق ذكر الكثير من أهل العلم أن فارس من ولد اسحق والقياصرة من ولد اسحق أيضاً لان الروم بنو العيص بن إسحاق وعلى هذا يكون الضمير في (أمرهم) و(تشتتهم) و(تفرقهم) يرجع إلى بني إسماعيل خاصة، فان قلت فبنو إسرائيل أي مدخل لهم ها هنا؟ قلت: لأن بني إسرائيل لما كانوا ملوكا بالشام في أيام أجاب الملك وغيره حاربوا العرب من بني إسماعيل غير مرة وطردوهم عن الشام، ألجأوهم على المقام ببادية الحجاز، ويصير تقدير الكلام: فاعتبروا بحال ولد أسماعيل مع بني اسحق وبني إسرائيل، فجاء بهم في صدر الكلام على العموم، ثم خصص فقال: الاكاسرة والقياصرة، وهم داخلون في عموم ولد إسحاق، وإنما لم يخصص عموم بني إسرائيل لأن العرب لم تكن تعرف ملوك ولد يعقوب فيذكر لهم أسماءهم في الخطبة بخلاف ولد إسحاق فأنهم كانوا يعرفون ملوكهم من بني ساسان ومن بني الأصقر»[4].

وعن كلام الإمام (عليه السلام) الذي يقول فيه: «للهِ بِلادُ فلانٍ، فَلَقَد قَوّمَ الأوْدَ ودَاوَى العَمَدَ، وأقَامَ السُّنةَ، وخَلَّفَ الفِتنةَ! ذَهَبَ نقيَّ الثّوب، قَلِيلَ العيْبِ، أصابَ خَيرَها، وسَبَقَ شَرَّهَا، أدّى إلى

---

١ . ينظر: شرح نهج البلاغة: للمعتزلي: ٢٣٦/١، بحار الأنوار: المجلسي: ٣٣٦/٣٢.
٢ . ينظر: المصدر السابق: ٢٦٨/٢، كشف الغمة: الاربلي: ٢٦٥/١.
٣ . شرح نهج البلاغة: ١٧/١٩.
٤ . شرح نهج البلاغة: ١٧١/١٣-١٧٣.

الله طَاعَتَهُ، وآتقَاهُ بحقّهِ، رَحَلَ وتَرَكَهُم فِي طُرُقٍ مُتَشعبةٍ، لا يَهتدِي بهَا الضّالُ، ولا يَسْتيقِنُ المهُتدِي»[1].

يقول ابن أبي الحديد مؤولا ذلك ورادا على الشارح الراوندي «فأما الراوندي فانه في الشرح: انه عليه السلام مدح بعض أصحابه بحسن السيرة وان الفتنة هي التي وقعت بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من الاختيار والأثرة، وهذا بعيد لان لفظ أمير المؤمنين يشعر إشعاراً ظاهرا بأنه يمدح واليا ذا رعية وسيرة، ألا تراه كيف يقول:- «فَلَقَد قَوَّمَ الأودَ ودَاوى العَمَدَ، وأقام السُّنة، وخَلَّف الفِتنة» وكيف يقول «أصابَ خَيرَها وسَبَقَ شَرَّهَا» وكيف يقول «أدّىَ إلى الله تعالى» وكيف يقول «رَحَلَ وتَرَكَهُم في طُرُقٍ متشعبةٍ» وهذا الضمير وهو الهاء والميم في قوله «وتركهم» هل يصح أن يعود ألا على الرعايا، وهل يسوغ أن يقال هذا الكلام لسوقه من عرض الناس وكل من مات قبل وفاة النبي (صلى الله وعليه وآله وسلم) كان سوقه لا سلطان له، فلا يصح أن يحمل هذا الكلام على إرادة أحد من الذين قتلوا أو ماتوا قبل وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كعثمان بن مظعون أو مصعب بن عمير، أو حمزة بن عبدالمطلب، أو عبيدة بن الحارث، وغيرهم من الناس»[2].

أما فيما يتعلق بالتأويلات الاخرى للبحراني فمنها ما ذكره حول قول الإمام (عليه السلام) «فإنَّ الشّيطَانُ كامِنٌ في كِسْرِهِ»[3]، قال:- «انه أراد بالشيطان معاوية وقيل عمرو بن العاص، وذلك أن الشيطان لما كان عبارة عن شخص يضل الناس عن سبيل الله، وكان معاوية في أصحابه كذلك عنده (عليه السلام) لا جرم أطلق عليه لفظ الشيطان...
ويحتمل زيادة ان يريد الشيطان ولما كانت محال الفساد هي مظنة إبليس، وكان المضروب قد ضرب على غير طاعة الله كان محلا للشيطان فلذلك استعار له لفظ الجلوس في كسره»[4].

وفي تأويل قول الإمام (عليه السلام): «وآستَراحَ قومٌ إلى الفِتَنِ»[5] يرى ابن ميثم انه اشارة إلى من يعتزل الوقائع التي ستقع في آخر الزمان من شيعة الحق وأنصاره ويجد في اشتغال القوم بعضهم ببعض راحة له في الانقطاع والعزلة[6].

ويقول في تأويل قوله (عليه السلام) «وسأجهَدُ فِي أنْ أطهرَ الأرضَ مِن هَذا الشّخص المَعكُوس والجِسمِ المَركُوس حَتى تَخرجُ المدَرَةُ مِنْ بَينِ حَبِّ الحصيدِ»[7]، انه تواعد أن يجتهد في تطهير الأرض من هذا الشخص المعكوس والجسم المركوس وأراد به معاوية بن أبي سفيان[8].

وفي تأويل قول الإمام (عليه السلام) «آنتَفعُوا ببيانِ آللهِ وآتعظُوا بمواَعظِ آللهِ، وآقبَلوا نَصيحة آللهِ، فإنَّ آللهَ قد أعذَرَ إليكم بالجَلَبةِ وأخَذَ عليكم الحُجّة...»[9] وقوله (عليه السلام): «وآعلَمُوا عبادَ آللهِ أنّ المُؤمِنَ يُستَحِل العَامَ...، ويحرُم العامَ...»[10]، ويقول البحراني موردا أقوال بعض الشارحين:- «إن كلام الإمام (عليه السلام) في هذه الخطبة إشارة إلى أن ما تثبت من طريق النص أما السعادة التي شهد بها النص في زمان النبي (صلى الله عليه وسلم) لا يجوز أن ينقض بالقياس أو الاجتهاد بل كل ما ورد به النص فيتبع به مورد النص فما كان حلالا بمقتضى النص

---

١ . المصدر نفسه: ٣/١٢.
٢ . ينظر: شرح نهج البلاغة: المعتزلي: ١٢؟٤-٥.
٣ . شرح نهج البلاغة: البحراني: ٢٤٢/٢.
٤ . المصدر نفسه: ٢٤٧/٢.
٥ . شرح نهج البلاغة: البحراني: ٢٧٣/٣.
٦ . ينظر: المصدر نفسه: ٢١٧/٣.
٧ . المصدر نفسه: ١٢٧/٥.
٨ . المصدر نفسه: ١٤٢/٥.
٩ . المصدر نفسه: ٤٣٨/٣.
١٠ . المصدر نفسه.

وعمومه العام الماضي، فهو في هذا العام حلال، وكذا في الحرام وعموم هذا الكلام يقتضي عدم جواز نسخ النص وتصحيحه بالقياس وهو مذهب الأمامية لاعتفادهم بطلان القول بالقياس المتعارف ومذهب جماعة من الأصوليين مع اعترافهم بصحة القياس، ومن يجوز تخصيص به يحمل هذا الكلام على عدم قبول القياس في نسخ النص من كتاب أو سنة، وما أحدثه الناس إشارة إلى القياس»[1].

وكانت للإمام علي (عليه السلام) مجموعة من الخطب التي يصف بها جماعات من الشخصيات بأوصاف يمكن عدها تشخيصاً وبياناً لحال هذه الجماعة، ويبدو أن الغرض من ذلك هو تحذير الأمة من الخطر الذي تشكله هذه الجماعة على مسيرة الأمة.
وفي ضوء ذلك نجد هناك بعض التأويلات التي قدمها البحراني لأمثال هذه الخطب، من بينها خطبته التي يقول فيه «فإِنَّ مِنُهم الذي (قد) شَرِبَ فيكُم الحَرامَ، وجُلِدَا حّداً في الإسْلامِ، وإنَّ منُهم مَنْ لَم يُسلِم حتى رَضَخَتْ لَهُ عَلَى الإسلامِ الرضائِخُ»[2].

يشير البحراني: إلى أن الذي شرب منهم أي من هذه الجماعة في المسلمين الحرام هو إشارة إلى المغيرة بن شعبة حينما شرب الخمر في عهد عمر حين كان واليا على الكوفة، فصلى بالناس وهو سكران وزاد في الركعات، وقاء الخمر وشهدوا عليه وجلد الحد، وكذلك عنبسة بن ابي سفيان، جلده في الخمر خالد بن عبيدالله في الطائف، إما الذي لم يسلم حتى أرضخت له الرضائخ قيل هو أبو سفيان وابنه معاوية، حيث كانا من المؤلفة قلوبهم الذين يستمالون الى الدين وجهاد عدوه بالعطاء، وقيل هو عمرو بن العاص، ولم يشهر عنه مثل ذلك الا ما حكاه عليه السلام عنه من اشتراطه على معاوية طعمة مصر في مساعدته بصفين[3].

ومن كلام للإمام (عليه السلام) يشير إلى ظاهره تشخيص الأعداء فيقول (عليه السلام) «قَد خَاضُوا بِحارَ الِفتنِ وأخذُوا بالبدعِ دُونَ السُّنَنِ»[4].

يقول البحراني في تأويل ذلك:- «يحتمل أن يكون التفاتا إلى صفة قوم معهودين؟ للسامعين كمعاوية ةأصحاب الجمل والخوارج، ويحتمل أن يكون منقطعا عما قبله متصلا بكلام لم يحكه الرضي (رضوان الله عليه) واليه ذهب بعض الشارحين، قال: وهو ذكر قوم من أهل الضلال قد كان اخذ في ذمهم وعيبهم، ولفظ البحار مستعار لما عظم من الفتن والحروب، وقد عرفت وجه الاستعارة قبل ورشح بذلك الخوض والبدعة قد يراد بها ترك السنة، وقد يراد بها أمر آخر يفعل مع ترك السنة، وهو الأظهر في العرف»[5].

وفي تأويل كلام الإمام (عليه السلام) وهو يتحدث عن فضائله وفضائل أهل بيته وهو جزء من كلامه السابق قال البحراني: أن الإمام (عليه السلام) «استعار لفظ الشعار لنفسه وأهل بيته ووجه المشابهة ملازمتهم للرسول (صلى الله عليه وسلم) واختصاصهم به، كما يلزم الشعر الجسد، ثم ذكر كونهم أصحابا له ثم كونهم خزانة علمه، كما نقل عن الرسول (صلى اله عليه واله وسلم) هو خازن علمي وفي رواية عيبة علمي، وقيل، خزنة الجنة على معنى أن من جاء يوم القيامة بولايتهم دخل الجنة بمنع العلم وإعطائه أو بمنع الجنة بسببهم وإعطائها، كما أم الخازن كذلك ثم كونهم الأبواب أي أبواب العلم، كما قال (صلى الله عليه واله وسلم) أنا مدينة العلم وعلي بابها وأبواب الجنة على الاستعارة السابقة»[6].

---

١ . المصدر نفسه: ٤٤٩/٥.
٢ . شرح نهج البلاغة: البحراني: ٢٤٨/٥.
٣ . المصدر نفسه: ٢٤٩/٥-٢٥٠.
٤ . المصدر نفسه: ٣١٢/٣.
٥ . المصدر نفسه: ٣١٣/٣.
٦ . شرح نهج البلاغة: البحراني: ٢١٣/٣.

وفي الإطار نفسه، يقول البحراني في تأويل قوله (عليه السلام):- «كَانت فِي أيدِينَا فَدَكٌ مِن كلِّ ما أظلّتْهُ السّماءُ، فَشحّتْ عَليها نفُوسُ قَومٍ، وَسخَت عَنها نفُوس قومٍ آخرينَ»[1].

يقول «أشار بالنفوس التي شحت بها إلى أبي بكر وعمر واتباعهما، وبالنفوس التي سمحت بها إلى وجوه بني هاشم ومن مال ميلهم»[2].

وعن تأويل بعض الخطب التي تحدثت عن الخوارج وصفين كقوله (عليه السلام): «زمَنْ لَجَّ وتَمادى فَهُو الراكسُ الذي رَانَ آللهُ عَلى قِلبهِ وصَارتْ دِائرةُ السَّوءِ عَلى رَأسِهِ»[3]، يقول البحراني:- «أن الذين لجوا في التمادي فهم الخوارج الذي لجوا في الحرب واعتزلوه (عليه السلام) بسبب التحكيم، وكانت قلوبهم في أغشية الشبهات الباطلة حتى صارت دائرة السوء على رؤوسهم فقتلوا ألا اقلهم»[4].

أما الخوئي فقد كانت له بعض التأويلات المنفردة في جوانب من كلام الإمام (عليه السلام)، ولعل من ابرز ذلك ما جاء في قوله (عليه السلام): «إنَّ آللهَ سُبحانَهُ لم يَقصِمْ جَبّاريٍّ دهرٍ قط إلاّ بَعدَ تَمهيلٍ ورخاءٍ»[5]، فيقول: أن هذا الكلام «يراد به إشارة إلى مآل معاوية وأمثاله من جبابرة الدهر...، والبالغين عليه من طلحة والزبير ومن حذا حذوهما من العتاة، والتنبيه على أن الله يقصم ظهرهم ويكسر صولتهم ويلبسهم ملكهم ودولتهم، وان طالت مدتهم»[6].

يرى الخوئي في قول الإمام (عليه السلام) «ولا يُتَركُوا عَقْداً إلاّ حلّوهُ وحَتَّى لا يبقَى بيتٌ مدرٍ ولا وبرٍ ألاّ دخلَهُ ظُلمُهُم»[7]، أن المراد «بالعقد والعهود المعاهدة بينهم وبين الناس، فالمراد بحلها بحلها نقضها، وأول ما وقع من ذلك ما كان من معاوية حيث نقض المعاهدة بينه وبين الحسن (عليه السلام) وأما العهود المأخوذة عليهم من الله تعالى وهو أحكام الدين وقوانين الشرع المبين فيكون حلها عبارة عن مخالفتها وعدم العمل بها»[8].

وفي تأويله لقوله (عليه السلام): «هَذَا مَا آجتَمَعَ عَليه أهلُ اليَمنِ حَاضرُهَا وباديَها ورَبيعةُ حَاضرُها وبَادِيهَا أنّهُم عَلى كِتابِ آللهِ. يَدعُونَ ويَأمرُون بهِ ويُحبُونَ مَنْ دَعَا إليهِ وأمَرَ بهِ»[9]، يذكر الخوئي انه أشار إلى محاربات وأحقاد كانت بين الفئتين القحطاني والعدناني في أيام الجاهلية، فلما قام الإسلام أماتها، ألا أنها رجعت بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وبلغت اوجها بسياسة بني أمية للخلاف بين المسلمين لغرض الاستيلاء على مقاليد الحكم[10].

وفي تأويل قول الأمام (عليه السلام):- «ويَخرجُ مِن دِيلمُان بنو الصيادِ» وقوله فيهم: «ثُمَّ يَستَشري أمْرُهُم حَتَى يَملِكُوا الزّوراءَ ويَخلعُوا الخلفَاءَ»[11]، يقول الخوئي أن هذا الكلام إشارة إلى بني بويه، وكان أبوهم صياد السمك يصيد منه بيده ما يتقوتون هو وعياله بثمنه، فاخرج الله تعالى من ولده لصلبه ملوكاً ثلاثة ونشر ذريتهم، حتى ضربت الأمثال بملكهم، وأيضا يشير إلى الصراع بينهم (والمترف بن الأجذم يقتله حتى ضربت الأمثال بملكهم، وأيضا يشير إلى الصراع بينهم (والمترف بن الأجذم يقتله ابن عمه على دجلة) وهذا إشارة إلى عز الدولة بختيار

---

١ . المصدر نفسه: ١٢٥/٥.
٢ . المصدر نفسه: ١٣٦/٥.
٣ . المصدر نفسه: ٢٤٠/٥.
٤ . المصدر نفسه: ٢٤٠/٥.
٥ . منهاج البراعة: ٢٠٢/٦.
٦ . منهاج البراعة: ٢٠٣/٦.
٧ . المصدر نفسه: ١٠٩/٧.
٨ . المصدر نفسه: ١١٠/٧.
٩ . المصدر نفسه: ٣٥٩/٢٠.
١٠ . المصدر نفسه: ٣٥٩/٢٠.
١١ . المصدر نفسه:٩٨/٧.

بن معز أبي الحسين، وكان معز الدولة اقطع اليد قطعت يده في الحرب، وكان ابنه عز الدولة مترفا محباً للهو والشرب قتله عضد الدولة فناصروا ابن عمه بقعر الجص على دجلة في الحرب وسلبه ملكه، فأما خلعهم الخلفاء فان معز الدولة المستكفي ورتب عوضه المطيع وبهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة خلع الطائع ورتب عوضه القادر، وكانت مدة ملكهم كما اخبرنا (عليه السلام)[1].

وفي تأويل خطبته (عليه السلام) التي يتحدث فيها عن الفتنة المقبلة على الأمة وما بها من القبح والخوف والجهالة «تَرِدُ عَلَيكُم فَتْنَتُهُم شوهاءَ مخشيةً وقِطَعاً جاهليةً ليَس فِيها منارُ هدىً ولا عَلَمٌ يُرى نحنُ أهلُ بيتٍ مِنهَا بِمنْجاةٍ وَلسنَا فِيها بِدُعَاةٍ»[2]، وهذا الكلام كما يرى الخوئي إشارة إلى «كونها قبيحة عقلا وشرعا مخوفة للنفوس، مرعبة للقلوب تكون على شكل طوائف ودفعات منسوبة إلى الجهال متصفة بالضلالة لكونها على غير قانون عدل، وما يظهر من كلام الشراح من كون المراد بالجاهلية الحالة التي كانت عليها العرب قبل الإسلام، من الجهل بالله ورسوله وشرايع الدين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر والتعصب والأخلاق الذميمة، ومنها أيضا بيان لوجه الجهالة أي ليس فيها إمام هدى يهتدي به ويستضاء بنوره، ولا قانون عدل يسلك به سبيل الحق»[3].

وبخصوص الكلام على الجهالة والجاهلية، هناك تأويل آخر للخوئي عن كلام الأمام (عليه السلام) الذي يقول فيه:- «عبادَ آللهِ لا تركَنُوا إلى جهالتِكُم، ولا تَنْقَادُوا إلى أهْوائِكُم فإنّ النازلَ بهَذا المنزل نازلٌ بشفا جرْفٍ هَارٍ»[4]، أي لا تميلوا «إلى الأهواء الباطلة المخرجة عن كرائم الأخلاق... وعن حق المصالح إلى باطلها...، ويحتمل أن يكون المراد به من لدعى الخلافة من غير استحقاق لها الذي وضع نفسه في مقام ونزل بمنزل ليس له أهلية به ويشعر بذلك ما سيأتي منه نهيه (عليه السلام) عن الشكاية إلى من لا يقدر على إزالة الشكوى وما ذكر بعده من أوصاف الإمام الحق(عليه السلام)»[5].

ومنها أيضاً قوله (عليه السلام): «وأيمُ آللهِ لو فرّقُوكُم تَحتَ كُلِّ كَوكَبٍ لَجمَعَكُم آللهُ لشَرِّ يَومِ الهَمِّ»[6]. يقول الخوئي في تأويله لذلك «ويَنتَقِمُ بسوءِ أعمَالهِم مِنهُمُ، وكنى بشر اليوم عن ظهور المسودة من أهل العراق وخرسان وانتقامهم من بني أمية وأهل الشام، ويحتمل أن يكون إشارة إلى ظهور إمام الزمان (عليه السلام) وجمعهم في الرجعة والمراد جمع صنفهم»[7].

وفي تأويله بكلام للأمام (عليه السلام): «ألا وفي غدٍ – وسيأتي غدٌ بِمَا لاَ تَعرِفُونَ – يَأخذُ الوالِي مِنْ غيرِهَا عُمّا لِها عَلَى مَسَاوئ أعمَالِهَا... وتلقي إليه سلماً مقاليْدَهَا»[8]، من نهج البلاغة يقول الخوئي:- «اعلم أن هذه الخطبة حسبما ذكره السيد (ره) وأراده في ذكر الملاحم أي الوقائع العظيمة المتضمنة القتل والاستئصال واتفق الشراح على أن هذا الفصل منها إشارة إلى ظهور القائم (عج)»[9].

---

١ . منهاج البراعة: ٩٨/٧.
٢ . المصدر نفسه: ٧٣/٧.
٣ . المصدر نفسه.
٤ . المصدر نفسه: ٢٠١/٧.
٥ . ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٣/٧.
٦ . المصدر نفسه: ٢٢١/٧.
٧ . منهاج البراعة: ٢٢٣/٧.
٨ . المصدر نفسه: ٢١٦/٥.
٩ . المصدر نفسه: ٣٠٨/٨.

ولعل من التأويلات البارزة التي تميزت بكثرتها عند الخوئي هي ما كانت في أهل البيت (عليهم السلام) نحو بيان فضلهم وكرامتهم، ومن بين الخطب التي تناولت هذا المعنى ما جاء في قوله (عليه السلام): «فَهُوا إمَامُ مَن آتقَى وبَصِيرَةٌ مَن آهتَدى»[1].

حيث يعني انه صلوات الله عليه واله قدوة المتقين وبصيرة المهتدين بهم في أسوة حسنة وهو «سرَاجٌ لَمَعَ ضوءُه وشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ، وزَندٌ بَرَقَ لَمعُهُ»[2] شبهه (عليه السلام) «بالسراج والشهاب والزند في كونه سبب هداية الخلق كما أن هذه الثلاثة كذلك ورشح التشبيه الأول بلمعان الضوء، والثاني بارتفاع النور والثالث ببروق اللمع ويحتمل أن يكون وجه التشبيه في الثالث إشارة أنوار الهداية»[3].

ومن التأويلات الخاصة بأهل البيت (عليهم السلام) قوله ويظهر «لكُم مَنْ يَجمعُكُم ويَضُمُّ نَشَرَكُم فَلاَ تَطمعُوا فِي غيرِ مُقبلٍ ولا تِيأسُوا مِن مُدبرٍ فإنَّ المُدبرَ عَسَى أنْ تَزلَّ إحَدى قَائمتَيْهِ»[4]، «أي تفرقكم، وأشار(عليه السلام) به إلى الإمام المنتظر اعني المهدي صاحب الزمان (عليه السلام)، وقيل أشار به إلى قائم بني العباس بعد انقضاء دولة بني أمية والأول اظهر»[5].

وأن قوله (عليه السلام) «ألا إنَّ مَثَلَ آل مُحمدٍ كَمثَلِ نجُمِ السّمَاءِ إذا حَوى نجمٌ طَلَعَ نَجمٌ» «أراد به الأئمة الأثنى عشر (سلام الله عليهم) وتشبيههم النجوم إما من حيث انهم يهتدى بهم في سبيل الله كما يهتدى بالنجم في ظلمات البر والبحر»[6]، ومنها أيضاً إشارته إلى واقعة الطف «وسيوفُكُم عَلَيهم مُسلّطةٌ وسيوفُهُم عَنكُمَ مقبوضةٌ ألا إنَّ لكُلِّ دمٍ ثِائراً ولكُلِّ حقٍّ طَالباً»[7]، «وما كان من بني أمية وتابعيهم فيها من سفك الدماء»[8].

وأشار إلى فضائله وكراماته يقول (عليه السلام): «اللّهم إنِّي أولُ مَنْ أنابَ وَسمِعَ وأجابَ لم يسبِقْنِي إلاّ رسُولُ الله (صَلّى اللهُ عليه وآله وسلم) »[9]. يقول الخوئي: أي «رجع إليك وسمع دعوة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأجاب أليه، ولم يسبقني ألا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالصلاة، أما كون هذه الجملة تأكيداً لما سبق فلأنه إذا كان أول الناس إسلاما مع عدم كون الإسلام معروفاً حينئذ متوقعا به الانتفاع في الدنيا، لابد وان يكون إسلامه لله سبحانه وابتغاء لرضاه، ومن كان هذا حاله في بداية أمره كيف يخطر ببال عاقل انه يطلب الدنيا وحطامها ويجرد عليها السيف في آخر عمره، وأما كونه (عليه السلام) أول من أناب وأجاب إلى الأيمان والإسلام فهو المتفق عليه بين الشيعة والمشهور بين الجمهور، لم يخالف في ذلك إلا شرذمة منهم لا يعتد بخلافهم»[10].

ومما أشار إليه في فضائله بقوله (عليه السلام): «وإنَّ مَعِي لبَصِيرتِي ما لبّسَت ولا لُبِّس عَلَيَّ وإنّها للفئةُ الباغيةُ فِيها الحَما والحُمةُ والشُّبَهةُ المَغلوفةُ»[11]، يقول الخوئي: «يحتمل احتمالا قويا أن يكون المراد انه ما لبست عليّ نفسي ولا على الناس امري وما اخبرني به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الحق بالاتباع أحق، وفي هذا الكلام تعريض عليهم بأنهم غابت عنهم

---

١ . المصدر نفسه: ٧٨/٧.
٢ . المصدر نفسه٨٧/٧.
٣ . المصدر نفسه: ٨٨/٧.
٤ . المصدر نفسه: ١٢٧/٧.
٥ . منهاج البراعة: ١٢٧/٧.
٦ . المصدر نفسه: ١٣١/٧.
٧ . المصدر نفسه: ١٣١/٧.
٨ . المصدر نفسه: ١٨٠/٧.
٩ . المصدر نفسه: ٢٢٩/٨.
١٠ . المصدر نفسه: ٢٢٩/٨.
١١ . المصدر نفسه: ٣٠٨/٨.

عقولهم وتاهت حلومهم، وان ما قدموا عليه أمر ملتبس وان خروجهم إنما هو بهوى النفس والناس مدلسون ما يلبسون»[1].

ومنها أيضاً ما كان في قول الإمام (عليه السلام): «كَمْ اطّرَدْتُ الأيامَ أبحثُهَا عَنْ مَكنُون هَذَا الأمرِ فأبى آللهُ إلاّ إخفاءَهُ»[2] ففي تأويله يقول الخوئي: «قلت: يمكن توجيهه بان يكون المراد بهذا بهذا الأمر خفاء الحق ومظلومية أهله وظهورالباطل وغلبة أصحابه وكثرة أعوانه لأنه (عليه السلام) سعى في أول الأمر في اخذ حقه غاية السعي فلم يتيسر وجرت الأمور لم يكن يخطر ببال أحد وقوع مثلها.
«وفي آخر الأمر لما انتهى إليه وحصل له الأنصار والأعوان وجاهد في الله حق الجهاد وغلب على المنافقين، سنحت فتنةالتحكيم التي كانت من غرائب الأمور، ثم بعد ذلك لما جمع العسكر وأراد الخروج إليهم وقعت الطامة الكبرى، فالمراد بالمكنون سر ذلك وسببه فظهر لي وأبى الله إلا إخفاءه عنكم لضعف عقولكم عن فهمه، إذ هي من غوامض مسائل القضاء والقدر»[3].

لعل هذا من أهم تأويلات الشارحين، مع وضوح آليات تأويلهم في ضوء هذا التأويل (التأويل التاريخي) في هذا المقام.

قائمة المصادر والمراجع

١- بحار الانوار محمد باقر المجلسي، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣.
٢- التاريخ احمد بن ابي يعقوب اليعقوبي تقديم السيد محمد صادق بحرالعلوم، المكتبة الحيدرية، النجف الاشرف ١٩٦٤.
٣- تاريخ الرسل والملوك ابو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨.
٤- شرح نهج البلاغة ابن ابي الحديد المدائني المعتزلي، تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧.
٥- شرح نهج البلاغة كمال الدين هيثم بن علي بن ميثم البحراني، ط١، مطبعة انور الهدى، قم، ايران، ١٤٢٧.
٦- العلل احمد بن حنبل بن محمد الشيباني، تحقيق وصي الله محمود عاس، المكتب الاسلامي، بيروت، د. ت.
٧- الغارات ابراهيم بن محمد الثقفي، ط١، تحقيق عبدالزهراء الحسيني، دار الكتاب، قم، د. ت.
٨- الفائق في غريب الحديث، محمود بن عمر بن جار الله الزمخشري، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ.
٩- كشف الغمة علي بن عيسى الاربلي، تعليق هاشم الرسولي، مكتبة بني هاشمي، تبريز، ١٣٨١هـ
١٠- المعيار والموازنة، ابو جعفر محمد بن عبدالله الاسكافي، تحقيق محمد باقر المحمودي، د. ت.
١١- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة العلامة المحقق حبيب الله الهاشمي الخوئي، صنفه المحقق حسن زاده الآملي، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٣.

١ . منهاج البراعة:٣٠١/٨.
٢ . المصدر نفسه: ١١٠/٩.
٣ . المصدر نفسه: ١١٦/٩.

الجناس في نهج البلاغة

الاستاذ المساعد الدكتور: مهين حاجي زاده

الاستاذ المساعد الدكتور: رقيه صادقي نيري (جامعة آذربيجان لإعداد المعلمين- تبريز)

الملخص

يعتبر الجناس، من أهم مباحث علم البديع أحد العلوم الثلاثة التي تتألف منها البلاغة العربية وهي: المعاني والبيان والبديع، وميدانها جميعا متضافرة هو نظم الكلام، وغايتها تأليفه على نحو يضفي عليه نعوت الجمال الفني فهي تكشف للمتعلم عن العناصر البلاغية التي ترقى بالتعبير صعدا نحو الكمال الفني، كما تضع بين يديه الأدوات التي يستطيع بالتمرس بها والتدرب عليها أن ينشىء الكلام البليغ.

الجناس أو التجنيس بتعريفه اللغوي هو: تشابه لفظين مع اختلافهما في المعنى.

يكثر استخدام الجناس في الأدب العربي وعلى وجه الخصوص الشعر، وهو يعتبر من الحلى اللفظية التي يستجهن الإكثار منها.

وهو على نوعين: الجناس اللفظي وهو أن يتفق اللفظين في الهيئة، وهو إما كامل أو ناقص، فالكامل هو أن يتفق اللفظان في نوع الحروف، وعددها، وهيئتها، وترتيبها.

والناقص ما اختل فيه أحد هذه الشروط.

والجناس المعنوي وهو إما جناس إضمار أو جناس إشارة، وجناس الإضمار قد يطلق عليه أحيانًا التورية، وهو أن يأتي بلفظ له معنى قريب ومعنى بعيد ويريد البعيد.

للجناس أو التجنيس أهمية إيقاعية دلالية في الشعر العربي، فإن أسلوب التجنيس يكسب الكلام حُسناً ويعود على المعنى بالتمكين في ذهن السامع، فهو من صميم البلاغة ومقاصدها التي تُؤمُّ.

ويتواشج الجناس مع السجع في نهج البلاغة.

وهذا يشبه تماماً مجيء قوافي الشعرمتجانسة في بعض الأشعار أو القصائد، فيزيد الإيقاع تناسقاً وتناسباً.

ويمكن القول أن الجناس، قد شكّل الموسيقى الداخلية للنص الأدبي في نهج البلاغة باعتبار هذه الفن البلاغي من مُشكّلات الموسيقى الداخلية في الشعر أولاً، وفي النثر أيضاً، لكنها في الشعر تترافق مع الوزن والقافية أو ما يسمّى بـ الموسيقى الخارجية.

أما في النثر فهي تنفرد لوحدها إيقاعياً، وهذا ممّا يزيد في أهميتها وفعاليتها. يحاول هذا المقال القاء الضوء على ظاهرة الجناس في نهج البلاغه ودورها في ايجاد الموسيقى في كلام امام الفصحاء وسيد البلغاء علي(عليه السلام).

الكلمات الرئيسية: علم البديع، الجناس، نهج البلاغة، الموسيقى.

المقدمة

إن نهج البلاغة، اسم وضعه الشريف الرضي على كتاب جمع فيه المختار من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، في جميع فنونه ومتشعبات غصونه.

وقد اشتمل على عدد كبير من الخطب والمواعظ والعهود والرسائل والحكم والوصايا والآداب، توزعت على ٢٣٨ خطبة و٧٩ بين كتاب ووصية وعهد، و٤٨٨ من الكلمات القصار، واحتوت على عوالم وآفاق متعددة منها: عالم الزهد والتقوى، عالم العرفان والعبادة، عالم الحكمة والفلسفة، عالم النصح والموعظة، عالم الملاحم والمغيبات، عالم السياسة والمسؤوليات الاجتماعية، عالم الشجاعة والحماسة وغير ذلك.

ولقد انفرد هذا المصنف بسمات قلما نجد لها مثيلاً في أي كتاب إسلامي آخر سوى القرآن والسنة النبوية، إذ لا نكاد نرى كتاباً تميز بقطعات مختلفة يجمعها سلك واحد من الشخصية والواحدة والأسلوب الواحد كما نراه في (نهج البلاغة).
وهو اليوم وبعد أربعة عشر قرناً من عهده، يحافظ على نفس الحلاوة والطلاوة، ونفس القدرة في تحريك العواطف والأحاسيس، تلك التي كانت له في عهده، رغم كل ما حدث من تحول وتغيير في الأفكار والأذواق والثقافات لأن كلماته لا تحدّ بزمان أو مكان، بل هي عالمية الوجهة، إنسانية الهدف، من حيث أنها تتجه إلى كل إنسان في كل زمان ومكان.
ومنذ أن صدر هذا الكتاب عن جامعه، سار في الناس ذكره، وتألق نجمه، وأعجب به كل من وصل إليه، وتدارسوه في كل مكان، لما اشتمل عليه من اللفظ المنتقى والمعنى المشرف، وما احتواه من جوامع الكلم في أسلوب متساوق الأغراض، محكم السبك يجمع بين البلاغة والشمول ويعد في الذروة العليا من النثر العربي الرفيع.
لقد شغل الإنسان بكل أبعاده، مختلف خطب الإمام علي (عليه السلام) وكلماته بهدف تحريره من ربقة الجهل وإنارة عقله بالعلوم والمعارف، تمهيداً لإيقاظه من سباته وبعثه على التأمل في الكون وما يتخلله من أنظمة ونواميس وما يحكمه من إرادة خفية دقيقة التنظيم، ليخلص من ذلك كله إلى الإيمان بالله خالق الكون وواهب الحياة.
هذه المعاني الإنسانية الخالدة التي تضمنها نهج الإمام علي (عليه السلام) جعلته موضع اهتمام الباحثين ورجال الفكر في كل عصر وجيل وسوف يبقى كذلك ما دامت العقول تكتشف فهي منطلقات جديدة لبناء هذا الإنسان حتى يعود إلى الصورة التي أراد لها الله أن تكون.

ترتيب نهج البلاغة ورصفه :

١- نستشفّ من مقدّمة الشّريف الرّضي أنّه رصف «نهج البلاغة»
في ثلاثة أقسام :

٢-١ الخطب

وهو أوّل قسم من أقسام النّهج وأوسعه. ويستوعب (٢١٤) خطبةً. ونجد في هذه الخطب موضوعات متنوّعة، من: فلسفة وإلهيات ومباحث مرتبطة بالصّفات الالهية والجبر والاختيار، إلى مسائل فقهية شرعية، ومن عرض العِبَر التّاريخية، إلى مسائل اجتماعية، ومن علم الظواهر إلى الوصايا الأخلاقية العميقة الدقيقة، ومن التّوبيخ أو النقد إلى الملاحم الأدبية والتوجيهات العسكرية.

٢-٢ الكتب

ونجد في هذا القسم (٧٩) كتاباً، منها الطّويل، ومنها القصير الّذي قد يضمّ جملتين أو أكثر. ونلحظ في هذه الكتب وصايا متنوّعة في ميادين متعدّدة، منها: الحكومة في الإسلام، والنّظام المالي بخاصّة نظام الزّكاة، وقضايا الحرب، ومؤاخذة الولاة، ووصايا أخلاقية.

٢-٣ الحِكَم أو قصار الكَلِم

ونقرأ في هذا القسم (٤٨٠) عبارة أُطلق عليها الحكم أو الكلمات القصار. وتتألّق الصّيغة الأخلاقية فيها أكثر من أي شيءٍ آخر.
ويشتمل هذا القسم على وصايا قصيرة في مجال الآداب الاجتماعية والأخلاقية ونظائرها.
حاول السيد الرضي في نهج البلاغة ـ كما يشير اسم الكتاب ـ إلى انتقاء أبلغ وأجمل الأحاديث المروية عن علي ليضعها في هذا الكتاب.
وهذه الخصوصية هي سر بقاء الكتاب وخلوده على الرغم من أحداث التاريخ العصيبة وسبب شهرته بين مختلف الفرق الإسلامية والشخصيات غير الإسلامية.
عدّ بعض الباحثين نحواً من ٣٧٠ مؤلفاً حول نهج البلاغة من الشرح والتفسير والترجمة وغيرها، وقد طبعت إلى الآن نحو من خمس عشرة ترجمة لنهج البلاغة.
وهذا ما يوضح إلى حد ما مكانة الكتاب وقيمته بين المسلمين.

هناك ترجمات فارسية كثيرة لنهج البلاغة، يمكن أن نذكر من أشهرها ترجمة السيد علي نقي فيض الإسلام والدكتورالسيد جعفر شهيدي.
حاول بعض الباحثين جمع ما لم يأت به السيد الرضي في نهج البلاغة من كلام الإمام.
وأهم هذه المحاولات هو نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة.
هذه المجموعة جمعها الشيخ محمد باقر المحمودي في ثمانية مجلدات.
هناك معاجم ألفاظ وموضوعات لنهج البلاغة سهلت البحث والرجوع إليه.
كما تم إعداد بعض البرامج الكمبيوترية لنهج البلاغة وبعض شروحه.
من أشهر تحقيقات نهج البلاغة تحقيق محمد عبده وصبحي الصالح.
كما يشتهر في اللغة الفارسية تحقيق فيض الإسلام.

الشمول والاستيعاب في نهج البلاغة

نهج البلاغة فريد في أسلوبه.. في فصاحته.. وبلاغته في حكمه في مواعظه وإرشاداته.. في تأثيره على قارئه وحافظه وسامعه، وليس من المبالغة إذا قيل فيه " إنه يعادل فوائده الدينية والأدبية كتب جميع العلماء والأدباء، كيف لا وهو تالي كتاب الله تعالى.
من المميزات السامية في كلمات الإمام (عليه السلام) المجموعة باسم (نهج البلاغة) والتي هي بين أيدينا اليوم: أنها لا تحدّد بصعيد واحد، فإنه (عليه السلام) لم يكن فارس الحلبة في ساحة واحدة، بل أنه صال وجال ببيانه في ميادين مختلفة لا يجتمع بعضها مع الآخر في الرجل الواحد.
إن نهج البلاغة عبقرية ولكنها ليست عبقرية واحدة في موضوع واحد كالموعظة مثلاً أو الحماسة فقط، بل في أصعدة مختلفة سنشرحها فيما يأتي.
أن تكون كلمة من العبقريات في موضوع واحد ليست كثيراً ولكنها توجد على أي حال.
أو أن تكون الكلمات في مختلف الموضوعات ولكنها عادية من دون عبقرية أيضاً كثيرة.
ما أن تكون الكلمات من العبقريات ومع ذلك لا تكون محدودة بصعيد واحد فتلك من خصائص (نهج البلاغة) فقط.
طبعاً إذا تجاوزنا عن القرآن الكريم - الذي هو كتاب من نوع آخر - فأي كتاب آخر نستطيع أن نجده متنوعاً في العبقريات البلاغية على مدى ما في (نهج البلاغة)؟!
إن الكلمة مرآة الروح الإنسانية، ولذلك فإن كل كلمة تتعلق بنفس العالم الذي يرتبط به روح صاحبها، فالكلمات التي تتعلق بعوالم عديدة تكون علامة على ذلك الروح الذي لم ينحصر في عالم واحد.
وحيث أن روح الإمام (عليه السلام)لا تتحدد بعالم خاص بل هو ذلك الإنسان الكامل الجامع لجميع مراتب الإنسانية والروحية والمعنوية، فلا تختص كلماته أيضاً بعالم واحد.
إن من مميزات كلاما الإمام (عليه السلام) أنه ذا أبعادٍ متعددة وليس ذا بعد واحد.
وإن هذه الخصيصة: خصيصة الشمول والاستيعاب في كلام الإمام (عليه السلام) ليس ممّا اكتشف حديثاً، بل هو أمر كان يبعث على العجب منذ أكثر من ألف عام، فهذا السيد الشريف الرضي (رحمه الله) الذي هو من علماء الإمامية في المائة الرابعة أي قبل ألف سنة، يلتفت إلى هذه النقطة فيعجب بها ويقول:
«ومن عجائبه التي انفرد بها: إن كلامه الوارد في الزهد والمواعظ والتذكير والزواجر إذا تأمله المتأمل وفكر فيه المفكر، وخلع من قلبه: أنه كلام مثله ممن عظم قدره ونفذ أمره وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترضه الشك في أنه كلام من لا حظ له في غير الزهادة، ولا شغل له بغيرالعبادة، قد قبع في كسر بيت أو انقطع إلى سفح جبل، لا يسمع إلا حسّه ولا يرى إلا نفسه.
ولا يكاد يوقن بأنه كلام من ينغمس في الحرب مصلتاً سيفه فيقطّ الرقاب ويجدل الأبطال ويعود به ينطف دماً ويقطر مهجاً، وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد وبدل الأبدال! وهذه من فضائله العجيبة وخصائصه اللطيفة التي جمع بها بين الأضداد وألف بين الأشتات.

وكثيراً ما أذاكر الإخوان بها واستخرج عجبهم منها.
وهي موضع العبرة بها والفكر فيها»[1].

وقال صفي الدين الحلي - المتوفى في القرن الثامن الهجري - بهذا الصدد:

جمعت في صفاتك الأضداد ... ولهذا عزت لك الأنداد
زاهد حاكم! حليم شجاع! ... فاتك ناسك! فقير جواد!
شيم ما جمعن في بشر قط ... ولا حاز مثلهن العبادُ
خلق يخجلُ النسيم من اللطف ... وبأس يذوب منه الجماد
جل معناك أن يحيط به الشعر ... ويحصي صفاتك النقاد[2]

وبعد كل هذا نقطة أخرى وهي: أن الإمام (عليه السلام) مع أنه إنما تكلم حول المعاني الحقة والواقعية بلغ ببلاغته الرائعة أوج العظمة والكمال!
إن الإمام (عليه السلام) لم يتكلم في الفخر أو الخمر أو الشعر وهي ساحات واسعة للخيال وللوصف الفصيح، ولم يقل ما قاله ليكون مقالاً جميلاً يضرب به الأمثال فيبدي بذلك مهارته الفنية في الكلام، كلا، إذ لم يكن الكلام هدفاً له بل وسيلة إلى أهدافه، إنه لم يرد أن يخلف لنا بمقاله أثراً فنياً أو يبدي عبقرية أدبية.
وأكثر من هذا، إن كلامه عام غير محدود بحدود الزمان أو المكان أو الأشخاص بشكل خاص، بل هو يخاطب (الإنسان) ولذلك فكلامه لا يعرف حداً للزمان أو المكان.. وكل هذه الأمور ممّا يقيد القائل ويضيق موضوع مقاله.
إن العمدة في الإعجاز اللفظي للقرآن الكريم هي: أن الفصاحة والجمال فيه ممّا أعجز الإنسان العربي، مع أن موضوع مطالبه كان يغاير الكلام المتداول في عصره، متعلقاً بعالم آخر غير هذا العالم، ومع ذلك أصبح مفتتح عهد جديد للأدب في العرب بل العالم.
وقد تأثر به (نهج البلاغة) في هذه الناحية أيضاً كسائر الخصائص والصفات، فهو في الحقيقة وليد القرآن الكريم ومن كلمات علي (عليه السلام) وليد البيت العظيم - الكعبة المعظمة.
وقال ابن أبي الحديد : وأما الفصاحة فهو عليه السلام إمام الفصاحة، وسيد البلغاء، وفي كلامه قيل : دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين. ومنه تعلّم الناس الخطابة والكتابة[3].

من أسرار تمايز كلام الامام (عليه السلام) المجموع في نهج البلاغة عن غيره من قادة البيان و سادة الخطباء، الأداء البياني الرفيع والبناء الصوتي القائم على اثارة ذهن المتلقي وتنبيهه بكل أنماط التعبير الإيقاعي.
ومن أهم هذه الأنماط، هوالجناس الذي يعتبر من أهم مباحث علم البديع أحد العلوم الثلاثة التي تتألف منها البلاغة العربية وهي: المعاني والبيان والبديع، وميدانها جميعا متضافرة هو نظم الكلام، وغايتها تأليفه على نحو يضفي عليه نعوت الجمال الفني فهي تكشف للمتعلم عن العناصر البلاغية التي ترقى بالتعبير صعدا نحو الكمال الفني، كما تضع بين يديه الأدوات التي يستطيع بالتمرس بها والتدرب عليها أن ينشىء الكلام البليغ.

١- الجناس

الجناس صنف بلاغي يرجع الى جرس الكلمة وتأليف حروفها وانسجام هذا التأليف في النطق[4].

النطق[4].

---

١ . ابن أبي الحديد، ١٩٥٩: ٤٩/١.
٢ . (صفي الدين الحلي، د.ت: حرف الدال.
٣ . ابن أبي الحديد، ١٩٥٩: ٢٤/١.
٤ . سلامة، ١٩٥٢: ١١٦.

فقد ذكر ابن المعتز أن المجانسة «هي ما تكون الكلمة تجانس أخري في تأليف حروفها و معناها وما يشتق منها»[1].

ويعرفه السكاكي بقوله: «تشابه الكلمتين في اللفظ».[2]

ويبدو جماله في ما يلجأ اليه المجنس لاختلاب الأذهان«فبينما هو يراك أنه سيعرض عليك معني مكرراً ولفظاً مردداً لا تجني منه غير التطويل والانقباض والسامة إذ هو يروق منك فيجلو عليك معني مستحدثاً يغاير ما سبقه كل المغايرة وان حكاه في نفس الصورة وذات المعرض فتأخذك الدهشة لهذه المفاجأة السارة اللذيذة التي أجدت عليك جديداً لم يقع في حسابك، ولا ريبة في أن كل طريف يفجأ النفس ويباين ما كانت تنتظره تتنزي له وتستقبله بالبشري وبالفرح»[3].

بيد أن روعة التجنيس في افادته المعني، يقول عبد القاهر الجرجاني«ان ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعني إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحق»[4].

١- أنواع الجناس في نهج البلاغة

كل ضروب الجناس جاءت في نهج البلاغة وكان مما أثريت به عباراته بالجرس والايقاع وهي كثيرة مثل:

١-٥الجناس التام:

وهو من أركان جرس الألفاظ في التجنيس و«وأعلى أنواع الجناس»[5].

يسميه القاضي الجرجاني وعبد القاهر الجرجاني المستوفي بينا أطلق عليه ابن الأثير التجنيس الحقيقي[6].

وصورته أن يتفق اللفظان المتجانسان«في أنواع الحروف وأعدادها وهيأتها وترتيبها»[7].

ويعتبر هذا النوع من الجناس أكمل أصنافه إبداعا وأعلاها رتبه وهذا الصنف من الجناس ينقسم بدوره إلى ثلاثة أنواع هي:

٥-١-١ الجناس التام المماثل:

وهو ما كان ركناه(أي لفظاه) من نوع واحد من أنواع الكلمة، بمعنى أن يكونا اسمين أو فعلين أو حرفين.

٥-١-٢ الجناس المستوفى:

وهوأحد أنواع الجناس التام، وهو ماكان ركناه أي لفظاه من نوعين مختلفين من أنواع الكلمة،كان يكون أحدهما حرفا والأخر اسما أو فعلا.

٥-١-٣ جناس التركيب:

وهو ثالث أنواع الجناس التام،وهو ماكان ركيتيه (أي لفظيه)كلمة واحدة، والأخرى مركبة من كلمتين،الجناس التام بكل أنواعه لم ير في في نهج البلاغه إلا في موضعين، لأن الأصل المعنى، ثم الصنعة لا توخي الصنعة علي حساب المعنى.

---

١ . ابن المعتز،١٩٣٥: ٢٥؛ ابن الأثير، ١٩٨٣: ٢٤١/١.
٢ . السكاكي، ١٩٨٣: ٤٢٩.
٣ . الجندي، ١٩٥٤: ٢٩ ــ ٣٠.
٤ . جرجاني، ١٩٥٤: ١٢.
٥ . الصفدي، ١٢٩٩: ٢٠.
٦ . أنظر: عبد القاهر الجرجاني، ١٩٥٤: ٢٢-٢٣؛ القاضي الجرجاني، ١٩٥١: ٤٢؛ ابن الأثير، ١٩٨٣: ٣٤٣/١ .
٧ . القزويني، ١٩٣٢: ٣٨٨.

نحو قوله (عليه السلام) من خطبة واعظاً «فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ وَالْأَعْمَى إِلَيهَا شَاخِصٌ وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ وَالْأَعْمَى لَهَا مُتَزَوَّدٌ»[1].

فقصد بلفظة(الشاخص) الأولى الراحل الذي يشخص للسفر، كقولهم: «نحن على سفر قد أشخصنا أي حان شخوصنا»[2].

وتعني الشاخص الثانية المرتقب المتلهف الى أمر أدهشه ف«الشاخص إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف»[3].

وكذلك وقع التجنيش التام في لفظة (متزود) فالأولى تعني الراحل المسافر عن الدنيا والثانية تعني الراحل اليها والقاصد لها[4].

ووقع التجنيس التام في قوله في أولياء الله: «وَاسْتَقْرَبُوا الْأَجَلَ فَبَادَرُوا الْعَمَلَ وَ كَذَّبُوا الْأَمَلَ فَلَاحَظُوا الْأَجَل »[5] فقد وقع التجنيس التام في لفظة(الأجل) إذ تعني الأولى المدة من الوقت وتعني وتعني الثانية(الموت)[6].

٥- ١ الجناس الناقص

يسميه ابن الأثير المشبه بالتجنيس وهو «أن تكون الألفاظ مختلفة في الوزن و التركيب بحرف واحد»[7].

وذكر الخطيب القزويني أن الحروف المتجانسين«إن اختلفا في أعدادها سمي ناقصاً»[8].

واتخذ امام (عليه السلام) من هذا التجنيس وسيلة لتقوية جرس الفاظه سالكاً في ايراده بعفوية التعبير القراني كقوله موصياً: «وَأَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلهك»[9] فبين(الى) و(الهك) جناس ناقص بزيادة اكثر من حرف و يسميه السيوطي (المذيل)[10].

ومما جاء من اختلاف في الجرس في أول الكلمة قوله (عليه السلام) في وصف آل محمد(صلي الله عليه وآله وسلم):«إِلَيهِمْ يفِيءُ الْغَالِي وَبِهِمْ يلْحَقُ التَّالِي»[11].

فقد تغايرالحرفان الأوليان في اللفظين المتجانسين(الغالي) و(التالي). وفي ذلك فضل من التنغيم بين في العبارة. ومن اختلاف وسط اللفظين المتجانسين قوله(عليه السلام) مستغفراً: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي رَمَزَاتِ الْأَلْحَاظِ وَسَقَطَاتِ الْأَلْفَاظ»[12].

وفي آخرهما قوله: «فَإِنَّ الدُّنْيا رَنِقٌ مَشْرَبُهَا رَدِغٌ مَشْرَعُهَا»[13].

ويبدو أن استعمالات هذا النوع من التجنيس كثيرة في نهج البلاغة.
فكلها تجنيسات أسبغت علي العبارة ثراء نغمياً امتزج امتزاجاً مع دلالات الفاظه.

٥- ١جناس التصحيف

---

١ . الخطبه: ١٣٣.
٢ . الزمخشري، ١٩٧٩: مادة شخص.
٣ . ابن منظور، ١٩٥٥: مادة شخص.
٤ . ابن أبي الحديد، ١٩٥٩: ٨/ ٢٧٦.
٥ . الخطبه: ١١٤.
٦ . ابن أبي الحديد، ١٩٥٩: ٧/ ٢٥٥.
٧ . ابن الأثير، ١٩٨٣: ١/ ٢٤٩.
٨ . القزويني، ١٩٣٢: ٣٩٠.
٩ . نامه:٣١.
١٠ . السيوطي، ١٩٦٧: ٢/٢٤٤.
١١ . الخطبة: ٢.
١٢ . الخطبة: ٧٨.
١٣ . الخطبة: ٨٣.

ويسمى جناس الخط وهو أن يتفق اللفظان المتجانسان في شكل الحروف و يختلفان في تنقيطها[1].
تنقيطها[1].
و من مفردات عناصر التاثير هذا النوع من التجنيسات فقد وقع في كلام الامام(عليه السلام) كثيراً، نحو قوله في المتقاعسين عن استجابة أمره: «أَضْرَعَ اللَّهُ خُدُودَكُمْ وَ أَتْعَسَ جُدُودَكُم»[2].

فما بين (خدود) و(جدود) تماثل في رسم الحرف وتباين في وضع النقط.
ومثل هذا الجناس وقع قوله (عليه السلام) في دعواته لمحاربة الشيطان: «فَاجْعَلُوا عَلَيهِ حَدَّكُمْ وَلَهُ جِدَّكُم»[3].

ويبدو الجرس عالياً في امثال هذه التركيبات الجميلة في كلام الامام (عليه اسلام) بسبب توافر عناصره فيها فقد أقيمت علي أسلوب التوازن، والتوازن من أهم مظاهر الايقاع الصوتي وجيء بالتجنيس الناقص بين لفظتي (نومكم) و(يومكم) على أساس التشابه في رسم الخط لحروف اللفظتين.
ولا شك أن لكل تلك العناصر أثرها الواضح في إغناء العبارة بالجرس و تقويته إمعاناً في شد المتلقي للتأثير فيه وبلوغ المراد من الهدف الأهم من الخطابة وهو الإقناع، لأن أكثر مظاهر الجناس في كلام الإمام(عليه السلام) جاءت في فنه المسموع وهو الخطابة، وقلت في فنه المقروء وهي الرسائل.

٥-١ جناس التحريف

وهو تشابه اللفظين المتجانسين في رسم الحروف واختلافهما في تشكيلها[4].

وهو سبيل آخر في تقوية الجرس واثراء العبارة بالايقاعات الصوتية.
ومما جاء من هذا الضرب من التجنيس في نهج البلاغة قول الامام (عليه السلام): «فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحِرْزُ وَالْجُنَّةُ وَفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلَى الْجَنَّةِ »[5].

فالجنة وهي ما يتقي به من درع ونحوه[6] تماثل الجنة في الحروف ولكن تختلفان في تشكيل حرف الجيم فيهما.
ونحو هذا قول الامام(عليه السلام) في خلقة الطاووس:«فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ قُلْتَ جَنَّى جُنِي مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبِيع»[7].

فالجني هو الثمرالذي حان قطافه[8] و(جني) فعل مبني للمفعول.

من البين أن هذه التجنيسات كانت من آليات التنغيم في كلام الامام (عليه السلام) و أسباب تقوية جرس ألفاظه.

٥-١ الجناس المضارع

وهو أن يختلف اللفظان المتجانسان بحرف مقارب في المخرج سواء كان في الأول أم الوسط أم الاخر[9].

ولا شك أن في تقارب مخارج الحروف بين الالفاظ المتجانسة يعني إضفاء مزيد من النغم الصوتي لأن فيه تشابهاً للتجنيس التام الذي يتكرر فيه جرس اللفظ ذاته.

---

١ . السيوطي، د.ت: ٢٥٥- ٢٥٦.
٢ . الخطبة: ٦٩.
٣ . الخطبة: ١٩٩.
٤ . السيوطي، د.ت: ٢٥٦/١.
٥ . الخطبة: ١٩١.
٦ . ابن منظور، ١٩٥٥: مادة جنن.
٧ . الخطبة: ١٦٥.
٨ . ابن منظور، ١٩٥٥: مادة جني.
٩ . ابن رشيق، ١٩٥٥: ٣٢٦/١؛ السكاكي، ١٩٨٣: ٤٢٩.

وهو في نهج البلاغة كثير، قال الامام(عليه السلام) من خطبة محذراً وواعظاً: «وَإِنَّمَا حَظُّ أَحَدِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّوْلِ وَالْعَرْضِ قِيدُ قَدِّهِ مُتَعَفِّراً عَلَى خَدِّه»[1].

فكأننا أمام تجنيس تام بين لفظتي (الأرض) و(العرض) بسبب قوة تشابه نطق حرفي الهمزة والعين فهما من حروف الحلق[2].

ولا نستطيع الجزم بأن قوة الجرس في ألفاظ هذه العبارة جاءت من هذا التجنيس وحده بل اشترك التوازن بين الفقرتين والجناس الناقص الآخر بين (قده) و(قيده) في اثراء العبارة بهذا الجرس العالي النغمة.

وفي مثال آخر قال الامام (عليه السلام) منتصفاً لنفسه «وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً وَأَعْلَاهُمْ فَوْتاً فَطِرْتُ بِعِنَانِهَا وَاسْتَبْدَدْتُ بِرِهَانِهَا كَالْجَبَلِ لَا تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ وَلَا تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِي مَهْمَزٌ وَلَا لِقَائِلٍ فِي مَغْمَزٌ»[3].

فقد جاء التضارع في الحروف بين (القاف) و(العين) في لفظي(القواصف) و (العواصف) لأنهما من حروف الحلق وبين (الهاء) و(الغين) في لفظي (مهمز) و(مغمز) للسبب ذاته.

٥-١جناس الاشتقاق

هو اجتماع اللفظين المتجانسين في أصل الاشتقاق، و يسمى المقتضب[4].

وللاشتقاق دور بارز في تقوية رنين الألفاظ، وكان هذا الأسلوب مما توافر امير المومنين(عليه السلام) في كلامه كله، وهو بعد في نهج البلاغة من أكثر أنواع الجناس وروداً، ولعل خير أمثلته ميل الامام(عليه السلام) الى التشبيهات البليغة المشتقة مصادرها من أفعالها.

ومن أمثلة هذا التجنيس خطبة الإمام(عليه السلام) في وصف المنافقين، إذ حفلت كثيراً بالجناس الاشتقاقي،كقوله

«أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَ أُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ وَ الزَّالُّونَ الْمُزِلُّونَ يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً وَيَفْتَنُّونَ افْتِنَاناً وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ وَ يَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَاد »[5].

فقد جاءت الاشتقاقات بشكل مباشر، مشتق إثر مشتق فكثف من الجرس و منعه من التشتت، إذ وقع مشتقان من أصل واحد في كل فقرة فالضلال أصل (الضالون المضلون).

والزلل أصل(الزالون المزلون).

واللون أصل (يتلونون ألواناً) والفتنة أصل(يفتنون افتناناً).

وكذلك القول في: (يعمدونكم بكل عماد) فأصلهما العمد.

و(يرصدونكم بكل مرصاد) وأصلهما من الرصد.

ومن كتاب الي أهل الكوفة عند مسيره من المدينة الى البصرة قال(عليه السلام):

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي خَرَجْتُ مِنْ حَيِي هَذَا إِمَّا ظَالِماً وَإِمَّا مَظْلُوماً وَإِمَّا بَاغِياً وَإِمَّا مَبْغِياً عَلَيهِ وَإِنِّي أُذَكِّرُ اللَّهَ مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هَذَا لَمَّا نَفَرَإِلَي فَإِنْ كُنْتُ مُحْسِناً أَعَانَنِي وَإِنْ كُنْتُ مُسِيئاً اسْتَعْتَبَنِي»[6].

فقد جاءت الاشتقاقات(ظالماً، مظلوماً) و(باغياً، مبغياً) وفي ذلك تكرير لمقاطع الصوت وتقوية لجرسها والامام (عليه السلام) بدأ بلفظ الظالم والباغي ابطالاً لحجة خصمه في الادعاء علي الامام(عليه السلام) بالظلم والبغي.

ويقع جناس الاشتقاق كثيراً في حكم الامام (عليه السلام) وقصار كلمة قوله :

«لَاطَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيةِ الْخَالِقِ»:[1] وقوله :«مَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صَرَعَه »[2].

---

١ . الخطبة: ٨٣.
٢ . ابن جني، ١:١٩٥٤/٦٩ .
٣ . الخطبة: ٣٧.
٤ . السكاكي، ١٩٨٣: ٤٣٠.
٥ . الخطبة: ١٩٤.
٦ . الكتاب: ٥٧.

وهو قاصد في كل ذلك الى إدخال هذه الموسيقى اللفظية لما لها من أثر في علوقها في الأذهان الأمر الذي يفسر بقاء حكمه عليه السلام الى اليوم لخفتها على الأسماع.
وهو بعد لا ريب قصد حتمته الوظيفة الدلالية ومدى ارتباطها بها وإلا لبان خلل توخيه واضحاً لو كان في استقصاده قهر للمعنى ولي.
وهكذا بدا أن لاسترجاع الصوت في التجنيس الاشتقاقي أثرا كبيراً في إسباغ الموسيقي على الكلام لذا كثر في استعماله استعمالا ربط الشكل بالمضمون من خلال الجرس.

٥ ـ ٢ الجناس المعكوس

هو تأخير اللفظ المقدم من الكلام وتقديم اللفظ المؤخر[٣].

إذن هو تكرار منتظم للألفاظ والحروف جميعاً.
ولذا يسمس المعكوس، فهو: «أن تعكس الكلام فتجعل الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول»[٤]، ووصف أثره العلوي في الكلام، بقوله: «وله في التجنيس حلاوة ويفيد الكلام رونقاً وطلاوة»[٥].

ويبدو أن ابن الأثير أول من عدّ العكس جناساً أو مشبهاً بالتجنيس[٦].

كان جناس العكس أحد وسائل الإمام(عليه السلام) في إحداث التنغيم، وأمثلته في نهج البلاغة كثيرة، فمما تتمثل له كتب البلاغة القديمة قول الإمام (عليه السلام) من كتاب الى عامله عبدالله بن عباس: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يسُرُّهُ دَرْكُ مَا لَمْ يكُنْ لِيفُوتَهُ وَيسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يكُنْ لِيدْرِكَه»[٧].

ففي صدر كلامه أخر ما قدم في لفظة(درك) وقدم ما آخر في لفظة (فوت) مما يعني تكرارا منتظماً أحدث معه ايقاعاً تستلذه الأسماع فتنشد اليه النفوس.
وفي الحق لم يكن الإمام (عليه السلام) يقصد الى هذا الجرس في الألفاظ بقدر توخيه المعنى، فهو ناتج ثانوي عما يريد الإمام (عليه السلام) إظهاره من دلالات هذا التقليب. ففي النص السابق أراد بيان حال تقلب النفس الإنسانية بين المسرة والرضا.
ويبدو أن ابن عباس أدرك هذا المعنى حين قال:«ما انتفعت بكلام بعد كلام الله تعالى مثل هذا الكلام»[٨].

ومثل هذا قول الإمام (عليه السلام) في بيان حال تقلب الدنيا: «أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيا مَا كَانَ مُقْبِلًا وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِرا»[٩].

وتبدو قوة الجرس في هذا التجنيس ممتزجة من اللفظة المعكوسة ومن الإشتقاق ايضاً.
فلفظة (أدبر) أعيدت أصواتها مشتقة بلفظة(مقبل) أعيدت بلفظة (أقبل).
فكأنه مكتنف على جناسين العكس والاشتقاق.
ولا شك أن في هذا الاسلوب الذي يستبطن التجنيسين مزيداً من التنغيم يسبغ على العبارة، نحو قوله عليه السلام: «اسْتَقْبَلُوا مُدْبِراً وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلا»[١٠].

---

١ . الحكمة: ١٦٥.
٢ . الحكمة: ٤٠٨.
٣ . القزويني، ١٩٨٥: ٣٢٩/١-٣٣٠.
٤ . العسكري، ١٩٥٢: ٢٩٣.
٥ . العلوي، ١٩١٤: ١٩١/٢.
٦ . ابن الأثير، ١٩٨٣: ٣٥٦/١.
٧ . الكتاب: ٢٢.
٨ . ابن أبي الحديد،١٩٥٩: ١٥/ ١٤٠.
٩ . الخطبة: ١٨٢.
١٠ . الخطبة: ١٥٣.

وقوله: «وَيصدَعَ شَعْباً وَيشْعَبَ صَدْعا»[1].

ومثل هذا قول الامام (عليه السلام) :
«وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً وَلَتُسَاطُنَّ سَوْطَ الْقِدْرِ حَتَّى يعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلَاكُمْ وَأَعْلَاكُمْ أَسْفَلَكُمْ وَلَيسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا وَلَيقَصِّرَنَّ سَبَّاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا»[2].

فهذا التنغيم أريد به تصوير حالة القلب والخلط التي ينذر بها من أحداث الفتنة وكان لتكرارالأصوات على هذا النحو المعكوس أثره في إنشداد الايقاع الى مضمونه.
فقدم وأخّر ما بين ألفاظ الجمل للاشارة الى هذا التقليب.
نخلص من ذلك أن الجناس المعكوس تصوير بالجرس للمعنى قد اتخذ منه الإمام (عليه السلام) ليس وسيلة ايقاع فحسب بل أداة كشف للنفس الانسانية، قال من كتاب يصف مالك الأشتر:
«فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَا يخَافُ وَهْنُهُ وَلَا سَقْطَتُهُ وَلَا بُطْؤُهُ عَمَّا الْإِسْرَاعُ إِلَيهِ أَحْزَمُ وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا الْبُطْءُ عَنْهُ أَمْثَل»[3].

فقد أوجز الإمام (عليه السلام) بهذه الكلمات المعكوسة تعقيدات النفس الإنسانية من رضا وإعراض يترتب عليه البطء والإسراع في الإقبال على السلوك.
وقد يجري الامام (عليه السلام) على طبعه فيمضي الألفاظ بجرس أخف، نحو قوله:
«اتَّقُوا اللَّهَ تَقِيةِ مَنْ شَمَّرَ تَجْرِيداً وَجَدَّ تَشْمِيرا»[4].

فقد كان يمكن أن يقول(و جرد تشميراً) ولكنه آثر إجراء الكلام علي مقتضي طبعه.

النتيجة

١- وكانت النتيجة المستخلصة من البحث كله هي أن كلام الامام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة من أرقى نماذج النصوص البلاغية في التعبير الفني.
٢- وأنّ علي بن أبي طالب أديبٌ عظيمٌ نشأ على التمرّس بالحياة وعلى المرانة بأساليب البلاغة فإذا هو مالكٌ ما يقتضيه الفنّ من أصالةٍ في شخصية الأديب، ومن ثقافة خاصّة تنمو بها الشخصية وتتركزالأصالة.
٣- أن الجناس، يشكّل الموسيقى الداخلية للنص الأدبي في نهج البلاغة باعتبار هذا الفن البلاغي من مُشكّلات الموسيقى الداخلية في الشعر أولاً، وفي النثر أيضاً، لكنها في الشعر تترافق مع الوزن والقافية أو ما يسمّى بـ الموسيقى الخارجية. أما في النثر فهي تنفرد لوحدها إيقاعياً، وهذا ممّا يزيد في أهميتها وفعاليتها.
٤ - إن الإمام (عليه السلام) اقتفى أسلوب التعبير القرآني في طللب الجرس وتقويته في ألفاظه على نحو ربط فيه المضمون بالأداء، فكان نهج البلاغة صدى حقيقياً لايقاع التعبير القرآني بسبب قدرته على تمثل المعنى القرآني الجديد وطريقة تأديته بلغة فنية جديدة، وكانت تلك السمة خصيصة تميز بها عن أهل زمانه.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن أبي الحديد، عبد الحميد(١٩٥٩). شرح نهج البلاغه، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة: دار الإحياء التراث العربي.
- ابن الأثير، ضياء الدين(١٩٨٣). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق احمد الحوفي وبدوي طبانة، الرياض: دار الرفاعي، ط٢.
- ابن المعتز، عبدالله(١٩٣٥). البديع، تحقيق كراتشوفسكي، لندن: مطبوعات جب التذكارية.

---

١ . الخطبة: ١٥٠.
٢ . الخطبة: ١٦.
٣ . الكتاب: ١٣.
٤ . الحكمة: ٢١٠.

- ابن جني،عثمان(١٩٥٤). سر صناعة الإعراب، تحقيق مصطفى السقا، و محمد الزفزاف، وابراهيم مصطفي، وعبدالله أمين، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط١.
- ابن رشيق، الحسن(١٩٥٥). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة السعادة، ط٢.
- ابن منظور، محمد بن مكرم(١٩٥٥). لسان العرب، لبنان: دار صادر.
الجرجاني، أبوبكر(١٩٥٤). أسرار البلاغة، تحقيق هلموت ريتر، استانبول: مطبعة وزارة المعارف، ط٢.
- الجندي، علي(١٩٥٤). فن الجناس، مصر: مطبعة الاعتماد.
- الحلي، صفي الدين(د.ت). الديوان، دار صابر.
- الزمخشري، ابو القاسم(١٩٧٩). أساس البلاغة، بيروت: دار صادر.
- السكاكي، أبو يعقوب(١٩٨٣). مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت: ط١.
- السلامة، ابراهيم(١٩٥٢). بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، مطبعة مخمير، الطبعة الثانية.
- السيوطي، جلال الدين(١٩٦٧). الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة: مطبعة المشهد الحسيني.
- السيوطي، جلال الدين(د.ت).معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق على محمد البجاوي، دار الفكر العربي للطباعة.
- الصفدي، صلاح الدين(١٢٩٩هـ). جنان الجناس في علم البديع، قسطنطنية: مطبعة الجوائب، ط١.
- العسكري، أبو هلال(١٩٥٢). كتاب الصناعتين، تحقيق محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية.
- العلوي، يحيي بن حمزة(١٩١٤). الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم دقائق الإعجاز، تصحيح سيد بن علي المرصفي، مصر: مطبعة المقتطف.
- القاضي الجرجاني،علي بن عبد العزيز(١٩٥١). الوساطة بين المتنبي و خصومه، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ط ٣.
- القزويني، جلال الدين(١٩٣٢). التلخيص في علوم البلاغة، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، القاهرة: المكتبة التجارية.
- القزويني، جلال الدين(١٩٨٥). الإيضاح في علوم البلاغة، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١.

الخطاب السردي في نهج البلاغة خطاب الأنا - الآخر إنموذجا

الاستاذ المساعد الدكتور: سوسن البياتي (جامعة تكريت / كلية الآداب)

الاستهلال:

سارت المنهجيات الحديثة في الفكر النقدي العربي باتجاه مصطلحي مغاير لما هو مألوف، إذ انتشرت المصطلحات الغربية انتشارا واسعا، وأُخذت على علاتها من دون غربلة أو تصحيح أو توضيح، وكانت نتيجة هذا كله حدوث خلل وإرباك في الجهاز المصطلحي أولا، وتعميم المصطلحات على كافة الجوانب العلمية من دون الأخذ بنظر الاعتبار دقتها ومدى مطابقتها لهذه العلوم.

ومصطلح الخطاب مصطلح عام يرتبط ارتباطا قسريا بوجود أطراف المعادلة الكلامية، فهناك متكلم يُلقي خطابه – أي كلامه – على السامع الذي يمكن أن يشكل الجمهور وقد يشكل متلقيا من نوع خاص، وهناك رسالة يود المتكلم إيصاله وهي هنا تمثل الخطاب، وقد ابرز ياكبسون هذه العلاقة وحدد أركانها بالمرسل والرسالة والمرسل إليه وهي ثلاثية لايمكن أن ينفصل احدها عن الآخر.

والمصطلح السردي هنا مصطلح له خصوصيته الدالة على ارتباط المحكي بالجوانب الحكائية، التي تشترط مسبقا وجود نص سردي قابل لئن يُحكى، ووجود سارد أو راو يأخذ على عاتقه عملية التفاعل بينه وبين المتلقي الذي يقف في الجهة المضادة له، جهة استلام الخطاب المحكي.

وإذا كان كتاب «نهج البلاغة» كتاب تنبع أهميته في كونه كتابا زاخرا بالمواعظ، والحكم الإنسانية الخالدة التي يفيد منها الناس، فانه في الوقت ذاته يمثل كتابا أدبيا يحوي قصص وتجارب حياتية عاشها الإمام علي، فضم الكتاب كل ما وصل إلى الشريف الرضي من خطب شفوية أو خطية له.

إلا أن مايهمنا هنا أن نستقصي الملامح السردية التي تكمن آثارها في هذا الاتصال السردي بين الأنا والآخر بوصفهما قطبين سرديين متضادين قلما يلتقيان، ومن هنا ستنطلق هذه الدراسة في تحديداته السردية واستكشاف معالمها القصصية من خلال هذا الملمح البارز اعتمادا على النصوص المتوافرة لدينا من هذا الكتاب.

وحرصا منا على أن يكون الاستكشاف الذي ننطلق منه في دراستنا محددا بطبيعة العمل الذي هو قيد الدراسة، فقد آثرنا أن نرتكز في دراستنا على عهد للإمام علي(عليه السلام) كتبه للاشتر النخعي لما ولاه على مصر وأعمالها، حين اضطرب أميرها محمد بن أبي بكر– وهو أطول عهد، واجمع كتبه للمحاسن كما جاء في توصيف له – وهذا الارتكاز إنما ينطلق من مبدأين :

يقوم الأول في أن التمثيل السردي لخطاب/ الأنا والآخر بارز وواضح، وهو نقطة الشروع والمرتكز الأساس في هذه الدراسة.

أما الآخر فيقوم على طول الخطبة وعدم تشعبها وقصرها كما هو الحال مع الخطب الأخرى، وطول الخطبة سيمنح الباحث فرصة للتدخل والاستنتاج والحرص على التحليل وهو المحور الأهم في دراستنا هذه، إذ طالما اعتمدنا النص مقترب سردي ننطلق منه في التحليل وربط البراهين السردية وقوانين اللعبة السردية به مع الحرص على عدم الخروج من المنطقة المشروعة.

وقبل أن نلج في طريقة ترسب هذه الأنا والآخر في قاع السرد سنحاول الوقوف – ولو بنظرة مبسطة– على مفهوم الخطاب عامة والسردي على وجه الخصوص وتجليات الأنا/ الآخر في الخطاب السردي.

مفهوم الخطاب وتجليات الأنا / الآخر

يعد ميشيل فوكو أول من استطاع أن يحفر لمفهوم الخطاب سياقا دلاليا اصطلاحيا، وقد حدده بأنه«شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب ينطوي على الهيمنة والمخاطر في الوقت نفسه»[١]، فيما يعرفه أميل بنفسيت بأنه: «ملفوظ موجه من مرسل إلى متلق، يسعى فيه المرسل إلى التأثير في المتلقي بشكل من الأشكال »[٢]، بمعنى انه رسالة، ومثل هذه الرسالة لاتأتي من فراغ بل لابد لها من موجهات أسلوبية ولغوية ودلالية والاهم من أن ذلك أن هذه الرسالة «تندرج في العالم الثقافي الذي ينتمي إليه مرسلها، وتحمل كل القيم، جمالية كانت أو اقتصادية، أو سياسية، أو دينية، أو تراثية، أو ما إلى ذلك مما يدخل في تركيبة عالم ثقافي معين»[٣].

ويتعدد الخطاب بتعدد الثقافات التي ينتمي إليها، فهناك الخطاب السياسي، والخطاب الديني والخطاب الاجتماعي، والاقتصادي، والأدبي، ولكل خطاب خصوصيته وهويته ولغته المعبرة عنه، وما يهمنا هنا هو الخطاب الأدبي، وما ينضوي تحته من أنواع الخطاب الأدبية عموما، والسردية على وجه الخصوص.

فالخطاب الأدبي يشكل نوعا له خصوصيته الثقافية، يختلف عن الأنواع الأخرى، ومجرد توصيف الخطاب بالأدبي يعني ثمة وجود لخطابات أخرى.

لقد أسهم الخطاب السردي في استبيان العلاقة الإشكالية بين الذات / الآخر، وغدت هذه العلاقة جدلية لايمكن لها أن ترسي سفنها في بر الأمان، طالما أن الذات / الأنا تنظر إلى نفسها على أنها القطب الرئيس وأن الآخر لايشكل سوى تهديد لها بغض النظر عن طبيعة هذا الآخر ودوره في هذا التهديد، وأن الآخر لايمكن له الاطمئنان إلى نوايا الآخر بالنسبة له، فبينهما صراع طويل من العداء الفكري قبل أن يكون عداء تاريخيا.

وقد ابتدأ هذا الصراع بنشوء مايسمى بفكرة الشرق/ الغرب، فالنظرة الغربية تنظر إلى الشرق بنظرة استعلاء وهيمنة وتسلط، والشرق ينظر إلى الآخر / الغرب على انه العدو الأكثر عداء ويجب على الشرقي تفاديه بكل الوسائل الممكنة، على أن هذه القضية، قضية الشرق/ الغرب التي ظهرت بوادرها مع بدايات النهضة الفكرية في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين[٤]، وكان لها اثر في توجيه الفكر العربي – الذي كان مايزال في سباته العميق- نحو فكر نهضوي حتّم على العربي الاستقلال بنظرته لنفسه وللآخر والتحرر من قبضته على اثر ماقامت به الدول الغربية / الآخر من غزوات واحتلال للكثير من الدول العربية واستعباد أهلها.

وهي قضية لاتهمنا بالدرجة الأساس، لأننا معنيين أساسا بقضية أخرى لاتقل تعقيدا عن سابقتها، وهي قضية البرهنة الانوية / الأخروية في نص سردي من التراث العربي.

فكيف يمكننا الانطلاق من هذه البرهنة لنستنتج أن الإيمان المطلق بالأنا لايتشكل إلا بوجود الطرف المضاد / الآخر، ولايمكن الحديث عن الأنا إلا ويكون الآخر موجودا ظاهرا أو ضمنيا في إطار هذا الخطاب.

وما يميز الخطاب عن الفنون الأخرى كالقصة مثلا هو أن الضمير أنا وأنت وظروف الزمان والصيغ الزمنية الدالة على الحاضر والمستقبل إنما هي إشارات سردية دالة على الخطاب بعكس الإشارات التي تحدد القصة كاستخدام ضمير الغائب مع صيغة الماضي[٥].

---

١ . دليل الناقد الأدبي- إضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، ٨٩ .
٢ . في مناهج تحليل الخطاب السردي، ١٢٣ .
٣ . في مفهوم الخطاب والخطاب الأدبي، ١٢ .
٤ . سبق وان تطرقنا لهذه القضية في بحث لنا بعنوان " النهضة الفكرية واثرها في الصراع مع الاخر روائيا.
٥ . رواية عصفور من الشرق انموذجا – لتوفيق الحكيم، نشر في مجلة اداب الفراهيدي ضمن بحوث المؤتمر العلمي الرابع لكلية الاداب / جامعة تكريت العدد ٣، حزيران ٢٠١٠ .

بمعنى أن الأنا ومحدداتها هي أهم شواغل الخطاب السردي وتدرجاته التي لايمكن الاستغناء عنها، وبالتالي تصبح الأنا/ الآخر من القضايا المهمة التي تمس صميم الخطاب، حتى أنها أصبحت من شواغل الأديب، لاسيما في تلك النصوص التي تشتغل على الأنا – التي تتماهى غالبا مع شخصية المؤلف ونادرا مايفترقان - وكل نص يشتغل عليها لابد أن يضم تحت جناحيه النقيض المقابل لها واعني به الآخر.

فالأنا «يتكون من المدركات الشعورية والذكريات والأفكار، والوجدانات إن الأنا مسؤول من شعور المرء بهويته واستمراريته وهو من وجهة نظر الشخص ذاته يعتبر في مركز الشخصية.»[١] ، أما الآخر فهو «عبارة عن مركب من السمات الاجتماعية والنفسية والفكرية والسلوكية التي ينسبها فرد ما أو جماعة ما إلى الآخرين. »[٢].

إن التركيز على الذات/ الأنا إنما يتأتى من أن كل الأمور ترجع إلى «الأنا والانطلاق من وجهة نظر فردية والعجز عن رؤية أو اعتبار وجهة نظر أو رغبة خارجا عن الذات.»[٣]، بمعنى أن أهم مايسم هذه الأنا أنها فردية لا تعبر إلا عن ذات واحدة، ولا يمكننا بأي حال من الأحوال الحديث بصيغة الأنا ونعني به الجماعة، فالأنا في المنظور النحوي هو ضمير يدل على الواحد، أما الآخر فـ«لايتحقق وجوده إلا بوجود الاختلاف والتمايز بين الجماعات بالآراء ووجهات النظر، وبتباين حياة كل منها لاسيما في قضية أن انتماء الفرد إلى الجماعة شرط أساسي لوجوده.»[٤].

إن مكونات الخطاب هي أهم عامل في تأسيس رؤية خاصة بالأنا / الآخر، فالخطاب – وكما حدده ياكبسون – يقوم على ثنائية المرسل/ المرسل إليه، وبينهما علاقة تواصل لفظي لايمكن الفكاك أو الخلاص منه فـ«المرسل يوجه رسالة إلى المرسل إليه، ولكي تكون الرسالة فاعلة فإنها تضفي بادئ ذي بدء سياقا تحيل عليه... سياقا قابلا لأن يدركه المرسل إليه، وهو إما أن يكون لفظيا أو قابلا لأن يكون كذلك. »[٥].

ولابد أخيرا من إثارة قضية مهمة أخرى وهي أن الخطاب لاينمو إلا في ظل ثنائية الاتصال / الانفصال، وهي ثنائية تحيل على الأنا / الآخر بكل بساطة.

إن الأنا هي «صاحبة التجربة »[٦]، أما الآخر «فهو الغريب في حضوره والقريب في غيابه، الأنا حاضرة به وهو حاضر بها لاينفصلان، في إطار تلك العلاقة التي تجعل من كليهما صورة واصلا في الوقت نفسه، فالأنا لاتعرف نفسها إلا من خلال الآخر، باعتباره المرآة التي تكشف للانا لتتعرف عليها، وجدالية الأنا – الآخر جدالية وجودية تحقق للأنا وعيها بنفسها وبعالميها الداخلي والخارجي. »[٧].

يشتغل الخطاب في كتاب «نهج البلاغة» بكيفية متعددة، فهناك خطاب سياسي وآخر ديني وثالث ثقافي، والإمام علي(عليه السلام) في كل هذه الخطابات خطيب مفوه ومتمكن وقادر شأنه في كل ذلك شأن الفارس المقدام في ساحة الوغى، ولايمكن بأي حال من الأحوال فصل خطبة عن الأخرى من حيث مستواها اللغوي وقدرتها على إيصال الفكرة على الرغم من اختلاف مواضيعها، وهنا مكمن التفوق والقدرة، فالإمام علي(عليه السلام) يمتلك القدرة على إيصال اللغة – بتعدد مستوياتها – إلى المتلقي، لسنٌ، يمتلك ناصية الكلام ويعرف قيمة الكلمة ووقعها

---

١ . ينظر : م.ن، ١٢٤ .
٢ . نظريات الشخصية، ١١ .
٣ . صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، ٨١٣ .
٤ . التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، ٢٥١-٢٥٢ .
٥ . صورة الآخر في الخطاب القرآني – دراسة نقدية جمالية، ٢١ .
٦ . قضايا شعرية، ٢٧ .
٧ . الأنا في الشعر الصوفي – ابن الفارض أنموذجا-، ١٢٣.

على السامع لذا فهو يتخير من الألفاظ أشدها، ومن الجمل أكثر دقة وأسرع وصولا ونفاذا واختراقا إلى آذان السامع.
تشتغل خطبه في منطقة سردية يتحرك فيها الأنا/ الآخر بكل حرية، مع الأخذ بنظر الاعتبار اختلاف الآخر وتعدده وبقاء الأنا/ الساردة واحدة نستدل بها على شخصية الإمام علي(عليه السلام)، ذلك انه يمثل المتكلم، وهو في كل ذلك يستخدم ضمير المتكلم/ الأنا بصيغه المختلفة.
في عهد له إلى الاشتر النخعي عندما ولاه ولاية مصر بعد أن اضطرب أميرها محمد بن أبي بكر، يوضح الإمام علي(عليه السلام) القواعد العامة والسلوك الخاصة التي يجب أن يلتزم بها الوالي في ولايته، وهو إذ يضع هذه القواعد إنما يدرك جيدا أين يضعها ولمن يضعها، وتأتي هذه القواعد بوصفها قوانين تشريعية الغاية منها التمسك بالعقيدة الإسلامية، والحرص على الأخذ منها في كل صغيرة وكبيرة، يقول الإمام علي(عليه السلام):
«ثم اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك، من عدل وجور، وان الناس ينظرون من أمورك في مثل ماكنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ماكنت تقول فيهم، وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على السن عباده، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح، فاملك هواك، وشح بنفسك عما لا يحل لك، فان الشح بالنفس الإنصاف منها في ما أحبت أو كرهت، واشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق، يفرط منها الزلل...»[1].

إننا إزاء شخصيتين حقيقتين واقعيتين، لهما وجودهما في الحياة الواقعية آنذاك، ومازال التاريخ يشير إليهما ويعتبر بهما، يظهر الإمام علي(عليه السلام) في صيغة خطابية مركزة ومكثفة من خلال ضمير المتكلم / أنا، هذا الضمير الذي يظهر واضحا في لفظة : إني، الذي يشير فيه الإمام علي إلى نفسه بوصفه الناصح للآخر، في مقابل هذا الخطاب الانوي الفاعل والمركز يظهر لدينا الآخر بصورة تستجيب للتوجهات السردية التي يتلفظ بها الآخر/ الإمام علي(عليه السلام)– في منظوره-، وهذه الصورة يظهر في الملفوظات التي لها دلالاتها الفعلية والمقصدية ومنها:
يا مالك/ وجهتك / أمورك/ تنظر فيه/ فيك/ تقول / إليك/ فاملك هواك/ وشح بنفسك/ واشعر قلبك/ ولا تكونن.
فباستثناء الاسم: مالك، فإننا نجد الآخر الذي يقابل الإمام علي واضحا في الضمائر المستخدمة كاف الخطاب وضمير المخاطب المحذوف : أنت.
إننا في هذا النص نقف إزاء شخصيتين كل واحد منهما يعد الثاني آخرا بالنسبة له، طالما انه ينظر إلى نفسه كوجود شخصي فانه يعي أن له صفة الأنا، وبالتالي فان ما يتشارك به مع الثاني إنما يضعه في مواجهة تبادلية بين الأنا / الآخر.
يظهر الاشتر النخعي هنا آخرا من منظورين، منظور الإمام علي وهو يخاطبه باسمه توصيفا له واختلافا عنه لاسيما وانه يتبعه بالحديث عن نفسه، والمنظور الآخر يتجسد في نظرة الناس إليه، فهو إذن آخر بالنسبة للإمام علي(عليه السلام)، وآخر بالنسبة للناس، لكنه يمثل ذاته وانويته بالنسبة له.
ويستمر الإمام علي(عليه السلام) في توجيه خطابه إلى الاشتر النخعي فيقول:
«إياك ومساماة الله في عظمته، والتشبه به في جبروته، فان الله يذل كل جبار، ويهين كل مختال.

---

١ . الأنا في الشعر الصوفي – ابن الفارض أنموذجا-، ٢٧٩.

أنصف الله، وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة اهلك، ومن لك فيه هوى من رعيتك، فانك ألا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله ادحض حجته.»[1].

إن الرؤية السردية التي ينطلق منها الإمام علي(عليه السلام) في توجيه خطابه الغيري/ الأخروي إنما تنطلق من إمكانيات وجود آخر يستوعب هذه الرؤية،لاسيما وأن هذا الخطاب يأتي بصيغة التحذير والأمر، البارزتين في قوله: إياك وأنصف، بمعنى أن الاشتر النخعي كان على معرفة تامة برغبات الإمام أولا، وانه كان يتقبل الصيغة التي يخاطبه الإمام علي (عليه السلام) فيها ومن خلالها ليقيم نوعا من العلاقة المتكافئة مع الآخر / الناس بالنسبة إليه، وثمة موجهات سردية ومحددات يخضعها الإمام علي(عليه السلام) لوجهة نظره تنطلق من أن الإنصاف ركن أساس من أركان الإسلام، وهو إذ يبتدئ بإنصاف الله() ثم الناس جميعا ثم يتوجه إلى الخاصة المقربين من الاشتر النخعي وممن يملكون زمام الهوى من رعيته، وإذا انعدم هذا الركن فان الركن الآخر/ المضاد له سيظهر بارزا ونعني به الظلم الذي سيقود حتما إلى أن يكون خصما لله(عليه السلام) ومن كان خصما لله فقد أدحضت حجته.
هنا ستبرز الثنائيات المتضادة، وستسير على وفق رؤية الإمام علي(عليه السلام) ورغباته، فهناك:
الله / الناس.
الناس / الاشتر النخعي.
الإنصاف / الظلم.
وكل واحدة من هذه الثنائيات تخضع بالضرورة إلى ثنائية الأنا / الآخر، وهو ماسيحدده الخطاب
السردي استنادا إلى ماموجود في النص، فضلا عن أن وجود الإمام علي(عليه السلام) ومقابله الاشتر النخعي قائم ومرهون بالخطاب الموجه إلى الآخر، ولانعدم أثرهما طالما أنهما المعنيان بالأمر.
ويقول الإمام علي(عليه السلام) استمرارا في بثّ خطابه :
«وليكن ابعد رعيتك منك، وأشنأهم عندك اطلبهم لمعائب الناس، فان في الناس عيوبا الوالي أحق من سترها، فلا تكشفن عما غاب عنك منها، فإنما عليك تطهير ماظهر لك، والله يحكم على ما غاب عنك، فاستر العورة ما استطعت، يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك، أطلق عن الناس عقدة كل حقد، واقطع عنك سبب كل وتر، وتغاب عن كل مالا يصح لك، ولا تعجلن إلى تصديق ساع، فان الساعي غاش، وان تشبه بالناصحين.»[2].

ويحذر أمير المؤمنين الاشتر النخعي من الآخر / البخيل والجبان والحريص الذي يزين الشره بالجور، وان يكون بطانة له.
أمام هذه الطائفة هناك طائفة أخرى تقف على النقيض من هؤلاء، ومنهن من لم يعاون ظالما ولا إثما ومن يقول الحق وإن كان مرا والصق بأهل الورع والصدق فهؤلاء أحق بالصحبة من غيرهم[3].

وإذا كان أمير المؤمنين يركز على الاشتر النخعي بوصفه الآخر الذي يقف بالضد منه، فانه في عهده هذا يصف الآخر بالنسبة للاشتر النخعي وكيف يمكن أن يكون هذا الآخر صديقا أو عدوا، وبينهما تفاوت واختلاف كبير، لذا فانه يركز على تقسيم الرعية على طبقات، لايصلح بعضها من دون الآخر ولا تستغني طبقة عن أخرى ومنها:
جنود الله.

---

١ . نهج البلاغة، ٣: ٥٧٢ .
٢ . نهج البلاغة، ٣: ٥٧٤ .
٣ . نهج البلاغة، ٣: ٥٧٥ .

كتاب العامة والخاصة.
قضاة العدل.
عمال الإنصاف والرفق.
أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس.
التجار وأهل الصناعات.
الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة[1].

ثم يختم الإمام علي(عليه السلام) عهده بقوله:
«وأنا اسأل الله بسعة رحمته، وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة، أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه والى خلقه، مع حسن الثناء في العباد، وجميل الأثر في البلاد، وتمام النعمة، وتضعيف الكرامة، وان يختم لي ولك بالسعادة والشهادة، وإنا إليه راغبون، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى اله الطيبين الطاهرين وسلم تسليما كثيرا، والسلام..»[2].

إن أهم مايميز هذه الخطاب السردي في هذا النص تحديدا، إن الأنا لاتظهر بمعزل عن الآخر حتى وإن حاول المتكلم أن يستقل عنه، ذلك أن الآخر «يدخل عنصرا مقوما في صميم وجود الأنا وماهيتها، والانا بذلك لاتكون إلا من خلال توقفها على الآخر واستقلالها عنه في وقت واحد.»[3]، وإن الأنا لاتعيش إلا لتتسلط على الآخر، كما أن وجود ضمير الأنا يحيل تلقائيا على وجود ضمير / أنت الدال على الآخر بنفوذه وقوته وتسلطه وربما بضعفه واستكانته أيضا.
توديء الأنا دورها في توجيه الآخر، وهما – على الرغم من انفصالهما الوهمي في النص إلا أنهما في خاتمة النص يجتمعان لينهيا خطابهما السردي سويا، كما نلحظ ذلك في الإشارات : أن يوفقني وإياك/ وان يختم لي ولك / وإنا إليه راغبون. ليؤكد النص على أن الأنا والآخر مهما انفصلا أو اشتد الصراع بينهما لايمكن أن يبرزا إلا متصلين، فكل خطاب موجه إلى الذات / الأنا هو بالضرورة موجه إلى الآخر[4].

قائمة المصادر والمراجع:

الأنا في الشعر الصوفي – ابن الفارض أنموذجا-،عباس يوسف الحداد، ط٢، دار الحوار، اللاذقية، ٢٠٠٩.
التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور،مصطفى حجازي، ط١، بيروت، ١٩٧٦.
دليل الناقد الأدبي- إضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، ميجان الروبلي- سعد اليازعي، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٠.
صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، تحرير: الطاهر لبيب، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٩.
صورة الآخر في الخطاب القرآني – دراسة نقدية جمالية، حسين عبيد الشمري، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨.
في مفهوم الخطاب والخطاب الأدبي،إبراهيم صحراوي، مجلة الموقف الأدبي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ع ٩، ١٩٩٧.
في مناهج تحليل الخطاب السردي، عمر عيلان، سلسلة الدراسات٢، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٨.

١ . ينظر: نهج البلاغة، ٣: ٥٧٥-٥٧٦ .
٢ . نهج البلاغة، ٣: ٥٧٧-٥٧٨ .
٣ . نهج البلاغة، ٣: ٥٩٦ .
٤ . المرأة والفلسفة، ٧ .

قضايا شعرية، رومان ياكبسون، تر: محمد الوالي – مبارك حنوز، ط١، دار توبقال، المغرب، ١٩٨٨.
المرأة والفلسفة، محمود رجب، حوليات كلية الاداب، جامعة الكويت، ١٩٨١.
نظريات الشخصية، دوران شولتز، تر: حمد دلي الكربولي – عبد الرحمن القيسي، د. ط، المكتبة الوطنية، بغداد، ١٩٨٣.
النهضة الفكرية وأثرها في الصراع مع الآخر روائيا – رواية عصفور من الشرق أنموذجا – لتوفيق الحكيم، سوسن البياتي، مجلة آداب الفراهيدي ضمن بحوث المؤتمر العلمي الرابع لكلية الآداب / جامعة تكريت العدد ٣، حزيران ٢٠١٠.

الزمن في نهج البلاغة.....

دراسة في الزمن النفسي الاجتماعي والمادي والبايولوجي في فكر الامام علي بن ابيطالب (ع)

الاستاذ المساعد الدكتور: علي شاكر الفتلاويقسم علم النفس /كلية الآداب (جامعة القادسية)

مشكلة البحث وأهميته

الزمن تلك المادة المعنوية المجردة التي يتشكل منها إطار كل حياة وحيز كل فعل وحركة، وأكثرمن ذلك انه جزء لا ينفصل عن حركة الموجودات ومظاهر سلوكها.
فكما إن للزمن منظورا بوصفه معطى كوني، فلكي، مادي، موضوعي يتجسد جانبه الفيزيائي من قبيل ظواهر الليل والنهار والفصول الأربعة والولادات والوفيات.....الخ فان له منظورا غاية في الأهمية يتجلى الزمن فيه بوصفه معطى ذاتي،نفسي، داخلي تنفعل النفس البشرية بإيقاعه وتتفاعل مع ابعاده، ذلك ما نطلق عليه الزمن النفسي[1] المتغير الذي يحمل في طياته دلالات نفسية واجتماعية سواء كان الزمن في الإنسان أم الإنسان في الزمن.
الزمن لايعد خاصية للعالم الخارجي فقط، بل هو مقولة من مقولات العقل البشري وضرورة من ضرورات ترتيب خبراتنا فنحن نعيش الزمن ونشعر به ونتحسس طبيعته «إن الذات الإنسانية تسقط على الزمن عوالمها، وهذا ما يؤكد ان الوعي بالزمن ينتسب إلى المستوى الداخلي للوجود»[2].

وإدراكا من الباحث لحيوية وعمق متغير الزمن النفسي والاجتماعي في الميدان السيكولوجي لما ينطوي عليه من مساحة بكر من الفرضيات والإيحاءات العلمية المثمرة الرامية لفهم أفضل للسلوك البشري ومحاولة توقعه، فقد توجه بالدراسة نحو فكر الإمام علي (عليه السلام) سابرا«مستقصيا» مفاهيم الزمن فيه الذي وجدها الباحث معروضة بأسلوب العالم الخبير بخفايا النفس والذهن البشري.
فقد وجد من خلال استيعاب الإمام (عليه السلام) لاستجابات المجتمع لزمنه المعاش وطبيعة تلك الاستجابات تشخيصا دقيقا للسمات الثقافية والاجتماعية السائدة التي طالما وجه الانتقاد لها بغية التعديل والإصلاح إدراكا منه (عليه السلام) واستشرافا لتلك العلاقة الوثيقة بين سمات المجتمع الإنساني النفسية والحضارية والاجتماعية وحتى الاقتصادية وبين زمنه المعاش وانعكاس ذلك على سلوك افراد المجتمع خاصة عند مرورهم بمرحلة الإصلاحات الاجتماعية الكبيرة.
واختزالا فان الباحث يجد من المجدي والمهم وضع متغير الزمن النفسي موضوعا وهدفا للدراسة في مقولات الامام علي (عليه السلام) للاسهام – مع غيره من البحوث والدراسات المنهجية – في التاصيل للبحث النفسي الاسلامي بلغة العلم المعاصرة.

أهداف البحث

تتجسد أهداف البحث في:
أ. استقصاء (إحصاء«وتحليلا») مفاهيم الزمن النفسي وألفاظه، لاسيما مفهوم المدة الزمنية duration والتوجه الزمني Time Orientation والتكامل الزمني Time Integration.
ب. استقصاء (إحصاء«وتحليلا») مفاهيم والفاظ الزمن الاجتماعي لاسيما مفهوم ثقافة الحاضر والوعي بالزمن والقيم الزمنية.

---

١ . الفتلاوي، ٢٠١٠.
٢ . بردائيف، ١٩٦٨.

ج. استقصاء (إحصاء«وتحليلا») مفاهيم وألفاظ الزمن المادي، لاسيما الزمن الميقاتي الموضوعي والزمن البايولوجي.

حدود البحث

يتحدد البحث الحالي في حدود خطب الإمام علي (عليه السلام) في كتاب نهج البلاغة، مادة رئيسة للبحث الحالي.

تحديد المصطلحات

سيتم الالتزام بتحديد المصطلحات الرئيسة في البحث المتمثلة ب(الزمن، الزمن النفسي، الزمن الاجتماعي، الزمن المادي) على وفق لغة علم النفس الاصطلاحية.

منهج البحث وإجراءاته:

يعتمد البحث المنهجية الوصفية في العلوم النفسية، وتستند إجراءاته الى أسلوب (تحليل المحتوى) أسلوبا مناسبا لتحليل نصوص خطب الإمام (عليه السلام) لإحصاء وقياس المفاهيم الزمنية فيها، على وفق الجداول والتوزيعات التكرارية والنسبية.

الاستنتاجات والتوصيات والمقترحات

يخرج البحث بعدد من الاستنتاجات المبنية على ما توصل البحث اليه من نتائج، وكذا التوصيات والمقترحات.

مشكلة البحث وأهميته

الزمن تلك المادة المعنوية المجردة التي يتشكل منها إطار كل حياة وحيز كل فعل وحركة، وأكثر من ذلك انه جزء لا ينفصل عن حركة الموجودات ومظاهر سلوكها. فكما إن للزمن منظورا بوصفه معطى كوني،فلكي، مادي، موضوعي يتجسد جانبه الفيزيائي من قبيل ظواهر الليل والنهار والفصول الأربعة والولادات والوفيات.....الخ فان له منظورا غاية في الأهمية يتجلى الزمن فيه بوصفه معطى ذاتي،نفسي، داخلي تنفعل النفس البشرية بإيقاعه وتتفاعل مع ابعاده، ذلك ما نطلق عليه الزمن النفسي[1] المتغير الذي يحمل في طياته دلالات نفسية واجتماعية سواء كان الزمن في الإنسان أم الإنسان في الزمن.

الزمن لا يعد خاصية للعالم الخارجي فقط، بل هو مقولة من مقولات العقل البشري وضرورة من ضرورات ترتيب خبراتنا فنحن نعيش الزمن ونشعر به ونتحسس طبيعته «إن الذات الإنسانية تسقط على الزمن عوالمها، وهذا ما يؤكد ان الوعي بالزمن ينتسب إلى المستوى الداخلي للوجود»[2].

وإدراكا من الباحث لحيوية وعمق متغير الزمن النفسي والاجتماعي في الميدان السيكولوجي لما ينطوي عليه من مساحة بكر من الفرضيات والإيحاءات العلمية المثمرة الرامية لفهم أفضل للسلوك البشري ومحاولة توقعه، فقد توجه بالدراسة نحو فكر الإمام علي (عليه السلام) سابرا«ومستقصيا» مفاهيم الزمن فيه الذي وجدها الباحث معروضة بأسلوب العالم الخبير بخفايا النفس والذهن البشري.

فقد وجد من خلال استيعاب الإمام (عليه السلام) لاستجابات المجتمع لزمنه المعاش وطبيعة تلك الاستجابات تشخيصا دقيقا للسمات الثقافية والاجتماعية السائدة التي طالما وجه الانتقاد لها بغية التعديل والإصلاح إدراكا منه (عليه السلام) واستشرافا لتلك العلاقة الوثيقة بين سمات المجتمع

---

١ . الفتلاوي، ٢٠١٠.
٢ . برداييف، ١٩٦٨.

الإنساني النفسية والحضارية والاجتماعية وحتى الاقتصادية وبين زمنه المعاش وانعكاس ذلك على سلوك افراد المجتمع خاصة عند مرورهم بمرحلة الإصلاحات الاجتماعية الكبيرة.
واختزالا فان الباحث يجد من المجدي والمهم وضع متغير الزمن النفسي موضوعا وهدفا للدراسة في مقولات الامام علي (عليه السلام) للاسهام – مع غيره من البحوث والدراسات المنهجية – في التأصيل للبحث النفسي الإسلامي بلغة العلم المعاصرة.
لقد استبصر الامام متغيرات سلوك الانسان فردا وجماعة الامر الذي جعله يسبر غور اعماق النفس البشرية والطبيعة الانسانية، فكان (عليه السلام) محيطا بمحصلة التفاعل الحادث بين متغيرات الانسان وخصائصه المتعددة مكونا الرؤية السليمة عن محددات شخصية الانسان وما تنطوي عليه من عوامل وديناميات.
والزمن هو المتغير الابرز الذي تمارس الشخصية الانسانية نشاطها وفعلها خلاله وفي اطاره، سواء كان ذلك زمنا ماديا موضوعيا ميقاتيا ام نفسيا اجتماعيا وجدانيا، لذا فقد اولاه الامام اهمية بارزة في خطبه ووعظه وحواراته مع الاخر، حتى انه فصل في استخدامه لالفاظ واسماء عدة تدل على الزمن ومفاهيمه، وبين الزمن بابعاده وانواعه وافاقه المختلفة.
وقد استندت الكثير من خطبه في دلالاتها الفكرية المعرفية والتربوية والسلوكية الى الحقائق الزمنية وادراكات الانسان لها بوصفه واقعا معاشا وعلة من علل السلوك ودوافعه في مواقف يتخذها واحداث وخبرات يركن اليها ويعتقدها.
فكان (عليه السلام) متحركا في فضاءات الزمن الذي يعيشه الإنسان والمجتمع انذاك وافاقه الاتية متغلغلا في الوقت نفسه في ماضي الانسانية، بمعنى انه مثلما يقف في الحاضر الموضوعي والسيكولوجي للانسانية فانه ممتدا نحو الافاق الزمنية المختلفة مستشرفا مايكون من امور المسلمين واحوالهم.
لقد وظف الامام الزمن بابعاده في بيان الدلالة النهائية للحياة البشرية وغاياتها المستهدفة، فهو من رسم طوبولوجية الزمن الشامل للحياة الفردية والاجتماعية من خلال وصفه الدقيق للعلاقات الوثيقة والمتشابكة بين الماضي والحاضر والمستقبل، ذلك ما نلاحظه في انتقاله في دلالات الصيغ الزمنية من الكيفي نحو الكمي وبالضد من ذلك، ومن القديم الى المتاخر وبالضد من ذلك، ومن الفردي الى الاجتماعي وخلاف ذلك.
ومن اهم ما ننتفع به من دراسة الزمن في فكر الامام علي (عليه السلام)، هو اعتماد الزمن وسيلة واسلوبا او دليلا ودافعا لتعديل اتجاهات الناس وتغييرها بالتجاه السليم المثمر ادراكا منه لانطواء الزمن على متغيرات وعوامل ومهارات او كفايات هائلة مؤثرة في حياة الانسان فردا وجماعة فضلا عن يقينية وثبات وتكرار حقائق تلك العوامل والمتغيرات ابدا بما يجعلها متغيرات مستقلة دائمة فطرية – بلغة علم النفس – تستثير السلوك البشري وتسبب استجاباته المختلفة.
ان معطيات ادراكنا مقولات ذهنية الامام (عليه السلام) في استرساله البليغ لتوظيف الزمن في اهداف الرسالة الاسلامية الانسانية مثار اعجاب ودهشة ليس في وقوفه على خصائص ومتغيرات ومكوناته بل بقدرته الفائقة على تقديم تلك الاحاطة الهائلة في افاقها اليقينية للزمن المعاش لجموع الناس بوصفها مكونات سلوكية واجراءات عملية او مناهج حياتية دنيوية واخروية، فالزمن الانساني عنده متكاملا يتفاعل فيه بنفس القدر الماضي والحاضر والمستقبل ويمتزج لديه المادي الميقاتي الخارجي بالنفسي الاجتماعي الداخلي، وهو بعيد قديم وقريب حلضر وجديد ات.
ثم قدم الامام الزمن بعده عنصرا ثقافيا لابد له من ان يتغلغل في طيات نفوسهم حتى تتشربه شخصياتهم فيكون مكونا ورافدا من روافد بناءات شخصياتهم تلك، فضلا عن تجسيده لايقاعية التاريخ المؤدية الى صياغة موقف ثقافي للمجتمع من الحياة والاحداث خلالها.
محاولا ترصين الذاكرة الجمعية للمسلمين بتشذيبها واعادة صياغة مخزوناتها الفعالة القويمة التي تورث للاجيال اللاحقة استشرافا وتوقعا منه (عليه السلام) للمستقبل.

أهداف البحث

تتجسد أهداف البحث في:
أ. استقصاء (إحصاء«وتحليلا») مفاهيم الزمن النفسي الاجتماعي وألفاظه، لاسيما مفهوم المدة الزمنية duration والتوجه الزمني Time Orientation والتكامل الزمني Time Integration .
ب. استقصاء (إحصاء«وتحليلا») مفاهيم والفاظ الزمن المادي الفيزيائي.
ج. استقصاء (إحصاء«وتحليلا») مفاهيم وألفاظ الزمن البايولوجي.

منهج البحث وحدوده

يستند البحث الحالي الى المنهج الوصفي في البحث النفسي، بوصفه منهجا بحثيا علميا يلتزم مسلمات وخصائص البحث العلمي القياسي، ويوظف منه اسلوب(تحليل المحتوى) بعده الاداة الرئيسة في تحليل مضامين خطب الامام (عليه السلام) وتصنيف المفاهيم والالفاظ والاسماء الزمنية فيها.
ويتحدد البحث الحالي بخطب الامام (عليه السلام) الواردة في كتاب نهج البلاغة، متمثلة بـ(٢٦) خطبة هي «مجتمع البحث الحالي» لاحتوائها على مضامين الامام الفكرية الزمنية الرئيسة.

١- الزمن النفسي الاجتماعي

يستجيب الناس لمواقف الحياة المختلفة وفقا لزمنهم المعاش، فاحساس الانسان بالزمن وادراكه له متجذر في مناحي حياة الانسان كلها وعبر مراحل حياته الفردية، فللزمن دلالات نفسية واجتماعية وثقافية صريحة.[١]

فالاحساس بذاتية الزمن امر واقع لدى الانسان يعزز ذلك ويرسخه «الذاكرة الانسانية» التي تجعل من ادراك الزمن فعلا متاصلا في خبرتنا اليومية، فالزمن موضوع تجربة لكن ادراك هذه التجربة يحدث على مستويات متباينة ومظاهر مختلفة بين الناس «الزمن النفسي مجال لخبرتنا ونشاطنا، لذلك فان هذا المجال يتطابق على نحو ضروري ببساطة مع الواقع المادي، وهذا المجال يؤثر فينا خلال خبرتنا بالتغيرات الحاصلة في مجرى حياتنا»[٢] والزمن يحدد غريزة الحياة لدى الانسان كما يحدد حياته ذاتها[٣].

وعلى وفق التوجه الزمنيTime Orient ation – اهم عناصر ومتغيرات الزمن النفسي الاجتماعي – تتشكل اجزاء رئيسة في الطرق التي نقوم بواسطتها بتنظيم حياتنا والكيفية التي نفكر بها في الحوادث والتجارب وانفسنا، فبعضنا يتاثر على نحو كبير بما يحدث في الماضي، ويظهر ذلك التاثر في الطريقة التي يفكر ويتكلم بها، بينما يكرس اخرون حياتهم من اجل المستقبل، فنراهم يخططون ويأملون ويحلمون دائما، بمعنى ان التفسيرات الذاتية لمجالات الماضي والحاضر والمستقبل تتباين بين الناس وهذا ما يجعل من التوجه الزمني متغيرا يسهم في تشكيل صورة واضحة عن الشخصية.
لقد انبثقت ذهنية الامام علي (عليه السلام) على استغراقا زمنيا فائقا مزجت فيها ابعاده الثلاثة (الماضي والحاضر والمستقبل) في افق متصل واحد يجسد تكامله الزمني، بجعل الماضي حاضرا خلال الذاكرة والتمكن من المستقبل مقدما من خلال التوقع والاستشراف، فالماضي مهم ان يحمله الانسان في ذاكرته الواعية ذهنيا ونفسيا موظفا في حاضره السيكولوجي، ثم بهما (الماضي والحاضر) تتضح افاق الانسان نحو الاتي المستقبلي الذي لابد ان يكون عند الامام (عليه السلام) غرض الشخصية السليمة المؤمنة.

---

١ . الفتلاوي، ٢٠١٠.
٢ . ١٩٦٣، fraisse.
٣ . ١٩٦٨، Minkowiski.

وهنا يضع الامام لنا معيارا مهما من معايير السواء في الشخصية الانسانية هو«تكامل التوجهات الزمنية» فالذي تتفاعل وتتكامل لديه الافاق الزمنية بالقدر نفسه دون ان يتموقع في واحد دون الكل الزمني فانه على مفصل واضح من متصل اللاسواء (الشخصية غير السليمة) والضد من ذلك صحيح.
لقد نبه الامام الناس الى ضرورة توظيف التكامل الزمني باتجاه هدف سام يتمثل في احراز الفوز في المستقبل، في الغد، بعد الاجل، وان هذا المستقبل على الرغم من صعوبات ووعورة طريقه فان الامام يقول «فعند الصباح يحمد القوم السرى»[١].

لقد عرض الامام في كلامه وخطبه تطبيقات عملية لمفاهيم الزمن النفسي الاجتماعي، فضرورة تكامل التوجهات الزمنية للناس تم عرضه من خلال تأكيده على حقيقة الموت الذي احتل حيزا مهما وعناية كبيرة في كلامه وخطبه (عليه السلام).
لقد سخر الامام (عليه السلام) «الموت» في خطبه بوصفه واقعا انسانيا وحقيقة مستقبلية اتية لابد من ملاقاة الانسان لها، «فانكم لو عاينتم ما قد عاين من مات منكم، لجزعتم ووهلتم وسمعتم واطعتم، ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا، وقريب ما يطرح الحجاب»[٢] «فاتقوا الله عباد الله، وبادروا اجالكم باعمالكم، وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم، وترحلوا فقد جد بكم، واستعدوا للموت فقد أظلكم، وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا»[٣] اذ يصف الامام الموت للناس كانه في ثنايا ايامهم وساعاتهم، فهو يقصد الى غرسه في اعماق النفوس في بناءاتها الوجدانية والمعرفية في ان واحد.
انه يقول للناس ان الاحساس الواقعي بالزمن الاتي (زمن الموت) كفيل للانسان ان يتيقن بضرورة الاستعداد في الدنيا للاخرة خلال العيش في شروط ذلك الزمن الان «ما بين احدكم وبين الجنة او النار الا الموت ان ينزل به»[٤] بمعنى ان الان السيكولوجي لدى المؤمن محك رئيس لملاقاة حياة اخروية قادمة ميسرة «ولقد بصرتم ان ابصرتم، واسمعتم ان سمعتم، وهديتم ان اهتديتم»[٥] فالتوجه الزمني متفاعل عند الامام ومتكامل اليوم عنده الامس والغد في ان معا.

وفي التاكيد على ذلك من قبل الامام خلفه ايمان عميق بان توجيه الامة نحو ادراك الموت بوصفه خبرة ذاتية واقعية لابد من خوضها، يرفع من شان انسانيتها ويدفعها باتجاه خلق دافعية مهمة للانجاز، فكلما كانت الشعوب والامم انضج واقوى شخصية كلما كانوا اقدر على ادراك الموت «نجد ان الانسان البدائي والانسان الساذج لا يمثل الموت عندهم مشكلة»[٦].

ويريد الامام هنا ان يربي الناس على عدم الخوف من الموت او القلق منه، على اقتحامه وجعله طريقا للسعادة الدنيوية والابدية، لم يكن يبغي من الموت من الموت زمنا مقلقا اتيا، فليس سليما ان تتوجه الامة والفرد نحو الموت توجها سلبيا ينطوي على الجزع والقلق والخوف، بل اراده افقا مستقبليا يتجلى في حاضر مثمر وبناء لسلوك الامة والافراد «لقد استنتج – بولاك – ان الانشغال بقلق الموت يرتبط بالميل الى العيش في الماضي اكثر من المستقبل، وتجنب التجريب، وتحاشي التغير، وبوجه عام اختيار الجوانب الامنة في الحياة وتجنب الجديدة» واكد- فارجو وباستل ١٩٨١ هذه النتائج، وبينا ان الاشخاص الذين يحصلون على درجات قلق موت منخفضة يتقبلون توجها اكثر نحو الحاضر بالمقارنة مع من لديهم درجات مرتفعة على قلق الموت»[٧].

---

١ . خطبة ١٥٩ فيتمجيد الله وفي حقيقة الرجاءوفي ذكر الانبياء.
٢ . خطبة ٦٤ في لزوم الاستعداد للموت.
٣ . خطبة ٦٤ في لزوم الاستعداد للموت.
٤ . خطبة ٦٤ في لزوم الاستعداد للموت.
٥ . خطبة ٢٠ في العبرة مما بعد الموت.
٦ . شورون، ١٩٨٤.
٧ . عبد الخالق، ٢٠٠٥.

ينبه الامام (عليه السلام) الناس الى توجه زمني اصيل اذ ان (الموت) اوالنظر اليه يجعل من ابعاد الزمن تتكامل كلها، اذ يلتفت الامام الى فطرة الانسان المنغمسة في حاضر الغايات والاهداف التي يعالجها بتزويده للانسان طاقة نفسية ضرورية لاستحضار الاتي وكانه واقعا معاشا الان (مجالا ادراكيا ذهنيا معرفيا حاضرا)،وان طاقة التعايش والتكيف هذه كفيلة بالسعادة والطمانينة لجزاء الخلود«اما بعد،فان الدنيا قد ادبرت واذنت بوداع، وان الاخرة قد اقبلت واشرفت باطلاع، الا وان اليوم المضمار، وغدا السباق، والسبقة الجنة، والغاية النار»[1].

ومن تطبيقات الزمن النفسي الاجتماعي في كلام وخطب الامام علي (عليه السلام)، تاكيده على الاحساس بالزمن وادراكه، وردت في مواضع كثيرة نورد منها:
«وان غدا من اليوم قريب، يذهب اليوم بما فيه، ويجيئ الغد لاحقا به، فكان كل امرىء منكم قد بلغ من الارض منزل وحدته، ومحط حفرته»[2].

«واستتموا نعم الله عليكم بالصبرعلى طاعته، والمجانبة لمعصيته فان ذدا من اليوم قريب»[3].

«ولنعم دار من لم يرض بها دارا،ومحل من لم يوطنها محلا،وان السعداء بالدنيا هم الهاربون منها اليوم»[4].

وقد تجسدت تطبيقات الزمن النفسي الاجتماعي في ابهى صورها وادق صنعتها عند الامام (عليه السلام) في مفهوم «المدة النفسية Duration» فقد اشار اليه الامام اشارة العالم الخبير بخفايا النفس ومجبولاتها مع الذات والمحيط «ان غاية، تنقصها اللحظة، وتهدمها الساعة، لجديرة بقصر المدة»[5].

«وانصرمت الدنيا باهلها، واخرجتهم من حضنها، فكانت كيوم مضى او شهر انقضى، وصار جديدها رثا، وسمينها غثا»[6]

«ان لكل شيء مدة واجلا»[7].

فالانسان يدرك تعاقب التغيرات على وفق تصوراته ومتغيراته النفسية الذاتية وعلاقته بالخر والمحيط، وهي عند بياجيه Biaget القدرة على تقدير طول حادثة ما في حدود ثواني الساعة، يدركها الانسان منذ بدايات حياته عندما يدرك ترتيب الاحداث، ويتباين الاشخاص في تقدير المدة الزمنية على وفق خبراتهم الشخصية، وتبعا لعوامل عديدة منها العمر والوعي والمرض والانفعال وغير ذلك.[8]

للمدة الزمنية في كلام وخطب الامام (عليه السلام) دلالة مهمة نقلها من دلالتها المادية التي هي مجرد تقدير طول حادثة ما في حدود ثواني الساعة الى دلالاتها النفسية الاجتماعية السلوكية، أي من كونها قياسا ميقاتيا فيزيائيا الى مدركا ايمانيا داخليا تتحدد ايقاعاته الزمنية على وفق تجربة الانسان ونبل اهدافه وسواءها وعمقها «تظهر كل فترة ما رغم تساوي الاشياء ثم، طويلة بقدر ضخامة عدد وتعقيد الاحداث التي تملؤها، وحسب – دوب – تبدو فترة ما فارغة او

---

١ . خطبة ٢٨ في ادبار الدنيا واقبال الاخرة والحث على التزود منها.
٢ . خطبة ١٥٦ يحث فيها على التقوى.
٣ . خطبة ١٨٧ في التذكير بنعم الله والوصية بالتقوى.
٤ . خطبة ٢٢١ كلام له عليه السلام قاله عند تلاوته «يا ايها الانسان ما غرك بربك الكريم» وفيه تبرئة الدنيا عن عن الذم.
٥ . خطبة ٦٤ في لزوم الاستعداد للموت.
٦ . خطبة ١٨٩ يحمد الله ويثني على نبيه ويعظ بالتقوى.
٧ . خطبة ١٨٩ يحمد الله ويثني على نبيه ويعظ بالتقوى.
٨ . الفتلاوي، ٢٠١٠.

مزدحمة طويلة ويمر الزمن انئذ ببطء، وتبدو قصيرة بالمقابل ويمر الزمن بسرعة حين يرى حدوث بعض الاحداث فيها،ولكن بلا زيادة اونقصان»[1].

٢.الزمن المادي(الفيزيائي)

هو الزمن الذي يتجسد في المقياس الحسي الخارجي لاية مدة بواسطة الحركة وهو الزمان المستعمل في الحياة العادية على هيئة ساعات وايام وشهور واعوام[2] وهو الذي تقيسه وسائل قياس الزمن (الساعات) التي صممت على اخذ قراءات مباشرة للنقاط الزمنية، وهذه الالات تقيس بدقة الفترة الزمنية ابتداء من النقطة الزمنية الثابتة، وحتى النقطة الزمنية الحاضرة[3] وهو ذاته الزمن الفلكي او الاصطلاحي الذي اقره الانسان في مجتمعه من وحدات زمانية اختبارية اصطلاحية، اصطنعها العلم من اجل تنظيم خبرة الانسان التي قسمها الى وحدات السنين والشهور والاسابيع والايام والساعات والدقائق والثواني.[4]

لقد استخدم الامام علي (عليه السلام) مفاهيم الزمن المادي الفيزيائي في توصيل وايضاح غاياته النبيلة للناس في دروسه التربوية وحواراته ومواعظه كونها حقائق مادية ملموسة خارجية بامكان الجميع ادراكها بشكل متقارب او متشابه «ولا يعمر منكم يوما من عمره الا بهدم اخر من اجله، ولا تجد له زيادة في اكله الا بنفاذ ما قبلها من رزقه»[5].

«خافوا بغتة الاجل، فانه لا يرجى من رجعة العمر ما يرجى من رجعة الرزق، ما فات من الرزق رجي غدا زيادته، وما فات امس من العمر لم يرج اليوم رجعته»[6].

«وان غائبا يحدوه الجديدان – الليل والنهار- لحري بسرعة الاوبة»[7].

«فان غدا من اليوم قريب، ما اسرع الساعات في اليوم، واسرع الايام في الشهر، واسرع الشهور في السنة، واسرع السنين في العمر»[8].

صاغ الامام (عليه السلام) رؤيته للزمن المادي الفيزيائي بطريقة تحث الناس على سلوك منظم زمانيا، تمتزج مفرداته المتباينة كلها في ادامة زخم الكفاح من اجل احداث التغيرات المتتالية البناءة في مسيرة الانسان نحو تحقيق الذات القويمة المؤمنة. لقد اراد (عليه السلام) اخضاع الزمن الفيزيائي وتقسيمه على وفق مناخ المنظومة النفسية والعقلية للفرد او مختلف بناءات شخصيته بما يحقق رؤية موحدة من عناصر الزمن المختلفة.

٣. الزمن البايولوجي

ذلك الذي نعرف اثره التي تدل عليه، فهو يظهر فيما يعترينا من تغيرات في اجسامنا ووظائف اعظائنا.[9]

وهو يبدا مع الكائن منذ لحظة تخلقه الى ولادته، وصولا الى نهايته، أي ما يمكن ان نسميه بالزمن النمائي للكائن الحي الذي يتحكم بحالات نموه وتطوره البدني ضمن نسق نمائي محدد.[10]

---

١ . بوميان، ٢٠٠٩.
٢ . اميل، ١٩٨٢.
٣ . عوض، ٢٠٠٨.
٤ . الفتلاوي، ٢٠١٠.
٥ . خطبة ١٤٤ في حال الدنيا وفي البدع.
٦ . خطبة ١١٤ فيها مواعظ للناس.
٧ . خطبة ٦٤ في لزوم الاستعداد للموت.
٨ . خطبة ١٨٧ في التذكير بنعم الله والوصية بالتقوى.
٩ . الفتلاوي، ٢٠١٠.
١٠ . ادلبي، ٢٠٠٥.

اذ اشار الامام (عليه السلام) ضمن منهجه الزمني الشامل الى انبثاق الزمن ونشوئه عند الانسان، فقد عرض مراحل نشوء ونمو الانسان بوصفها مراحل زمنية يتبدل خلالها احساس الانسان بالزمن وادراكه له، فقد اراد الامام ان يبين للناس ان الادراكات الزمنية تتغير كدالة للتطورات الادراكية، ولكنها تتغير ايضا استجابة للادوار الاجتماعية، أي ما يعنيه ان يكون المرء شابا او طفلا، او هرما....الخ

«فهل ينتظر اهل بضاضة الشباب الا حواني الهرم، واهل غضارة الصحة الا نوازل السقم»[1].

«ام هذا الذي انشاه في ظلمات الارحام، وشغف الاستار، نطفة دهاقا، وعلقة محاقا، وجنينا، وراضعا، ووليدا، ويافعا، ثم منحه قلبا حافظا، ولسانا لافظا وبصرا لاحظا»[2].

جدول رقم (١)

خطب وكلام الأمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) التي خضعت للتحليل بوصفها «مجتمع البحث الحالي» مع ألفاظ وأسماء الزمن فيها

رقم الخطبة	عنوانها	الفاظ واسماء الزمن فيها
٢٠	في العبرة مما بعد الموت	أدبرت، اليوم، غداً، السبقة،الغاية، أيام، أمل، أجل.
٤٢	في النهي عن أتباع الهوى وطول الأمل	الأمل، ولّت حذّاء، اليوم، غداً.
٦٤	في لزوم الاستعداد للموت	آجالكم، الموت، اللحظة، الساعة، المدّة، الليل، النهار، غداً، أيامهُ.
٨٣	الخطبة الغرّاء	وقت، تصرمت، تقضت، الأمل، مدة آجل، يوم، مدد عمرها، أعماراً، الهرم، مدة البقاء،الاوان، الشباب، آونة، الفناء، الزيال، أزوف، غدهِ، نطفة دهاقاً، علقة محاقاً، جنيناً، راضعاً، وليداً، يانعاً.
١٠٣	في التزهيد في الدنيا	متوقع، منقضٍ،آتٍ، قريب، زمانٌ.
١١١	في ذم الدنيا	الأبد، أخلد، آمالاً.
١١٤	فيها مواعظ للناس	الدهر، الموت، جاءٍ، ماضٍ، العمر أمس، اليوم.
١٢٩	في كلام له عليه السلام لأبي ذر رحمه الله لما خرج الى الربذة	غداً.
١٣١	يعظ فيها ويزهد في الدنيا	أمل، الموت.
١٤٤	في حال الدنيا وفي البدع	المنايا، عمر يوم، آجل.
١٤٦	الغاية من البعثة وعظة الناس	زمان، آمال، آجال.
١٤٨	من كلام له عليه السلام قبل موته	آجل، الأيام، الامس، اليوم، غداً.
١٥٦	يحث فيها على التقوى	الدهر، سرمداً، الساعة، أيام الفناء، أيام البقاء، غداً، اليوم.
١٥٩	في تمجيد الله وفي حقيقة الرجاء وفي ذكر الأنبياء	الصباح.
١٦٦	خطبة له عليه السلام في أول خلافته	الموت، الساعة.

١ . خطبة ٣١ ج٣ من وصية له عليه السلام للحسن بن علي عليهما السلام كتبها اليه في حاضرين منصرفا من صفين.

٢ . خطبة ٨٣ الخطبة الغراء.

١٧٤	في الموعظة وبيان قرباه من رسول الله	يومها، دهرها.
١٨٧	في التذكير بنعم الله والوصية بالتقوى	الموت، غداً، اليوم قريب، الساعات، الشهر، السنة، السنين، العمر.
١٨٩	يحمدُ الله ويثني على نبيه ويعظ بالتقوى	الساعة، يوم، شهر، مدة، آجلاً.
٢١٩	يصف فيها الموت والسائرين الى الموت	الليل، الصباح، النهار، المساء، سرمداً، الدهر، الأيام.
٢٢١	من كلام له عليه السلام قاله عند تلاوته "ياأيها الانسان ما غرك بربك الكريم" وفيه تبرئة الدنيا من الذم.	غداً، اليوم.
٢١/ ج٣	ومن كتاب له عليه السلام الى زياد بن آبيه	اليوم، غداً.
٢٧/ ج٣	من عهد له عليه السلام الى محمد بن أبي بكر حين قلده مصر.	الموت، ساعة، الدهر، وقتها، الموقت.
٣١/ ج٣	من وصية له عليه السلام للحسن بن علي عليهما السلام إليه بحاضرين، منصرفاً من صفين	الفان، الزمان، العمر، الدهر، غداً، المولود، الايام، الليالي، الظلام.
٧٢/ ج٣	من كتاب له عليه السلام الى عبد الله بن عباس	دهر، يوم

جدول (٢)

الفاظ واسماء الزمن النفسي والاجتماعي والمادي الميقاتي (الفيزيائي) والبايولوجي،في كلام وخطب الامام علي (عليه السلام)

ألفاظ الزمن النفسي الاجتماعي	الفاظ الزمن المادي الفيزيائي	الفاظ الزمن البايولوجي
-الموت، الأمل، السبقة، المدة، الغاية، الأوان، الفناء، الزيال، أزوف، الأبد، أخلدَ، المنايا، اليوم، الدهر، سرمدا.	اليوم، الساعة، الغد، اللحظة، النهار،الليل، الوقت، أمس، الصباح، الشهر، المساء، الظلام.	العمر، الاعمار، الشباب، ظلمات الارحام، نطفة دهاقاً، علقة محاقاً، جنيناً راضعاً، وليداً، يافعاً، السن.

قائمة المصادر والمراجع

ادلبي، بهيجة (٢٠٠٥) الزمن رسالة الكائن الى ذاته، دار عبد المنعم ناشرون، القاهرة

اميل، توفيق (١٩٨٢) الزمن بين العام والفلسفة والادب، ط١، دارالشروق، القاهرة

برداثيف، نيقولاي (١٩٨٦) العزلة والمجتمع،ترجمة فؤاد كامل، ط٢، مطبعة دار النشر المشترك،بغداد

بوميان، كريستوف (٢٠٠٩) نظام الزمان، ترجمة بدر الدين عردوكي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان

الفتلاوي، علي شاكر(٢٠١٠) سيكزلزجية الزمن،صفحات للدراسات والنشر،دمشق

شورون،جاك (١٩٨٤) الموت في الفكر الغربي، ترجمة كامل يوسف حسين، عالم المعرفة (٧٦) الكويت

عبد الخالق،محمد احمد (٢٠٠٥) سيكولوجية الموت والاحتضار،مجلس النشر العلمي، الكويت

عوض،محمود يوسف (٢٠٠٧) اسماء الزمن في القران الكريم،رسالة ماجستير، فلسطين

spattisuood&Eyre،Paul(١٩٦٣) The psychology of time،Fraisse، London.

paris.،Delochux،E.(١٩٦٨)Le temps vecue ،Minkowiski

السيدعبدالزهراءالخطيب وجهوده في دراسة مصادرنهج البلاغة واسانيده

الاستاذ المساعد الدكتور: عبدالكريم عز الدين الاعرجي (جامعة بغداد / كلية التربية للبنات)

مقدمة البحث:

تتميز حياة امير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام)، بأنها مليئة بالدروس والعبر والمواعظ ، وبذلك اصبحت حياته منهلا ثرا للانسانية جمعاء في ميادين الزهد والتضحية والعطاء.

وكانت خطبه وكلماته، نبراسا مضيئا للمسلمين في تلك العصور التاريخية والتي جمعت فيما بعد بكتاب نهج البلاغة، والذي يعد من ابرز الكنوز البلاغية والفكرية والانسانية في التراث الاسلامي والانساني على حد سواء.

وقد جمع الشريف الرضي خطب وكلمات الامام علي (عليه السلام) من خلال المصادر والكتب المتوفرة لديه آنذاك ، في كتاب سماه (نهج البلاغة)، فأصبح مصدرا مهما لدى الباحثين والمفكرين.

ولان أمير المؤمنين الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام)، قمة شامخة بين القمم الاخرى، وقدوة متميزة لاتضاهيها قدوة، فعشقه الكثيرون وتمسكوا به، مما دفع بالبعض من المناوئين والحاقدين على منهجه الديني والدنيوي، بالبحث عن كل شاردة وواردة في شخصية الامام وسيرته، فوجدوا انفسهم امام جار صلد لايمكن خرقه، فذهبوا الى الطعن بعائدية كتاب نهج البلاغة الى الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام)، مما دفع بأهل الفكر والقلم، بالرد على هؤلاء، وبيان بهتان اباطيلهم، ويعد السيد عبد الزهراء الخطيب الحسيني، من ابرز الرجال الذين دافعوا عن عائدية كتاب النهج الى امير المؤمنين علي (عليه السلام)، ودحض اراء المخالفين، ومن خلال كتابه (مصادر نهج البلاغة واسانيده)، وانك لو اتممت قراءة الكتاب ، لايقنت بالكامل الى صواب ما ذهب اليه السيد الخطيب في كتابه،من خلال ادلته وبياناته المستمدة من المصادر والكتب ذات الصلة، فضلا عن قدرته في التوظيف المنهجي البحثي الاكاديمي في كتابه ليجعله اكثر دقة وسلامة.

السيدعبدالزهراءالخطيب:

ولد السيد الحسيني الخطيب في مدينة الناصرية عام (١٩٢٠م)، وانتقل في طفولته الى مدينة الخضر التابعة الى السماوة، ونشأ في كنف اخواله الشيخين اسد حيدر (صاحب كتاب الامام الصادق والمذاهب الاربعة)، وطالب حيدر.[١]

وبعد ان اكمل دراسته الابتدائية عام (١٩٣٥م)، انتقل الى مدرسة الامام محمد حسين كاشف الغطاء، اذ واصل دراسته للعلوم العربية والاسلامية التي كان قد بد بدأها منذ صغره على يد اخواله الشيخين اسد حيدر وطالب حيدر.

وبعد دراسته في مدرسة الامام كاشف الغطاء في النجف الاشرف، عاد مرة اخرى الى مدينة الخضر، وبدأ بتنفيذ سفره الخالد (مصادر نهج البلاغة واسانيده)، ثم قرر الارتحال الى كربلاء في منتصف الستينات وليكون قريبا من النجف اذ طبعت الطبعة الاولى من كتابه، وكانت له رحلة يومية بين كربلاء والنجف لذلك الغرض، وبعد انجاز طباعته كان مترددا في العودة الى الخضر، فعزم على البقاء والسكن في مدينة كربلاء المقدسة.

لولا انتقاله وعائلته بعد عام الى بلد، وبعد رحيله عن الخضر تفرق الكثيرون من صحبه في نواح شتى من العاق وكأنهم لم يطيقوا العيش في الخضر من دونه، ولقد شاء الله ان تكون الوجهة (بلد) فقد طلب اهلها استضافته في رمضان عام (١٣٨٥هـ)،(١٩٦٦م)[١].

---

١ . ينظر : كوركيس عواد ، معجم المؤلفين العراقيين ، بغداد ، ١٩٦٩م ، ج٢ : ٢٧٤ .

وتوفي السيد عبد الزهراء الحسيني يوم (١٩٩٣/١٢/٢٤م) في دمشق، اذ دفن هناك في مقبرة السيدة زينب عليها زينب عليها السلام، وعبر الشيخ احمد الوائلي رحمه الله بكلمات مرتجلة على قبره منها (لقد أخذ القبر ابا موسى جدا ولم يأخذه من مشاعرنا، ولقد عاش بمشاعرنا بما حمل من ملكات كريمة اولها نفس كبيرة)[٢].

اما اهم مؤلفاته، فأنه في الثمانينيات اصدر العديد من الكتب التي الفها وحققها وهي:(الشافي في الامامة) اربعة اجزاء (الغارات) للثقفي، اشعة من منار الهدى، مائة شاهد وشاهد، (شرائع الاسلام) شرح وتحقيق في ثمانية اجزاء، وان الظروف القاسية جعلته دون ان ينجز العلامة الحسيني الاهم في مشاريعه الادبية وهو كتاب (التحريف والتصحيف)، لكل ما وقع في التراث العبي المخطوط والمطبوع، والذي كان مقدرا له ان يكون في عشر مجلدات، و(عمر بن عبد العزيز)، و(عمل مسرحي عن كربلاء).
ويعد كتاب (مصادر نهج البلاغة واسانيده)، والصادر في عام (١٩٦٦م) في اربعة اجزاء من اهم مؤلفاته، واستغرق في كتابته خمس عشرة سنة[٣].

الشريف الرضي وكتاب نهج البلاغة:

يعد السيد الشريف الرضي، هو من جمع خطب وكلمات امير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) وجمعها في كتاب سماه (نهج البلاغة)، وصفه السيد الشريف لهذه التسمية قائلا فيه:(اذ كان يفتح للناظر فيه ابواب، ةيقرب عليه طلابها، وفيه حاجة العالم والمتعلم، وبغية البليغ والزاهد، ويمضي في اثنائه من عجيب الكلام في التوحيد والعدل، وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن شبه الخلق، وهو شفاء كل علة، وجلاء كل شبهة)[٤].

ويذكر ان الكتاب ضم مختار (٢٣٧) كلاما وخطبة تقريبا، و(٧٩) بين كتاب ووصية وعهد، و(٤٨٠) من الكلمات القصار[٥].

وكان السيد الشريف الرضي من الزهد والعبادة والاستقامة، والذي جمع كلامه امير المؤمنين (عليه السلام) في كتاب نهج البلاغة، مما دفع بالاعتقاد وبمصداقيته في مجال التأليف والتحقيق، فضلا عن سيرته الحسنة لدى جموع المسلمين، فهو ابو الحسن محمد بن ابي احمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن ابراهيم بن موسى بن جعفر الصادق (عليه السلام)، مولده تسع وخمسين وثلثمائة.
وكان ابوه النقيب ابو احمد جليل القدر، عظيم المنزلة في دولة بني العباس ودولة بني بويه، ولقب بالطاهر ذي المناقب، وخاطبه بهاء الدولة البويهي ابو نصر بن بويه بالطاهر الاوحد، وولى نقابة الطالبيين خمس دفعات، ومات وهو متقلدها بعد ان حالفته الامراض، وذهب بصره، وتوفي عن سبع وتسعين سنة، وتوفي سنة (٤٠٠هـ)[٦].

واتصف السيد الرضي بدماثة خلقه، وصدق كلامه، وغزارة علمه، وطالبا حقيقيا وصادقا للعلوم والمعارف، فحفظ القران بعد ان جاوز ثلاثين سنة في مدة يسيرة، وعرف من الفقه والفرائض طفا قويا، وكان عالما واديبا وشاعرا، عفيف شريف النفس، عالي الهمة ملتزما بالدين وقوانينه،

---

١ . مجلة الموسم، العدد (٢٠) عدد خاص لملف حياة السيد عبد الزهراء الخطيب الحسيني، ١٩٩٤م، ص: ٢٤٣.
٢ . م.ن، ص:٢٦٣-٢٦٦ .
٣ . م.ن، ص:٢٤٣ .
٤ . شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد عز الدين ابو حامد عبد الحميد ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم (ت ٦٥٦هـ) دار احياء التراث العربي ط٢، بيروت ١٩٦٥م ج١ ص:٥٣ .
٥ . مصادر نهج البلاغة واسانيده السيد عبد الزهراء الخطيب، دار الاضواء ط٣ بيروت، ١٩٨٥م ج١:٨٨ .
٦ . شرح النهج ابن ابي الحديد ج١:٣١ .

ولم يقبل من احد صلة ولاجائزة، اذ انه رد صلات ابيه، فأما بنو بويه فأنهم اجتهدوا على قبوله صلاتهم فلم يقبل[1].

وعند وفاته، حضر الوزير الديلمي فخر الملك وجميع الاعيان والاشراف والقضاة جنازته والصلاة عليه، ودفن بداره بمسجد الانباريين بالكرخ، ومضى اخوه المرتضى من جزعه الى مشهد الامام موسى بن جعفر (عليهما السلام)، لانه لم يستطع ان ينظر الى تابوته ودفنه[2].

وينتمي السيد الشريف الرضي الى عائلته من اب وام علويين، فأمه ام الرضي ابي الحسن فاطمة بنت الحسين بن احمد بن الحسن الناصر الاصمّ، صاحب الديلم، وهو ابو محمد الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر بن علي بن ابي طالب (عليهم السلام)، شيخ الطالبيين وعالمهم وزاهدهم، واديبهم وشاعرهم، ملك بلاد الديلم والجبل[3].

لقد بذل الشريف الرضي جهداً متميزاً في جمع نهج البلاغة من مصادر متنوعة ومختلفة، ممعتبراً ان كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) في جميع فنونه، ومتشعبات غصونه، من خطب وكتب ومواعظ وادب، علما ان ذلك يتضمن من عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العبية، وثواقب الكلم الدينية والدنياوية، مالايوجد مجتمعا في كلام، ولاجموع الاطراف في كتاب، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصروا، وتقدم وتأخروا، لان كلامه (عليه السلام) الكلام الذي عليه مسحة من العلم الالهي، وفيه عبقة من الكلام النبوي[4].

مصادر الشريف الرضي في نهج البلاغة:

لم يذكر الشريف الرضي في كتابه المراجع والمصادر التي رجع اليها، وسنأتي الى تفصيل ذلك لاحقا، او الشيوخ الذين نقل عنهم، ويبين الاستاذ محمد ابو الفضل ابراهيم محقق كتاب شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد المعتزلي، بأن السيد الرضي نقل من تضاعيف الكتاب، نقل في بعض مانقل عن كتاب البيان والتبيين للجاحظ، والمقتضب للمبرد، وكتاب المغازي لسعيد بن يحي الاموي، وكتاب الجمل للواقدي، والمقامات في مناقب امير المؤمنين لابي جعفر الاسكافي، وتاريخ ابن جرير الطبري، وحكاية ابي جعفر محمد بن علي الباقر (عليه السلام)، ورواية اليماني عن احمد ابن قتيبة، ورواية ابي حنيفة، وحكاية ثعلب عن ابي الاعرابي، وله في غير مانقل عن هؤلاء، نقل من مصادر أخرى لم يعرج بها[5].

السيد عبدالزهراءالخطيب وكتاب نهج البلاغة:

بذل السيد عبد الزهراء الخطيب جهوده المتميزة في سبيل دراسة كتاب نهج البلاغة، في مصادره واسانيده، والغرض الاساس من هذه الدراسة لبيان مصداقية عائدية محتويات النهج الى امير المؤمنيين (عليه السلام).
وبين السيد رحمة الله في جزءه الاول من كتابهِ، منهجه، واهدافه من كتابه، فضلاعن البحوث القيمة والمتعلقة بدراسته.
ويقوم السيد الخطيب بعرض نصوص خطب وكلمات امير المؤمنين علي (عليه السلام)، من كتاب نهج البلاغة، ومن ثم دراسة كل خطبة على حدة ومن خلال عرض الخطبة كاملة او مجتزأه، ويقوم السيد الخطيب ويقوم السيد الخطيب ببيان المصادر القديمة التي ذكرت هذه الخطبة قبل نهج البلاغة او بعده، مع قيامه بدراسة مقارنة لتلك المصادر، وهذا يتطلب من الباحث الجهد المثابر والصبر والتأني، والبحث الدقيق الجدي بين المصادر والكتب الكثيرة

---

١ . م . ن، ص ٣٣ .
٢ . م . ن، ص ٤٠ .
٣ . م . ن، ص (٣٢- ٣٣) .
٤ . م . ن، ص ٤٥ .
٥ . شرح النهج، ابن ابي الحديد مقدمة المحقق ج١ .

للوصول الى الحقيقة والتي تنصف أمير المؤمنين علي (عليه السلام) وحفيده السيد الشريف الرضي رضوان الله عليه.
ويقدم السيد الخطيب شكره وتقديره الى العلماء الذين ساعدوه في انجاز هذا الكتاب وهم الشيخ اسد حيدر، والشيخ عبد الحسين الاميني الذي اسداه من نصائح ثمينة وارشادات قيمة وملاحظات مهمة، وكذلك أغابزرك طهراني الذي جعل مكتبته تحت تصرفه في اي وقت من ليل ونهار، وأطلاعه على مخطوطاته، وكذلك الشيخ أحمد الوائلي في دعمه المادي[1].

واطنب العلماء والمثقفين لكتاب مصادر نهج البلاغة واسانيده للسيد الخطيب ومنهم الشاعر السيد مصطفى جمال الدين قائلا:(أن ثلاثة أقلام كان لها الدور المميز في أغناء المكتبة العبية في كتاب نهج البلاغة، الشريف الرضي في اختياره، وأبن أبي الحديد في شرحه، والسيد عبد الزهراء الحسيني في رد الشبهة عنه)[2].

أما الشيخ مرتضى آل ياسين، فأنه أثنى واطنب عن الكتاب ومؤلفاته، قائلا:(على ان هناك من الوثائق التاريخية المعتمد عليها مالورجع اليها المتتبع لأزداد أيماناً ويقيناً بصحة النسبة وثبوتها بشكل لايقبل الجدل والارتياب وهذا ما نهد الى جمعه والالمام به في هنا الكتاب مؤلفه السيد الجليل البحاثة المتتبع، والخطيب البارع السيد عبد الزهراء الحسيني، فأنه أودعه من الوثائق الصحيحة، والشواهد الصريحة ما جعله فذاً في موضوعه، ولاشك في أنك أن رجعت اليه فسوف لاتنكفئ عنه الا وانت مؤمن كل الايمان بأن المرتابين في نسب النهج هم أبعد الناس عن نهج الصواب)[3].

أما العلامة المرحوم الدكتور مصطفى جواد، فقد اطنب على هذا الكتاب، وبين الجهود المبذولة لصاحبه السيد الخطيب ومثابرته في تتبع المصادر والكتب في سبيل أخراج هذا الكتاب بحججه الناصعة[4].

ويعترف السيد الخطيب بأنه ليس اول من فتح هذا الباب في دراسة مصادر نهج البلاغة وفي هذا الموضوع مبينا بأنه لشيخنا الهادي من آل كاشف الغطاء، فضل السبق الى بيان (مدارك نهج البلاغة)، غير أنه لم يذكر الا اليسير بصورة مقتضبة، وبيان وجيز وتعجل في جمعها خوف الشتات، وسارع الى أخراجها خشية الضياع، وكذلك كتاب الأمام الحجة السيد هبة الدين الشهرستاني نور الله ضريحه (ما هو نهج البلاغة؟)، تغني شهرته عن التنويه به، فقد بحث فيه تاريخ (نهج البلاغة) وقيمته العلمية والادبية، وللاستاذ (حسين بستانه) بحث قيم تعرض فيه للشبهات الخائمة حول النهج، نشرته مجلة الأعتدال النجفية الغراء في العدد الرابع من سنتها الخامسة[5].

ومن المعروف ان كتاب نهج البلاغة والذي قام بجمعه السيد الشريف الرضي، أهمل من ذكر سلسلة السند وذكر المصادر، ويبدو لنا أن القرون الهجية المتأخرة في التاريخ الاسلامي، وشهدت حركة مثابرة للتأليف والكتابة، وأن المنهج والاسلوب السائد آنذاك في التأليف والكتابة هو حذف سلسلة السند، فضلاً عن ظهور مؤلفات تلخص فيها الكتب الكبيرة سميت كتب التلخيص، وكل ذلك من أجل تسهيل مهمة القراءة والبحث.
وعليه فأن السيد الخطيب رحمه الله يرى بأن الرضي لو تعرض لذكر المصادر، واعتنى بالأسانيد لقال بعضهم: (أشتعل بعض علمائهم الشيعة، بعلم الحديث وسمعوا الثقات وحفظوا

---

١ . مصادر النهج السيد الخطيب ج١٧:١- ١٨ .
٢ . ينظر مجلة الموسم العدد (٢٠) ص ٢٤٣ .
٣ . مصادر النهج السيد الخطيب ج١ :٩ .
٤ . م . ن، ص ١٠ .
٥ . م . ن، ص ١٧ .

الاسانيد الصحيحة، ثم وضعوا بهذه الاسانيد أحاديث تتفق ومذهبهم، وأضلوا بهذه الاحاديث كثيراً من العلماء، فسواء فعل الرضي، ولم يفعل، فأن موقفهم من الكتاب سيكون واحداً[1].

ويرى السيد الخطيب بأن الشيف الضي كان يتوخى أهداف معينة لجمعه خطب الأمام علي (عليه السلام)، لأنه لم يجعله مصدرا من مصادر الفقه، أو مدركاً من مدارك الأحكام، بل كان جل قصده أن يخرج للناس جانباً من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام)، الذي يتضمن من عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية، وثواقب الكلم الدينية والدنياوية، لذا تراه لم يذكر الاسانيد، ولم يتعرض للمصادر الا فيما ندر[2].

والجدير بالذكر بأن أبن أبي الحديد المعتزلي صاحب كتاب شرح نهج البلاغة، وهو من أهم كتب شروح النهج لسعته ودقته، انتبه الى موضوع عائدية أو نسب النهج الى الأمام علي (عليه السلام)، قائلاً في ذلك: (أن كتاب نهج البلاغة للأمام علي (عليه السلام) كان مثاراً للشك على مر العصور والأزمان عند العلماء والباحثين، المتقدمين والمتأخرين، ويصف بأن كثير من أرباب الهوى يقولون: أن كثيراً من النهج البلاغة كلام محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة، وربما عزوا بعضه الى الرضي، فيصف أبن أبي الحديد هؤلاء بأنهم قد اعمت العصبية أعينهم فضلوا عن النهج الواضح.
ويرى أن كتاب نهج البلاغة، لايخلو أما أن يكون كل نهج البلاغة مصنوعاً منحولاً، أو بعضه.
والادل باطل بالضرورة، لأنا نعلم بالتواتر صحة أسناد بعضه الى أمير المؤمنين (عليه السلام)، والمؤرخون كثيراً منه، وليسوا من الشيعة لينسبوا الى غرض في ذلك. والثاني: لابد أن نفرق بين الكلام الركيك والفصيح، وبين الفصيح والافصح.
وخير كلام أبن أبي الحديد عندما قال: (وانت أذا تأملت نهج البلاغة وجدته كله ماء واحداً، ونفساً واحداً، واسلوباً واحداً، كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الابعاض في الماهية، وكالقرأن العزيز، اوله كوسطه، وأوسطه كآخره وكل سورة منه، وكل آية مماثلة في المأخذ والمذهب والفن والطريق والنظم لباقي الآيات والسور، ولو كان بعض نهج البلاغة منحولاً، وبعضه صحيحاً، لم يكن كذلك، فقد ظهر لك بالبرهان الواضح ضلال من زعم ان هذا الكتاب او بعضه منحول الى امير المؤمنين (عليه السلام)[3].

ويرى السيد االخطيب بأن هنالك أهتمام للناس بكلام أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، عبر التايخ، وأطلقوا تسميات على بعض خطبه للتعريف بها، والتمييز بينها مثل (التوحيد، الشقشقية، الهداية، الملاخم، اللؤلؤة، الغراء، القاصعة، الافتخار، الاشباح، الدرة اليتيمة، الاقاليم، الوسيلة، الطالوتية، القصبية، النخيلة، السلمانية، الناطقة، الدافعة، الزهراء، المونقة – وهي الخالية من الالف، والعارية – عن النقطة[4].

ويقدم لنا دراسةأحصائية عن أهتمام العلماء عبر التاريخ الأسلامي، بكتاب نهج البلاغة، ومنها أن كتب شروح نهج البلاغة بلغت (١١١) كتاب، وأن مكتبة نهج البلاغة، وهي تلك مؤلفات النهج في ميادين ترجمته، أو نظمه، أوفي شيئ يتعلق به كالبحث عن مصادره، والاستدراك عليه، أو الدفاع عنه، أو التأليف على نسقه فبلغ (٣٣) كتاب، ويبين أن مستدركات نهج البلاغة، هي على غرار النهج لطائفة من الكتاب والمؤلفين الذين أقتدوا بالشريف الرضي فترسموا خطاه واتبعوا طريقته، وهي سبعة مؤلفات[5].

---

١ . م . ن، ص ٢٨- ٢٩ .
٢ . م . ن، ص ٢٧ .
٣ . ينظر:شرح النهج ابن ابي الحديد ج١٢٨:١- ١٢٩ .
٤ . م . ن، ص ٤٧ - ٤٨ .
٥ . م . ن، ص ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٣ .

ويذكر أن خطب أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، كانت متداولة قبل عصر الشريف الرضي، ونها غلى سبيل المثال ما ذكره الجاحظ (بأن خطب علي (عليه السلام) كانت مدونة محفوظة مشهورة مجلدة)[١]، واحصى المؤرخ المسعودي ما كان محفوظاً من خطب علي (عليه السلام) فقال: (والذي حفظ الناس من خطبه في سائر مقاماته اربعمائة ونيف وثمانون خطبة)[٢].

وقال سبط ابن الجوزي الحنفي: أخبرنا الشريف الرضي أبو الحسن علي بن محمد الحسيني بأسناده الى الشريف المرتضى قال:(وقع الي من خطب أمير المؤمنين (عليه السلام) اربعمائة خطبة)[٣].

ويذكر لنا السيد الخطيب الحسيني لقائمة مؤلفات وكتب في خطب الامام علي (عليه السلام) قبل ظهور كتاب نهج البلاغة فكانت اكثر من (٢٠) مؤلفاً[٤]، وبالطبع فأن هذه الخطب والكلمات موجودة ضمناً في كتاب نهج البلاغة.
وكذلك أبرز الكتب والمؤلفات التي أختصت بكلام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بعد صدور كتاب نهج البلاغة، فكانت (٤٨) مؤلفاً[٥].

وأطلع السيد الخطيب رحمه الله على كتب ومصادر كثيرة ومتنوعة في سبيل أنجاز كتابه المتكون من أربعة أجزاء والذي بلغ عدد صفحاته (٢٨٧٠) صفحة، مبيناً بأن الوقوف على جميع المصادر التي اخذ عنها الشريف الرضي ضرب من المحال، لوجود كتب كثيرة في عصره، عاشت بها يد الامام ولم يبق منها الا اليسير ولم نعرف عنها الاسماء بعضها في كتب الفهارس والرجال، ويحسبك ان تقف على فهارس أبن النديم والنجاشي والطوسي، وما أشار اليه ياقوت الحموي في معجم الأدباء وما ذكره صاحب كشف الظنون لبيان ذلك بوضوح.
ولولم يكن في متناول الشريف الرضي الا مكتبة اخيه علم الهدى (المرتضى)، المعروفة، والتي حوت أكثر من ثمانين الف مجلد لكفى، مضافاً الى المكتبات العامة التي كانت في عهده مثل مكتبة بيت الحكمة التي أنشأها سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة بن بويه الديلمي سنة (٣٨١هـ)[٦].

ويمكن تقسيم المصادر التي أعتمد عليها السيد عبد الزهراء الخطيب في تحقيق نسبة ما في نهج **البلاغة الى الامام علي (عليه السلام) الى اربعة أقسام:**
١- المصادر التي تم تأليفها قبل سنة (٤٠٠هـ) وهي سنة صدور (نهج البلاغة)، ولاتزال موجودة، وقد نقل عنها بصورة مباشرة.
٢- هنالك من المصادر التي تم تأليفها قبل صدور كتاب (النهج)، ولكنه نقل عنها بالواسطة.
٣- الكتب والمؤلفات التي صدرت بعد عهد السيد الضي، ولكنها نقلت كلام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بصورة تختلف عما في (النهج)، ولم تشر اليه، ويعتقد سماحة السيد رحمه الله ان مصدرها في النقل غير نهج البلاغة[٧].

٤- الكتب التي تم تأليفها بعد زمن السيد الشريف الرضي، ولكنها روت عن خطب وكلام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بأسناد ومتصلة ولم تمر في طريقها على السيد الرضي ولا على كتابه (نهج البلاغة).

---

١ . البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة ج١:٨٣ .
٢ . مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار احياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٢م، ج١:٤٣١ .
٣ . تذكرة الخواص، الدار الاسلامية، بيروت ١٩٩٥م، ص ١٢٨ .
٤ . مصادر النهج السيد الخطيب ج١:٥١٠ ٦٤ .
٥ . م . ن، ص ٨٦ .
٦ . تاريخ التمدن الاسلامي، جرجي زيدان، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٨٣م ج٣:٢٠٧ .
٧ . مصادر النهج السيد الخطيب ج١:١٩ .

اما عدد المصادر التي أعتمدها السيد عبد الزهراء الخطيب في دراسته وتحقيقه لكتابه، والتي احتوت على خطب أمير المؤمنين (عليه السلام)، والتي ألفت قبل عهد الرضي فكانت (١١٤) مصدراً مهماً، ومن اهم المصادر العربية والاسلامية ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

١- كتاب البيان والتبيين للجاحظ (ت٢٥٥هـ).
٢- كتاب الامامة والسياسة لأبن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ).
٣- كتاب انساب الاشراف للبلاذري (ت٢٧٩هـ).
٤- كتاب الأخبار الطوال للدينوري (ت٢٩٠هـ).
٥- كتاب التاريخ لليعقوبي (ت٢٩٠هـ).
٦- كتاب تاريخ الأمم والملوك للطبري (ت٣١٠هـ).
٧- كتاب الاشتقاق للأزدي البصري (ت٣٢١هـ).
٨- كتاب الآمالي للقالي البغدادي (ت٣٥٦هـ).
٩- كتاب الأغاني لابي فرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ).
١٠- كتاب أعجاز القرآن للباقلاني (ت٣٧٢هـ).
١١- كتاب الأمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (ت٣٨٠هـ).
١٢- كتاب البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي (ت٣٨٠هـ).
١٣- كتاب الأوائل لأبي هلال العسكري (ت٣٩٥هـ).

هذا فضلاً عن الكتب والمصادر الأخرى المتنوعة التي ذكرت خطب الأمام علي (عليه السلام) بصورة متفرقة.

كما ان السيد الشريف الرضي صرح ببعض المصادر التي روت خطب الامام علي (عليه السلام) قبل كتابته للنهج، والتي أستخدمها في كتابه، فكانت (١٥) مصدراً.

خاتمة البحث:

يتضح لنا ومن خلال هذا البحث، بأن هنالك جهود متميزة ومثابرة من لدن سماحة العلامة السيد عبد الزهراء الخطيب الحسيني (طيب الله ثراه)، ومن خلال البحث عن المصادر الموثوقة التي روت خطب الأمام علي (عليه السلام) والواردة في كتاب (نهج البلاغة)، ومن المعلوم أن هذا العمل يتطلب الصبر والتأني والمثابرة، والتنقيب المستمر بين المصادر والكتب، فكانت حصيلة (١٥) سنة من الجهد والتعب التي قضاها سماحته، ليتمكن في الأخير أن يخرج لنا جواهره المتلئلئة في كتابه مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ليضيف الى المكتبة العربية والاسلامية مساهمة جادة، لاغنى عنها لكل باحث وباحثة.

المهيمنة الدلالية في خطبة «الأشباح» في نهج البلاغة

دراسة الفرادة اللفظية في سياق وصف الملائكة

الأستاذ المساعد الدكتور: محمد جعفر محيسن العارضي (جامعة القادسية – كلية الآداب)

الملخص

ينظر البحث إلى «الفرادة اللغوية» من لحاظين هما: قابلية النظام اللغوي للغة التي يوظف المتكلم تقنياتها و امكاناتها الاختيارية، ومقدرة هذا المتكلم على أن يستشعر الطاقات الدلالية الكامنة والراكزة في تلكم الاختيارات ومدى خلق أجواء من التساوق بين العناصر الاختيارية في ضوء طاقاتها الدلالية.

وهذا ما نجده في التراث الكلامي الذي أثر عن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ونُقل في «نهج البلاغة».

ومن ذلك خطبة «الأشباح» ذات المضامين الفكرية والعقائدية و الكونية المهمة، التي يصف فيها الذات الإلهية من خلال اعتبارات متعددة، ويتكلّم فيها على تأديب الخلق في تعاملهم مع هذا الوصف، ويصف فيها السماء، والملائكة، وخلق الأرض.

اخترت منها ما يمثّل وصفا للملائكة ووظائفهم وطرائق تلقيهم التكاليف من الخالق العظيم...

فلقد أقام الإمام علي (عليه السلام) منظومته اللغوية في هذه الخطبة على أساس من القصدية الدلالية العليا التي تتوخى الدلالة الخاصة لهذا الظهور اللفظي أو ذاك من خلال توظيف إبلاغي بلاغي يحقق الغرض على نحو من التوصيل والتواصل؛ إذ يستعمل الإمام (عليه السلام) ألفاظا يريد طاقاتها الدلالية الخاصة من دون الاكتفاء بدلالاتها العامة التي تشترك فيها ألفاظ أخر؛ لذلك كان استعمال «الصفيح»، و«ملأ» و «حشى»، و«زَجَل»، و «رجيج» و «ملأ» و «حشا»، و «زَجَل»، و «رجيج»، و حظائر القُدس، وسُتُرات الحُجُب، و سُرادِقات المجد...

للدلالة على أماكن الملائكة وطرائق عمارتهم السماء وعبادتهم الله سبحانه وتعالى، على نحو من التجديد الدلالي الاستعاري الموحي؛ ما يدفع نحو دلالات عرفانية تُكسب هذه الدوال بعدا وعمقا يتجاوز ما هي عليه من دلالات مكانية.

إذ تؤسس هذه الدوال اللفظية إلى رمزية عالية تحث الإنسان وتجعل فيه هاجسا لطلب الكمالات والتدرج فيها.

المقدمة

يتمتع «نهج البلاغة» بمكانة عليا بين فنون المنجز القولي؛ ذلك بأنَّه كان يشتغل في منظومته اللغوية على أساس من توظيف بعدي العملية اللغوية في خطابه النصي.

فإنَّ المتأمل يجد الأمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) يسوق خطبه، وأوامره، وكتبه، ورسائله، وحكمه، ومواعظه التي يتضمَّنها «نهج البلاغة» وقد حشد لها عناصر الإبلاغ اللغوي، وعناصر البلاغية التعبيرية.

وعند التعاطي مع هذا الإبلاغ، وهذه البلاغية لا يكون أمام المحلل اللغوي إلا أن ينحاز في تحليله اللغوي إلى عناصر التوصيل اللغوي التأثيري؛ ليُقيم شبكة المعارفية الدلالية مستوفيا آليات العمل التحليلي الدلالي الموسَّع الذي يضمن بيان مغزى النص وطاقاته الدلالية.

حاولت في هذا البحث أن أتحرَّك في ضوء من هذه المفاهيمية الدلالية التحليلية الموسَّعة أملا في الوصول إلى أعماق «القصدية الدلالية» التي تُبنى عليها التوصيلية اللغوية التأثيرية في كلام الإمام علي (عليه السلام).

وكانت خطبة «الأشباح» هي السياق النصي الذي يتحرَّك البحث في ميدانه؛ لما لهذه الخطبة من خصوصية تعبيرية ومضمونية تتمثَّل في أنَّها خطاب عقائدي متكامل، يسعى الإمام (عليه السلام) من ورائه إلى ترسيخ طائفة من العقائد التي لا يسلَّم الدين من دون تمثُّلها ووعيها.
واعتمدَّت في تحليل البناء اللغوي لهذه الخطبة مجموعة من المهيمنات الدلالية أو الكلمات المفتاحية ذات الكثافة الدلالية؛ ولمَّا وجدت أنَّ خطبة «الأشباح» يمكن النظر إليها بلحاظ طائفة من المقاطع اقتطعت منها ما يتصل بالكلام على «الملائكة» بغية تحليله والكشف عن الرؤى الفكرية التي فيه.
وتوسَّعت في التوزيع المقاطعي للخطبة إلى الحد الذي بلغت فيه أن اقتطعت مقطعا صغيرا من مقطع «النص الملائكي».
ولعلَّ ذلك مرتبط بما لهذا المقطع من علاقة باسم الخطبة ومركز مضمونها الفكري.
فلعلَّ الإمام (عليه السلام) قد أراد من ذكر الملائكة والتوسع في بيان مكانها وهياءاتها وعبادتها... أن يُجيب السائل الذي سأل عن رؤية الله الذي كان سؤاله سببا في إبداع هذه الخطبة الشهيرة العميقة.

في مكانة «نهج البلاغة» التعبيرية والفكرية:

يأتي «نهج البلاغة» في كلامه ومضامينه ليتضمَّن «من الفكروالخيال والعاطفة آيات تتّصل بالذوق الفنّي الرفيع ما بقي الانسان و ما بقي له خيال وعاطفة وفكره، مترابط بآياته متساوق، متفجّر بالحسّ المشبوب و الإدراك البعيد، متدفّق بلوعة الواقع وحرارة الحقيقة والشوق إلى معرفة ما وراء هذا الواقع، متآلف يجمع بين جمال الموضوع وجمال الإخراج حتى ليندمج التعبير بالمدلول، أوالشكل بالمعنى،... لو نطق بالتقريع لانقضّ على لسان العاصفة انقضاضا ولو هدّد الفساد والمفسدين لتفجّر براكين لها أضواء وأصوات ولو انبسط في منطق لخاطب العقول والمشاعر فأقفل كلّ باب على كلّ حجّة غير ما ينبسط فيه ولو دعا إلى تأمّل لرافق فيك منشأ الحسّ وأصل التفكير، فساقك إلى ما يريده سوقا، ووصلك بالكون وصلا، ووحّد فيك القوى للاكتشاف توحيدا.
وهو لو راعاك لأدركت حنان الأب ومنطق الأبوّة وصدق الوفاء الإنساني وحرارة المحبّة التي تبدأ ولا تنتهي أمّا إذا تحدّث إليك عن بهاء الوجود وجمالات الخلق وكمالات الكون، فإنّما يكتب على قلبك بمداد من نجوم السماء بيان هو بلاغة من البلاغة، وتنزيل من التنزيل.
بيان اتّصل بأسباب البيان العربي ما كان منه وما يكون».
ويبقى «نهج البلاغة» يمثّل «وثيقة أدبية وتأريخية وسياسية قليلة الأمثال».
ويأتي الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ليوظّف اللغة العربية في إنتاج خطابه الإصلاحي؛ «فإنّك واجد أصولها وفروعها، وجمال ألوانها وسحر بيانها، في أدب الإمام عليّ وكان أدبا في خدمة الإنسان و الحضارة»؛ فما من أديب «يبلغ ما بلغ إليه عليّ بن أبي طالب في هذا النحو. فالنطق السهل لدى عليّ كان من عناصر شخصيته وكذلك البيان القويّ بما فيه من عناصر الطبع والصناعة جميعا. ثم إنّ اللّه يسّر له العدّة الكاملة لما تقتضيه الخطابة من مقوّمات أخرى... فقد ميّزه اللّه بالفطرة السليمة، و الذوق الرفيع، والبلاغة الآسرة، ثم بذخيرة من العلم انفرد بها عن أقرانه، وبحجّة قائمة، وقوّة إقناع دامغة، وعبقريّة في الارتجال نادرة.
أضف إلى ذلك صدقه الذي لا حدود له وهو ضرورة في كلّ خطبة ناجحة، وتجاربه الكثيرة المرّة التي كشفت لعقله الجبّار عن طبائع الناس وأخلاقهم وصفات المجتمع ومحرّكاته.
ثم تلك العقيدة الصلبة التي تصعب مداراتها وذلك الألم العميق الممزوج بالحنان العميق، وبطهارة القلب و سلامة الوجدان و شرف الغاية.
وإنّه من الصعب أن تجد في شخصيات التاريخ من اجتمعت لديه كلّ هذه الشروط التي تجعل من صاحبها خطيبا فذّا، غير عليّ بن أبي طالب ونفر من الخلق قليل».

ومن خصائص الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) أنَّه «على المنبر رابط الجأش شديد الثقة بنفسه وبعيد القول. ثم إنَّه قويّ الفراسة سريع الإدراك يقف على دخائل الناس وأهواء النفوس وأعماق القلوب، زاخر جنانه بعواطف الحريّة والإنسانية والفضيلة، حتّى إذا انطلق لسانه الساحر بما يجيش به قلبه أدرك القوم بما يحرّك فيهم الفضائل الراقدة والعواطف الخامدة».

ويجدر في هذا السياق أن يُقال «إنَّ عليّ بن أبي طالب أديب عظيم نشأ على التمرّس بالحياة وعلى المرانة بأساليب البلاغة فإذا هو مالك ما يقتضيه الفنّ من أصالة في شخصية الأديب، ومن ثقافة خاصّة تنمو بها الشخصية وتتركز الأصالة».

لذلك أتت ألفاظ «نهج البلاغة» من الجمال والعلو ما لا حدود للإحاطة به.

في المضامين الخاصة لخطبة «الأشباح»:

تقف خطبة «الأشباح» التي أبدعها الإمام علي (عليه السلام) مع خطبه المشهورة «الشقشقية» و «البيان» و «الجهاد».

ولعلَّ لخطبة «الأشباح» ما يجعلها خطبة مختلفة من بين خطب الإمام (عليه السلام) لما لها من خصوصية فكرية تُكتسب من أنَّها تتنقَّل في أجواء كونية معارفية متنوعة تتكلَّم على وصف الله تعالى، وصفة السماء، و صفة الملائكة، وخلق آدم (عليه السلام)، و «خلق الأرض».....

وهذه الأجواء هي ما يمثّل النظام الكوني و الحياتي في ضوء المنظور العقائدي الذي يتساوق مع إرادة التأكيد أنَّ هذه الأجواء لا شكَّ في أنَّها مرتبطة بخالق عظيم واحد؛ ومن ثم فإنَّ المغزى في هذه الخطبة هو الدلالة على وجود الخالق العظيم الواحد الذي ترجع إليه المخلوقات جميعا.

فضلا عن أنَّ هذه الخطبة بلحاظ تأكيد الخالقية تشير إلى حتمية فناء المخلوقات.

ومن هذا تكتسب الخطبة بعدا عقائديا بل لعلَّها تكرِّس الجوانب العقائدية في جميع أرجائها ولا سيما عقيدة التوحيد.

وخطبة «الأشباح» (من جلائل الخطب) له (عليه السلام) .

و «الأشباح» (الأشخاص والمراد بهم هاهنا الملائكة)؛ لأنَّها تضمَّنت الكلام على الملائكة، ومن هنا أخذت اسمها.

وكان قد خطبها (عليه السلام) في جامع الكوفة. «رَوَى مَسْعَدَةُ بْنُ صَدَقَةَ عَنِ اَلصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ (عليه السلام) أَنَّهُ قَالَ: خَطَبَ أَمِيرُ اَلْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ اَلْخُطْبَةِ عَلَى مِنْبَرِ اَلْكُوفَةِ وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلاً أَتَاهُ فَقَالَ يَا أَمِيرَ اَلْمُؤْمِنِينَ صِفْ لَنَا رَبَّنَا مِثْلَ مَا نَرَاهُ عِيَاناً لِنَزْدَادَ لَهُ حُبّاً وَبِهِ مَعْرِفَةً فَغَضِبَ وَنَادَى اَلصَّلاَةَ جَامِعَةً فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ اَلنَّاسُ حَتَّى غَصَّ اَلْمَسْجِدُ بِأَهْلِهِ فَصَعِدَ اَلْمِنْبَرَ وَهُوَ مُغْضَبٌ مُتَغَيِّرُ اَللَّوْنِ فَحَمِدَ اَللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَ صَلَّى عَلَى اَلنَّبِيِّ».

ثم خطب بخطبته هذه التي ذكر فيها وصف الله تعالى، وصفاته سبحانه في القرآن الكريم، وصفة السماء، و صفة الملائكة، وصفة الأرض ودحوها على الماء.

لقد جاءت هذه الخطبة على مجموعة من المقاطع والمضامين، يُعنى البحث بمقطع كلامه (عليه السلام) الذي يصف فيه الملائكة في أماكنها ومكانتها وعبادتها:

ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لِإِسْكَانِ سَمَاوَاتِهِ وَعِمَارَةِ اَلصَّفِيحِ اَلْأَعْلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ خَلْقاً بَدِيعاً مِنْ مَلاَئِكَتِهِ وَمَلَأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا وَحَشَى بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوَائِهَا وَبَيْنَ فَجَوَاتِ تِلْكَ اَلْفُرُوجِ زَجَلُ اَلْمُسَبِّحِينَ مِنْهُمْ فِي حَظَائِرِ اَلْقُدُسِ وَسُتُرَاتِ اَلْحُجُبِ وَسُرَادِقَاتِ اَلْمَجْدِ وَوَرَاءَ ذَلِكَ اَلرَّجِيجِ اَلَّذِي تَسْتَكُّ مِنْهُ اَلْأَسْمَاعُ سُبُحَاتُ نُورٍ تَرْدَعُ اَلْأَبْصَارَ عَنْ بُلُوغِهَا فَتَقِفُ خَاسِئَةً عَلَى حُدُودِهَا.

يقول ابن أبي الحديد: «إذا جاء هذا الكلام الرباني واللفظ القدسي بطلت فصاحة العرب وكانت نسبة الفصيح من كلامها إليه نسبة التراب إلى النضار الخالص ولو فرضنا أنَّ العرب تقدر على الألفاظ الفصيحة المناسبة أو المقاربة لهذه الألفاظ من أين لهم المادة التي عبرت هذه الألفاظ عنها ومن أين تعرف الجاهلية بل الصحابة المعاصرون لرسول الله ص هذه المعاني الغامضة

السمائية ليتهيأ لها التعبير عنها أمَّا الجاهلية فإنَّهم إنما كانت تظهر فصاحتهم في صفة بعير أو فرس أو حمار وحش أو ثور فلاة أو صفة جبال أو فلوات ونحو ذلك.
وأمَّا الصحابة فالمذكورون منهم بفصاحة إنما كان منتهى فصاحة أحدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثلاثة أمَّا في موعظة تتضمن ذكر الموت أو ذم الدنيا أو يتعلق بحرب وقتال من ترغيب أو ترهيب فأمَّا الكلام في الملائكة وصفاتها وصورها وعباداتها و تسبيحها ومعرفتها بخالقها وحبها له وولهها إليه وما جرى مجرى ذلك مما تضمنه هذا الفصل على طوله فإنه لم يكن معروفا عندهم على هذا التفصيل نعم ربما علموه جملة غير مقسمة هذا التقسيم ولا مرتبة هذا الترتيب بما سمعوه من ذكر الملائكة في القرآن العظيم وأما من عنده علم من هذه المادة كعبد الله بن سلام وأمية بن أبي الصلت وغيرهم فلم تكن لهم هذه العبارة ولا قدروا على هذه الفصاحة فثبت أن هذه الأمور الدقيقة في مثل هذه العبارة الفصيحة لم تحصل إلا لعلي وحده وأقسم أن هذا الكلام إذا تأمله اللبيب اقشعر جلده ورجف قلبه واستشعر عظمة الله العظيم في روعه وخلده وهام نحوه و غلب الوجد عليه وكاد أن يخرج من مسكه شوقا وأن يفارق هيكله صبابة ووجدا».
ويقول حبيب الله الخوئي: «لا جرم ساق (عليه السلام) هذا الفصل لبيان حالهم وضمنه ذكر أوصافهم المختلفة وشئوناتهم المتفاوتة بعبارات رائقة وبدائع فائقة».
الأول: المهيمنات الدلالية في سياق مكان الملائكة وعمارتهم السماء
١- في ألفاظ المكان
(الصَّفِيح)
تدور أغلب دلالات مادة (صفح) حول السعة وما كان عريضا من الأشياء .
وهو في سياق الخطبة: «ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لِإِسْكَانِ سَمَاوَاتِهِ وَعِمَارَةِ الصَّفِيحِ الْأَعْلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ خَلْقاً بَدِيعاً مِنْ مَلَائِكَتِهِ».
يدل على السماء، وسطح الفلك .
ومن المناسب أن تكون دلالته هنا على «الفلك التاسع، وهو العرش لكونه أعظم الأجرام وأعلاها وسكانه الملائكة».
ولعلَّ هذا الاستعمال يمثِّل فرادة دلالية استعمالية تصل به إلى الدلالة المخصوصة على «محل عبادة الملائكة... وعالم الملكوت و مقعدهم الصدق من معرفته».
وهذه الدلالة تصل إلى دلالة ثانية أعلى هي إيحاء هذه اللفظة بعمارة السماء؛ ومن ثم تأتي دلالتها على «البيت المعمور بجلال الله وعبادتهم له».
وهذا يقود إلى ظهور الأثر القرآني المضموني في إنتاج المعنى على مستوى إشارة النص.
يقول تعالى: «وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ».
و «البيت المعمور» في السياق القرآني يدل على عمارة السماء بكثرة الملائكة الطائفين به .
فنكون على مقربة من الإيحاء بأنَّ «الصفيح» تستعمل للدلالة على السماء المعمورة بعبادة أهلها لإلههم الواحد الذي خلقهم.
ولا يدل بأيَّة حال من الأحوال على مطلق السماء.
(فُرُوج فِجَاجها)
الفَرْج: الشَّق، وما يفصل بين جبلين .
والفروج الأماكن الخالية والفج: شق بين جبلين، ويستعمل للدلالة على الطريق الواسعة .
وفي الخطبة: «وَمَلَأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا».
ودلالتهما السياقية على ما يُتصوَّر من تباين بين أجزاء الفلك .
وفي الاستعمال القرآني يقول تعالى: «أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ»[١].

١ . سورة ق، الآية: ٦.

وفروج السماء شُقُوقها وفُتُوقها .
ويقول تعالى أيضا: «وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ»[1].

وفي التفسير هو بمعنى «فُتحت فكانت أبوابا».
وقال تعالى: «وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ».
ويقول تعالى: «وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ».
ودلالتهما على المسالك والطرق البعيدة .
واللافت أنَّ القرآن الكريم استعملهما للدلالة على الطرق الأرضية على حين استعملهما الإمام (عليه السلام) في سياق الكلام على طرق السماء؛ ما يعني أنَّ انتقالا في مجال الدلالة قد حدث، ليُعطي شحنة من الدلالة العرفانية.
(فُتُوق أجْوَائها)، و(فَجَوَات اَلْفُرُوج)
الفتق:«ما انفرج و اتسع من الأماكن».
وتدل الفُتُوق على التباعد بين أجزاء الفلك .
والأجواء: «جمع جو و هو ما اتسع من الأودية. ويقال لما بين السماء والأرض جو».
والفجوة تدل على الفرجة بين الشيئين .
وفي الخطبة: «حَشَى بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوَائِهَا وَ بَيْنَ فَجَوَاتِ تِلْكَ اَلْفُرُوجِ».
(ملأ)، و (حشى)
لمَّا دلَّ باستعمال «فتْرُوج»، و «فُتُوق»، و «فَجَوَات» على التباين بين أجزاء الفلك انتهى إلى أنَّ الملائكة هم مَن يحفظ جواهر الأفلاك .
واللافت أنَّه وظَّف لهذا المعنى «ملأ» و «حشى» في تعميق للفرق الدلالي بينهما، على الرغم من أنَّه اختارهما للدلالة على سكن الملائكة وكيفية تواجدها في أقطار السماوات؛ لما فيهما من الدلالة على الوجود و الحضور على نحو من اللطف والنفع نجد أنَّ «ملأ» استعمل مع «الفُرُوج»، على حين استعمل «حشى» مع «الفُتُوق» للدلالة على أنَّ «الفُرُوج» تُملأ، و «الفُتُوق» تُحشى؛ للإيحاء بالانتظام في الأول والتتابع و التراكم في الثاني.
بمعنى أنَّ «ملأ» توحي بالعدد الطبيعي، على حين توحي «حشى» بالكثرة.
(حَظَائِر اَلْقُدُس)
الحظر: المنع، و «جمع الشيء في حظيرة».
والحظيرة «الموضع الذي يُحاط عليه لتأوي إليه الغنم والإبل وسائر الماشية يقيها البرد والريح».
والمُحتظِر من يقوم بعملها .
يقول تعالى: «**إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ**»[2].

و «حظيرة القُدْس» الجنة .
يقول الإمام (عليه السلام) في سياق كلامه على عبادة الملائكة: «زَجَلُ اَلْمُسَبِّحِينَ مِنْهُمْ فِي حَظَائِرِ اَلْقُدُسِ وَ سُتُرَاتِ اَلْحُجُبِ وَسُرَادِقَاتِ اَلْمَجْدِ».
وتدل في سياق هذه الخطبة على «المواطن الشريفة المقدسة العالية التي فوق الفلك»، بلحاظ أنَّ هذه هي «المقامات المقدَّسة للأرواح الطاهرة» المتخذة للعبادة .
وهذا ما يجعل دلالتها تتمحور حول «كونها حظائر القدس لطهارتها وبراءتها عن نجاسات الجهل والنفس الأمَّارة بالسوء».
(سُتُرَات اَلْحُجُب)
السَّتر: التغطية .

---

١ . سورة المرسلات، الآية: ٩.
٢ . سورة القمر، الآية: ٣١.

والسُّترة ما يُستر بها، وأكثر استعمالها في الدلالة على ما يضعه المصلي أمامه عند أداء صلاته .
والسُّتُرات جمعها.
وفي الخطبة يُراد بها الدلالة على شرف الملائكة .

(سُرَادِقات اَلْمَجْد)

السُّرادِق: غطاء يُمد على صحن البيت ليُغطيه .
وسُّرادِقات المجد تعطي الدلالة على الحُجُب النورانية التي تربأ بالملائكة عن المادية والحسية .
ويمكن إجمال الدلالة في هذه المقامات على أنَّهم في «تلك الحجب سرادقات المجد لكمال ذواتهم وشرفهم بها».
ومن المناسب أن يُقال إنَّه قد يكون «المراد بها المواضع المعدّة لعبادة الملائكة بين أطباق السّماوات و وصفها بالقدس من حيث اتصافها بالطهارة والنزاهة من الأدناس والأرجاس ويمكن أن تكون الإشارة بها إلى ما فوق السماء السّابعة من الحجب والسّرادقات النورانية».
ومن الجدير بالذكر هنا أنَّه هنالك سُرادقات متعددة، فهنالك «سرادقات الجلال...، ثمّ سرادقات العزّ، ثمّ سرادق الكبرياء، ثمّ سرادق العظمة، ثمّ سرادق القدس، ثمّ سرادق الجبروت، ثمّ سرادق الفخر، ثمّ سرادق النور الأبيض، ثمّ سرادق الوحدانية».

٢- في ألفاظ العمارة

(زجل)

الزَّجل: اللعب والجَلَبَة و التطريب .
وفي خطبة «الأشباح»: (زَجَلُ اَلْمُسَبِّحِينَ مِنْهُمْ).
يدل «زجل المسبحين» على صوتهم الرفيع العالي .
وهو في سياق الخطبة استعمل للدلالة على «كمال عبادتهم كما انَّ الرجل في رفع صوته بالتضرع و التسبيح والتهليل».

(الرَّجيج)

الرَّج: الحركة والزلزلة والاضطراب.
ومنه ارتج البحر .
وفي الخطبة: «وَوَرَاءَ ذَلِكَ اَلرَّجِيجِ اَلَّذِي تَسْتَكُّ مِنْهُ اَلْأَسْمَاعُ».
وهو «عبادات الملائكة».
وتبقى في «زجل» و «رجيج» دلالتهما على «ما يسمعه الأنبياء من أصوات الملائكة».

الثاني: المهيمنات الدلالية في سياق حدود معرفة الملائكة

(وراء)

وراء من الألفاظ المتضادة في الاستعمال العربي؛ إذ يدل على الأمام والخلف .
وقال في الخطبة: «وَرَاءَ ذَلِكَ اَلرَّجِيجِ اَلَّذِي تَسْتَكُّ مِنْهُ اَلْأَسْمَاعُ سُبُحَاتُ نُورٍ تَرْدَعُ اَلْأَبْصَارَ عَنْ بُلُوغِهَا فَتَقِفُ خَاسِئَةً عَلَى حُدُودِهَا».
ولا شكَّ أنَّه في سياق كلام الإمام (عليه السلام) لا يدل على الدلالة المكانية الخالصة، بل يدل على المكانة والإحاطة والهيمنة.

(سُبُحَات نُور)

«سَبَحَ، كمَنَعَ، سُبْحاناً، وسَبَّحَ تَسْبيحاً: قالَ: سُبْحانَ اللّه. وسُبُّوحٌ قُدُّوس، ويُفْتَحان: من صفاته تعالى، لأنَّه يُسَبَّح و يُقَدَّس. والسُّبُحات، بضمَّتين: مواضِع السُّجود. وسُبُحات وَجْه اللّه: أنواره».
جاء في الخطبة: «وَرَاءَ ذَلِكَ اَلرَّجِيجِ اَلَّذِي تَسْتَكُّ مِنْهُ اَلْأَسْمَاعُ سُبُحَاتُ نُورٍ تَرْدَعُ اَلْأَبْصَارَ عَنْ بُلُوغِهَا فَتَقِفُ خَاسِئَةً عَلَى حُدُودِهَا».
و «سُبُحَات النور» تُشير في هذا السياق إلى «جلالة الله تعالى و عظمته».

وتظلَّ عرفانية هذا الاستعمال ترقى وصولا إلى أنَّه قد نبَّه به على «أنَّ معارفهم لا تتعلَّق به كما هو، بل وراء علومهم وعباداتهم أطوارا أخرى من جلاله تقصر معارفهم عنها».

(حدودها)

الحدّ: ما يحجز بين شيئين.

وفي سياق الخطبة يكون المعنى المتحقق أنَّ معرفة الملائكة ومقدرتهم «تقف حيث تنتهي قوتها لأنَّ قوتها متناهية فإذا بلغت حدها وقفت».

وهذا الحد المتناهي لا يمنع من أن يكون – في كلام الإمام (عليه السلام) – رمزا يحث الإنسان فيه لطلب الكمالات والتدرج فيها؛ فيكون حد الملائكة الذي يمثّل هنا مهيمنة دلالية كبرى حافزا لهذا الإنسان الذي يُريده الله سبحانه وتعالى سائرا في طرائق وفجاج الفعل الكمالي، وصولا إلى سُبُحات الأنوار وسُرادقات المجد من خلال زجل العبادة ورجيجها.

وهذا لا يكون بعيدا عن اتخاذ الإنسان من هذه الحدود وعدم إحاطته بوصف الله سبحانه سرا من أسرار تعلُّقه به وطاعته وعبادته.

من دون أن يغيب عنَّا في هذا المقام النظر في تعلُّق الملائكة بربِّهم العظيم وطرائق عبادتهم، فنجعل منها مثالا في العبادة والخضوع إلى حد تظهر معه آثارهما في حياتنا وفكرنا.

دراسة الحذف كعنصرإتساقي في خطب نهج البلاغة

الاستاذالمساعدالدكتور:علي‌رضا نظري[1]

المساعدالدكتورة الدكتورة: نرجس انصاري[2]

الملخص:

الحذف ظاهرة لغوية يمكن بحثها في شتي الحقول منها النحو و البلاغة، أما علم لغة النص أو بعبارة أدق إتساق النص من أحدث المجالات التي تناقش هذا الموضوع من زوايا جديدة .
والإتساق موضوع ظهر لأول مرة في دراسات اللغويين "مايكل هاليدي" و " رقية حسن " اللذين ألفا كتابهما " الإتساق في اللغة الانجليزية " بعام ١٩٧٦ و فيه عدّا الحذف عاملاً لغوياً يؤدي الى الاتساق الدلالي والمعجمي في النص. و ذلك أن حذف عنصر لغوي في نص ما، يحدث فجوة يملأها ذهن المخاطب راجعاً لما سبقه من العناصر الملفوظة.
فهذه المرجعية السابقة تجعل النص بعناصره المختلفة منسجماً ذا علاقة دلالية لغوية.
فتناول البحث هذا، قضايا الحذف في ثلاثين خطبة من خطب نهج البلاغة بمنهج وصفي-تحليلي، ثمّ عالج مكانة الحذف بأشكاله المختلفة وأهميتها في الخطب معتمداً على الأسلوب الاحصائي عبر الجداول والمنحنيات الدالة على أنواع الحذف والنسبة لكل منها.
ومن أهم ما وصل اليه البحث من النتائج هي:أن الخطب لا تخلو من الحذف بأنواعه الحرفية والاسمية والفعلية والجملية وهو يلعب فيها دوراً هاماً في الاتساق بين عناصر النص، بل قد يكون حذف فعل أو حرف في سلسلة من جملات، أهم رابط يربط بين أجزاء النص ونستطيع من خلال الحذف أن نحوّل النص الأفقي الى النص العمودي كما أن توظيف الحذف كعنصر إتساقي يتجلّي أكثرعندما يستخدم مع عناصر أخرى كالتوازي التركيبي، التكرار والإحالة .

ـ المقدمة

إن نهج البلاغة من ابرز النصوص الممتازة الأدبية التي شهدتها اللغة العربية يمكن دراسته في ضوء الاتجاهات و النظريات اللغوية الحديثة ذلك أن الامام (عليه السلام) ـ كما اعترف به الكثير من النقاد ـ أرسل كلامه علي سجيته و بلاكلفة و لاتصنّع ورغم كثافة البحوث التي قام بها الدارسون حول نهج البلاغة والتي تدل على غورهم في النهج، إلا أن كثيرا منها لم يتجاوز من الدراسات النحوية والمعجمية أو البلاغية في إطارها الضيق.
بيد أنا وجدنا الكثير من الباحثين قاموا علي النزعات التقليدية في دراسة نهج البلاغة وتشبثوا بالاتجاهات المكررة، فلذلك سعينا الى طرحه من زوايا نظرية جديدة .
فالبحث هذا يدرس ظاهرة الحذف وهي من العناصر التي تساهم في تماسك مكونات نص ما تطبيقا على ثلاثين خطبة طويلة من نهج البلاغة وغاية ما نطمح هو أن نسهم أولا في أن نمهد لأنفسنا وللباحثين طريقاً لتحليل النصوص – منها نهج البلاغة – بأساليب منهجية ثم حرصنا في هذا البحث على تحريض المهتمين والمشتغلين باللغة العربية بجميع فروعها ، ممن يعنيهم أمر النص الأدبي على تحليل النصوص بطرق ومناهج جديدة.

ـ اسس نظرية حول ظاهرةالحذف:

الاتساق هو ما يضمن تماسك النص ويقوم بربط أجزاء النص، هذا التماسك يتحقق عبر وسائل لغوية منها الإحالة، الاستبدال، الوصل والاتساق المعجمي والحذف.

---

١ . الاستاذ المساعد بجامعة الامام الخميني(ره) الدولية بقزوين .
٢ . الاستاذة المساعدة بجامعة الامام الخميني(ره) الدولية بقزوين .

والحذف – حسب هاليداي ورقية حسن- يتأتى من خلال جمل أو مقطعات لغوية أو عناصر تستدعي بتركيبها الخاص عبارات أو عناصر سابقة كعنصر مفترض (هاليداي وحسن١٩٧٦: ١٤٢) .
والحذف اصطلاحاً - كما ذكره كريستال في معجمه معادلا Ellipsis– يطلق على خلو جملة لاحقة من عنصر تدل عليه قرينة في الجمل السابقة (فرج٢٠٠٧: ٨٧) .
فيظهر الحذف عندما تشتمل عملية فهم النص على امكانية ادراك الانقطاع على مستوي سطح النص حيث نفترض عنصرا سابقا يعد مصدرا للمعلومة المفقودة فيترك العنصر المحذوف فجوة على مستوي البنية التركيبية يمكن ملؤها من مكان آخر في النصو هنا ياتي دور التفاعل بين الإدراك (cognition) والأعراف التركيبية (syntactic conventions) للغة في فهم المحذوف. .(محمد٢٠٠٧ : ١١٥) .
ومما يجدر بالعناية هو المستوي الذي يتحقق فيه الحذف داخل النص.
سبق وذكرنا عن كريستال أن الحذف لابد أن يساهم في عملية الاتساق بين الجمل المشكلة للنص ولا في مستوي جملة واحدة أي "أن الحذف في هذا المستوي غير مهم من حيث الاتساق وذلك لأن العلاقة بين طرفي الجملة علاقة بنيوية لا يقوم فيها الحذف بأي دور اتساقي وبناء عليه فإن أهمية دور الحذف في الإتساق ينبغي البحث عنه في العلاقة بين الجمل و ليس داخل الجملة الواحدة" (خطابي٢٠٠٦ : ٢٢) .
تتم عملية الاتساق عبر الحذف على اساس علاقته بالتكرار والاحالة :
١- التكرار اللفظي أو المعنوي أو كلاهما .
٢- المرجعية السابقة أو اللاحقة (الفقي٢٠٠٠ : ٢/ ٢٢١) .
وذلك لأن الحذف نوع من التكرار، فالتكرار قد يكون باللفظ والمعني أو باللفظ دون المعني أو بالمعني فحسب وفي الحالة الاخيرة نري بدلا عن تكرار اللفظ، فجوة في النص لا يمكن ملؤها الا بالإحالة الى عنصر ملفوظ داخل النص.
فالقرينة في السياق اللغوي وسياق الموقف تدل على إحالة محذوف الى ملفوظ ويقوم ذهن المتلقي بتقدير الفجوة التي احدثها الحذف داخل النص مستعينا بالعناصر السابقة عليها فلاتكتفي بذاتها من حيث التأويل الا إذا عاد المتلقي الى ما سبقتها من الجمل والعبارات.
فالاتساق النصي ينطبق هنا من جملة محتوية على عنصر محذوف يحيل الى آخر سابق(anaphoria)." فالحذف بطبيعته إحالة سابقة بكونه إحالة بالصفر ."(فرج٢٠٠٧: ٨٧) .

١-٢-١- الحذف الاسمي(nominal ellipsis):

يتكون كل مجموعة اسمية من نواة رئيسية وتابع واحد أو عدة توابع.
التوابع إما تسبق النواة أو تليها ويحذف الاسم في الجملة اذا وقع عناصر أخري موقع النواة (آذرنژاد، ١٣٨٥ش : ٣٧) .
هل يأتي احمد الى المكتبة؟ لا {.....}لا يأتي
والمحذوف في هذه الجملة إما يكون " احمد " أو الضمير"هو".

١-٢-٢- الحذف الفعلي(verbal ellipsis) :

ينقسم هذا الحذف - كما يري هاليداي وحسن- الى نوعين:

١- حذف كلمة الفعل

٢- حذف ما عرف في الانجليزية (Auxiliry) وبما أن هذا الاخيرمن أنواع الحذف يستعمل في اللغة الانجليزية استعمالا ملحوظا فتحدث عنه اللغويان ، أما اللغة العربية فلامورد لذلك لانتفاع وجوده في العربية.
ومن النماذج الدالة في هذا الحقل قوله تبارك وتعالى في سورة العنكبوت :

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ [...] اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)
فحذف فعل "خلق " لوجود ما سبقه من القرينة اللفظية.

١-٢-٣- الحذف الجملي (clausal ellipsis):

تحذف فيه جملة مشكلة من فعل وفاعل، فلابد أن تتألف الجملة من الفعل و الفاعل ليكون الحذف من نوع الحذف الجملي.
ومن البديهي أن يحذف معهما عناصر أخري من المفعول والقيود المختلفة:
هل تأتي الى الجامعة غداً؟ - ربما....
فالعبارة المحذوفة يمكن أن تكون:(آتي الى الجامعة غداً)
إن الحذف من الموضوعات التي عني بها في علمي النحو والبلاغة عناية بالغة والحذف الذي يؤدّي الى الربط بين العناصر المكونة للنص كعنصر اتساقي يقترب مما يبرز في العديد من البحوث البلاغية من الايجاز أو حذف المسند والمسند اليه وغيره من العناصر اللغوية كما يرتبط الحذف ببعض عناصر الاتساق كالسجع والجناس والتوازي ارتباطاً متواصلاً.
هذا عن الحذف في البلاغة أما الجوانب الأخري فالحذف عندما يعدّ اقتصاداً لغوياً مقارناً بالاستبدال "فالانسان عندما يستخدم اللغة فيحاول أن يؤدي المعنى بأقل طاقة وهو مناط الاهتمام ما لم يمسّ بالمعنى وقصدية النص، فالاقتصاد اللغوي هذا يتم(يحقق) عبر الحذف أيضا."(البرزي١٣٨٦: ١٦٥) .
قد يحتمل الحذف وجوه خاصة ترتبط بغاية الكاتب؛ مثلا "النص الذي يتوفرفيه الحذف بكثرة، فذلك يكشف عن اهتمام الكاتب لتعقيد النص، كما يمكن أن يرتبط غموض النص بأغراض الكاتب السياسية.
فللحذف أغراض بنيت على مفاهيم هادفة من التعظيم والتحقير والغموض و العموم."(فرج٢٠٠٧ :٨٧) .

٢- توظيف الحذف وانواعه في نهج البلاغة:

يلعب الحذف دوراً هاما في خطب نهج البلاغة وبما أن عملية الحذف يتم في جملتين أو اكثر فيحذف الكلمة من الجملة اللاحقة لما توجد في الجمل السابقة من قرينة إجتنابا عن التكرار المباشر.
فالحذف يحقق اتساق النص إما بربط اللاحق بالسابق أو يحوّل بنية الجمل الى جملة واحدة مستعينا بأدوات الربط ولو لم تتجاوز الجملة عن فقرة فحسب.
ذكرنا سابقا انواع الحذف الثلاثة المتمثلة في الحذف الاسمي ، الفعلي و الجملي وهو ما طرحه هاليداي وحسن(هاليداي و حسن ١٩٧٦: ١٤٥) .
لكن دراسة الحذف من حيث الإتساق في خطب نهج البلاغة تدفعنا الى توسيع نطاق الحذف ليشمل الحروف واشباه الجمل.
ذلك لأننا نواجه في نص الخطب بفجوات تفقد عاملا ملفوظا أو بعض عناصر النص الاساسية وهو يحمل المتلقي على أن يرجع الى ما سبقه من العناصر بحثاً عن دور بعض الكلمات.
وبناء على ذلك يأتي الحذف في الخطب على الشكل التالي:

حذف عامل	حرف عامل	حذف غيرالعامل	شبه جملة
	فعل		جملة
	اسم (قليلا)		اسم (كثيرا)

نتابع البحث مشيراً الى نماذج عدة من انواع الحذف ثم نعالج خصائص الحذف وتوظيفه و دوره في تماسك الخطب مركزاً على جداول تفيدنا في دراسة عنصر الحذف دراسة إحصائية.

٢-١- الحذف الاسمي في نهج البلاغة:

تطلعنا مجموعة الخطب المدروسة أنها توظف الحذف بنوعيه في العامل و غير العامل، ومن الامثلة الدالة على حذف عنصر غير عامل في النص ما نأتي من الخطبة
١ التي حذف فيها اسمه -تبارك وتعالي –"الله" أو ضمير" هو":
[....] كَائِنٌ لَا عَنْ حَدَثٍ [....] مَوْجُودٌ لَا عَنْ عَدَمٍ [....] مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُقَارَنَةٍ وَ [....] غَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُزَايَلَةٍ [....] فَاعِلٌ لَا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَ الْآلَةِ [...] بَصِيرٌ إِذْ لَا مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ [...] مُتَوَحِّدٌ إِذْ لَا سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ (خ ١) .
فقامت الكلمات التي اشير اليها بخط من الاسماء واشباه الجمل مقام الخبر لمبتدأ محذوف (الله - هو) وذلك بناء على القواعد النحوية في العربية وبما أن العبارات السابقة على النص ارسلت وصفا له – تبارك وتعالى- وتدل معانيها على هذا المحذوف فيظهر الحذف كرابط بين الجمل.
فليس النص متسقا لاجل استخدام الالفاظ المشتركة أو أدوات الربط فحسب، بل حذف عناصر مشتركة بين الجمل المتعددة يجعلها قادرة على تحقيق الترابط بين النص أيضا.
وقد يجد المتأمل في الخطب، اسماً مجروراً أو منصوباً يدلّ على محذوف سبقه لم يذكر اجتنابا عن التكرار والنموذج على ذلك نحو:
وَ نَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَةَ رَاجٍ لِفَضْلِهِ
[....] مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ
[....] وَاثِقٍ بِدَفْعِهِ
[....] مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ
[....] مُذْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَ الْقَوْلِ (خ١٨٢)

ونرى في المثال المذكور أن المصدر (استعانة) قد عمل فيما يليه وهو كلمة "راج" أما الجر في الاسماء اللاحقة وهي "مؤمل، واثق معترف، مذعن"، فلا سبيل لصحته الا أن يقوم المتلقي بمهمة التقدير، فالمصدر نفسه عمل في الكلمات هذه وإنما حذف لوجود قرينة دالة عليه ولذلك اتصلت العبارات المتعددة بوجود حذف مشترك بينها و جدير بالذكر أن الحذف في الاسماء العاملة يصاحب في كثير من الاحيان أدوات الربط الاضافية ليساعد المتلقي في ملئ الفجوة التي احدثها الحذف داخل النص:
فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ
وَ [.....] بَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ
وَ [.....] شِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ
وَ [.....] صَلَاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ
وَ [.....] طُهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ
وَ [.....] جِلَاءُ عَشَا أَبْصَارِكُمْ
وَ [.....] أَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ
وَ [.....] ضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ (خ ١٩٨)

ذكرت عبارة" تقوي الله" في الجملة الاولى وهي محذوفة في العبارات السبعة اللاحقة احترازاً عن التكرار والنص أصبح متسقاً من أجل الحذف وأدوات الربط الاضافية التي استخدمت لتقوية علاقة الاتساق بين الجمل، فتترابط بها وبالحذف الجمل اللاحقة على الجملة الأولي بشكل منظم داخل النص فيظهر سلسلة الجمل كوحدة متماسكة.
وفي ما يلي من الخطبة١ نموذج آخر على حذف الاسم العامل أيضا:
كِتَابَ رَبِّكُمْ فِيكُمْ مُبَيِّنًا حَلَالَهُ وَ [....] حَرَامَهُ وَ [....] فَرَائِضَهُ وَ [....] فَضَائِلَهُ وَ [....] نَاسِخَهُ وَ [....] مَنْسُوخَهُ وَ [....] رُخَصَهُ وَ [....] عَزَائِمَهُ وَ [....] خَاصَّهُ وَ [....] عَامَّهُ وَ

[....] عِبَرَهُ وَ [....] أَمْثَالَهُ وَ [....] مُرْسَلَهُ وَ [....] مَحْدُودَهُ وَ [....] مُحْكَمَهُ وَ [....] مُتَشَابِهَهُ (خ ١) .

فقد عمل الاسم " مبيناً " في "حلاله" وما يليها من المنصوبات التي ارتبطت بالكلمة الاولي (حلاله) لأجل حضور أدوات الربط التي تساهم الى حد ما في احداث شيء من الترابط داخل النص كما يستدعي الحذف كلمة (مبيناً) في ذهن المتلقي قبل الاسماء المصوبة وهي حاضرة معنى ولو كانت محذوفة لفظاً.

٢-٢- الحذف الحرفي:

لا يقف الاتساق النصي عبر الحذف عند مستوي الاسماء والافعال بل يظهر في الحروف وفيه يواجه المتلقي بأسماء مجرورة دون أن يسبقها عامل جر من الحروف، وهذا يشير الى فجوة تركيبية لا تسدد الا بتقدير جار من الحروف التي تزيد تماسك العبارات بمساعدة بعض أدوات الربط الاضافية ايضا:

فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ وَ [....] لَحْمٍ مَجْزُورٍ وَ [....] شِلْوٍ مَذْبُوحٍ وَ [....] دَمٍ مَسْفُوحٍ وَ [....] عَاضٍّ عَلَى يَدَيْهِ وَ [....] صَافِقٍ بِكَفَّيْهِ وَ [....] مُرْتَفِقٍ بِخَدَّيْهِ وَ [....] زَارٍ عَلَى رَأْيِهِ وَ [....] رَاجِعٍ عَنْ عَزْمِهِ .. (خ ١٩١).

حذف الجار" مِن " فيما عين من الفراغات وساهمت أدوات الربط الاضافية في ربط الاسماء المجرورة الى كلمة " ناج " المذكورة في بداية الفقرة بصورة مسلسلة، فالنص ليس متسقاً لأجل علاقة الوصل فحسب، بل العبارات الطويلة يدفع المتلقي ليفترض الجار مسبوقا بالاسماء المجرورة، فاكتفي الخطيب بأدوات الربط عن الحروف الجارة و ذلك لأنه تسرّي عمل الجارّ الاول الى الاسماء المرتبطة واداة الوصل هنا تعمل على تقوية الترابط بين الجمل مصحوبا بالحذف. فنزيد الأمر ايضاحاً باختيارنا مثالاً آخر:

فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ
وَ [....] الْقَمَرِ
وَ [....] النَّبَاتِ
وَ [....] الشَّجَرِ
وَ [....] الْمَاءِ
وَ [....] الْحَجَرِ
وَ [....] اخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ
وَ [....] تَفَجُّرِ هَذِهِ الْبِحَارِ
وَ [....] كَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ
وَ [....] طُولِ هَذِهِ الْقِلَالِ
وَ [....] تَفَرُّقِ هَذِهِ اللُّغَاتِ
وَ [....] الْأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ (١٨٥)

٢-٣- حذف الفعل في خطب نهج البلاغة:

يعدّ الفعل من اهم العوامل في اللغة العربية ويحذف أيضا في بعض الاحيان. إن ما نقوم بدراسته هنا ليس الحذف الواجب عند اهل اللغة والذي يجب من أجل القواعد النحوية؛ لأنه يخضع لظروف اللغة ويفرض نفسه على أي كاتب ولا يمتلك هو دورا هاما في هذا النوع من الحذف و توظيفه كما لا يفسر هذا الحذف أسلوبا لكاتب ما.

وانطلاقا من ذلك يعدّ حذف الفعل في باب المفعول المطلق الذي ينوب عن الفعل ، بعض الجمل المتداولة نحو أهلا وسهلا، بعض الأمثال العربية الشائعة، حذف المفسَّر في باب الإشتغال وكل ما تفرضه اللغة على الناطقين بها.

أما الحذف الذي يجوز في اللغة و يتحقق لوجود قرينة داخل النص فهو ينتمي الى أسلوب المتكلم وكيفية توظيفه الفعل في الكلام وهو الذي يمتاز به متكلم من متكلم آخر وهو الجانب الذي نتناوله في دراسة الخطب.

فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الْأَمْلَاءُ مُجْتَمِعَةً

وَ [....] الْأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةٌ
وَ [....] الْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةٌ
وَ [....] الْأَيْدِي مُتَرَادِفَةٌ
وَ [....] السُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةٌ
وَ [....] الْبَصَائِرُ نَافِذَةٌ
وَ [....] الْعَزَائِمُ وَاحِدَةٌ أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً فِي أَقْطَارِ الْأَرَضِينَ
وَ[.....] مُلُوكاً عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ.(خ ١٩٢) .

وهذه نموذج واحد من الأمثلة العديدة التي تساق لتوضيح الحذف في الافعال و دوره في تماسك النص.

يتضح من العبارات السابقة أن الفعل المحذوف (كانت)الذي عمل نصباً و رفعاً فيما بعده من الكلمات، قد ربط جملات متوالية في بناء واحد مترابط ، فالكلمات التي أشير اليها بخط قامت مقام اسم "كانت" وما يليها خبر له و الفعل الناقص (كان) مذكور في الجملة الاولي ومحذوف في الجمل الستة الاخري، أما الاسماء والأخبار بقيت على رفعها ونصبها بعد حذف عاملها، فالحذف ربط السابق باللاحق من الجمل مصحوباً بأدوات الربط الاضافية و صاغ من النص وحدة متماسكة طويلة.

ولم يذكر الفعل العامل الا مرة، أما المتلقي يستحضره في العبارات التالية لوجود الربط الاضافي الذي يحمل الفعل معنى دون اللفظ فهو مذكور بعدد الادوات الإضافية.

وقد يتسع نطاق حذف الفعل ليشمل كلمات أخرى مصحوبة مع الفعل أيضاً:

مَا لِي *أَرَاكُمْ* أَشْبَاحاً بِلَا أَرْوَاحٍ

وَ [....] أَرْوَاحاً بِلَا أَشْبَاحٍ
وَ [....] نُسَّاكاً بِلَا صَلَاحٍ
وَ [....] تُجَّاراً بِلَا أَرْبَاحٍ
وَ [....] أَيْقَاظاً نُوَّماً
وَ [....] شُهُوداً غُيَّباً
وَ [....] نَاظِرَةً عَمْيَاءَ
وَ [....] سَامِعَةً صَمَّاءَ
وَ [....] نَاطِقَةً بَكْمَاءَ (خ ١٠٨) .

فأدى حذف الفعل في المثال السابق الى حذف مفعوله أيضا والفراغ التي طرأ على الكلمات التالية يرجع الى الفعل المحذوف" أرى" الذي نصب الاسماء و لو يكون محذوفاً لفظاً.

٢-٤- حذف شبه جملة:

وهو النوع الرابع من أنواع الحذف في خطب نهج البلاغة ويقصد به حذف الجار مع مجروره أو حذف الظرف في جزء من النص فبذلك يخلو الكلام من عناصر تفسرها قرينة سابقة أي قرينة تحملها أدوات الربط الاضافية معنى و تسرّيها الى العبارات اللاحقة فبناء عليه يقوم هذا النوع من الحذف أيضا مثل الأنواع المتقدمة بوظيفة إتساقية مصحوباً بأدوات الربط الاضافية:

الَّذِي لَيْسَ *لِصِفَتِهِ* حَدٌّ مَحْدُودٌ

وَ لَا [.....] نَعْتٌ مَوْجُودٌ
وَ لَا [.....] وَقْتٌ مَعْدُودٌ

وَ لَا [.....] أَجَلٌ مَمْدُودٌ (خ ١) .

ومثال آخر :

مِنْهُمْ سُجُودٌ لَا يَرْكَعُونَ
وَ [....] رُكُوعٌ لَا يَنْتَصِبُونَ
وَ [....] صَافُّونَ لَا يَتَزَايَلُونَ
وَ [....] مُسَبِّحُونَ لَا يَسْأَمُونَ .. (خ ١) .

وكل من يواجه العبارات السابقة يدرك حذف عنصر لغوي قبل كلمات: " ركوع، صافون، مسبّحون" لأنها كلمات نكرة تقوم مقام المبتدأ الموخر يفتقر الى خبر وذلك فجوة تتطلب حضور العنصر المحذوف ألا وهو " منهم " الذي ذكر في العبارة الاولى فقط للإختصار.

٢-٥- حذف الجملة:

إذا نظرنا الى حذف الجملة من زوايا مختلفة أمكن التمييز فيه بين الحذف الإتساقي والحذف الإتساقي - البلاغي إن الحذف الذي ينجم عن القواعد النحوية في اللغة نحو: حذف جواب الشرط و... هو خاصية لغوية لا تدل على اسلوب الكاتب – كما سبق ذكره.

أما الحذف الاتساقي في الجمل فيحدث فجوة داخل النص بحيث لا يستطيع المتلقي أن يربط بين الجمل زمنياً وقد يكون نظام المعلومات في النص هو الذي يحيل بالمتلقي الى المحذوف من الجمل.

إن الموازنة بين أنواع الحذف في خطب نهج البلاغة يرشدنا الى أن حذف الجملة أقل الأنواع الخمسة أهمية إذ هو أقلها كمية، كما يلعب هذا النوع من الحذف دورا ضعيفاً في إتساق النص وهو أضعف أنواع الحذف من حيث مدى قدرته على أن يكون أداة اتساقية إذ يربط بين قليل من الجمل والعبارات:

وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ابْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَاخْتِرَاعِهَا وَكَيْفَ [.....] و لو..(خ ١٨٦) .

تمثل العبارة التالية نوعاً آخر من حذف الجملة في نهج البلاغة وفيه حذفت الجملة الشرطية لقرينة سبقتها:

وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ
إِذاً [لو كان ذلك] لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ
وَ [.....] لَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ
وَ [.....] لَامْتَنَعَ مِنَ الْأَزَلِ مَعْنَاهُ
وَ [.....] لَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ
وَ [.....] لَالْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ
وَ إِذاً [لو كان ذلك] لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ
وَ [.....] لَتَحَوَّلَ دَلِيلًا ...(خ ١٨٦) .

وقد يتضح الحذف من معمول يتعلق بالجمل السابقة قد حذفت اقتصادا وهو بذلك يساهم في إتساق النص ويظهر ذلك جلياً في المثال التالي:

فَأَفْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ الذُّلِّ وَأَحَلُّوكُمْ وَرَطَاتِ الْقَتْلِ وَأَوْطَنُوكُمْ إِثْخَانَ الْجِرَاحَةِ طَعْناً فِي عُيُونِكُمْ وَحَزّاً فِي حُلُوقِكُمْ وَدَقّاً لِمَنَاخِرِكُمْ وَقَصْداً لِمَقَاتِلِكُمْ وَسَوْقاً بِخَزَائِمِ الْقَهْرِ إِلَى النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَكُمْ. (خ ١٩٢) .

فَأَفْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ الذُّلِّ وَأَحَلُّوكُمْ وَرَطَاتِ الْقَتْلِ وَأَوْطَنُوكُمْ إِثْخَانَ الْجِرَاحَةِ طَعْناً فِي عُيُونِكُمْ

وَ [.....] حَزّاً فِي حُلُوقِكُمْ
وَ [.....] دَقّاً لِمَنَاخِرِكُمْ
وَ [.....] قَصْداً لِمَقَاتِلِكُمْ
وَ [.....] سَوْقاً بِخَزَائِمِ...

فكلمات (طعنا، حزاً، دقاً، قصداً، سوقاً) نصبت على أساس أنها مفعول له للجمل التي أشير اليها بخط و ليس معمولا للجملة الثالثة فحسب وهو مما يدفع بالمتلقي بالنهوض الى تقدير الجمل المذكورة قبل المنصوبات وبعد أدوات الربط الاضافية.

٢-٦- خاصية الحذف الاتساقية:

تعرف خاصية الحذف الاتساقية ببعض ادوات الإتساق منها : التكرار، الاحالة والربط الاضافي، ذلك أن الحذف لا يختلف عن التكرار الّا بكونه تكرارا بالمعنى فحسب، فقد يكون التكرار باللفظ والمعنى معا بينما الحذف يكون بالمعنى دون اللفظ حيث لا يتم الا من خلال فراغ في عملية فهم النص.

كما يكون الحذف نوعاً من الاحالة أيضا، لكنّه يختلف عنها بكونه إحالة بالصفر (zero anaphora)، أما الربط الاضافي فقد يصحب الحذف في كثير من الاحيان ليسدد الفراغ الموجود في ذهن المتلقي:

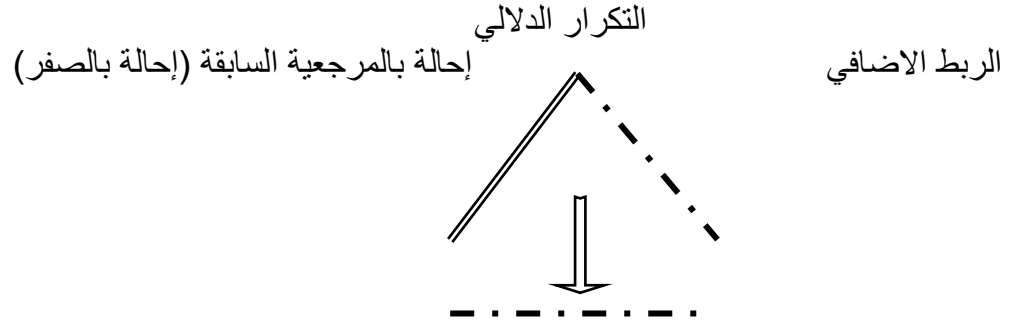

عامل الحذف الاتساقي

وبهذا النظام فالحذف لا ينقص النص عناصره الاتساقية بل يساهم بدوره في تماسك أجزائه ووحدتها.

فلذلك يعدّ الحذف عنصراً هاماً في الامتداد الدلالي في النص،فقام المصطلح هذا على أن ما يحذف في العبارة الأولى من الكلمات والعبارات يتسرّى في الفضاءات الموجودة في الجمل اللاحقة خلافاً لآلية التكرار التي تستدعي المعنى بإعادة العناصر اللغوية في الجمل العديدة.

أما الامتداد اللغوي الذي يتأتي من آلية الحذف فكلما طال ويغطي يشمل على عدة عبارات فيبرز بها قدر هائل من خاصية اتساقية للحذف.

وإذا كان النص منصبا على العديد من الامتدادات اللغوية الناتجة عن الحذف فيؤدي ذلك الى أن يكون النص بناء متيناً شديد التماسك بين الجمل المتوالية المكونة من علاقات دلالية:

فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضَاضَةِ الشَّبَابِ إِلَّا حَوَانِيَ الْهَرَمِ
وَ [.....] أَهْلُ غَضَارَةِ الصِّحَّةِ إِلَّا نَوَازِلَ السَّقَمِ
وَ [.....] أَهْلُ مُدَّةِ الْبَقَاءِ إِلَّا آوِنَةَ الْفَنَاءِ مَعَ قُرْبِ الزِّيَالِ

وَ[.....] أُزُوفِ الِانْتِقَالِ
وَ[.....] عَلَزِ الْقَلَقِ
وَ[.....] أَلَمِ الْمَضَضِ
وَ[.....] غُصَصِ الْجَرَضِ
وَ[.....] تَلَفُّتِ الِاسْتِغَاثَةِ بِنُصْرَةِ الْحَفَدَةِ
وَ [.....] الْأَقْرِبَاءِ
وَ [.....] الْأَعِزَّةِ
وَ[.....] الْقُرَنَاءِ...(خ ٨٣) .

٢-٧- النص الأفقي(الخطي)- النص الرأسي(العمودي):

يرتكز خاصية الحذف الاتساقية في خطب نهج البلاغة – كما توقفنا في الامثلة السابقة وما شابهها من النماذج- على أن ينسج من النص بنية عمودية وذلك أن ما حذف في النص من العناصر اللغوية يندرج تحت الجملة أو البنية الاولى إعراباً ونحوياً، فكثافة الحذف في النص تؤدي الى أن تكون البنى العمودية فيه أكثر وكلما زادت البنى العمودية زاد النص إتساقا وترابطاً.

فما سبق ذكره من خطبة ٨٣ نموذج واضح على ما أتي.

كما تشترك في هذه العملية أي تحويل الخطب الى النص العمودي، آليات إتساقية أخرى نحو التكرار والتوازي والإحالة المنظمة.

٢-٨- الحذف والاتساق الصوتي:

يتجلى الدور الرائد للحذف في خطب نهج البلاغة وذلك لما يحدث فيها من التوازي التركيبي والاتساق الصوتي وما سبق ذكره من النماذج النصية يدل على أن التوازي يظهر في كثير من أنواع الحذف الموجودة في الخطب خاصة حذف الحروف الجارة والفعل.

أما الحذف في الخطب فلا يصحبه التوازي الا ويمثل مظهرا قوياً من مظاهر الاتساق النصي فيها:

وَأَزِفَ مِنْهَا قِيَادٌ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَا
وَ [...] اقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا
وَ [...] تَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا
وَ [...] انْفِصَامٍ مِنْ حَلْقَتِهَا — اسم مجرور+ حرف جر+ اسم مجرور + ضمير
وَ [...] انْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا — (مصحوباً بعامل الحذف)
وَ [...] عَفَاءٍ مِنْ أَعْلَامِهَا
وَ [...] تَكَشُّفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا
وَ [...] قِصَرٍ مِنْ طُولِهَا

جَعَلَهُ اللَّهُ بَلَاغاً لِرِسَالَتِهِ
وَ [.....] كَرَامَةً لِأُمَّتِهِ
وَ [.....] رَبِيعاً لِأَهْلِ زَمَانِهِ — اسم منصوب + حرف جر + اسم + ضمير
وَ [.....] رِفْعَةً لِأَعْوَانِهِ
وَ [.....] شَرَفاً لِأَنْصَارِهِ — (خطبه ١٩٨)

٢-٩- الحذف ونوع الخطب :

يوظّف لسانيات النص، الحذف كعنصر إتساقي، فبناء عليه ينقسم الحذف الى الأقسام الثلاثة التالية:

الحذف النحوي: وهو ما يرجع الى القواعد النحوية في اللغة والذي يفرضه النحو على المتكلم.

الحذف البلاغي: يقصد به ما يحذف على أساس الاغراض البلاغية دون القواعد النحوية كالتحقيرو ...

الحذف الاتساقي: يظهر هذا النوع من الحذف في نص مكوّن من جملتين أو أكثر ويكون المحذوف أساساً للربط بين المتتاليات النصية وهو ما تتمحور حوله الجمل ويتمثل كهمزة وصل بين سلسلة من الجمل والعبارات .

من يمعن النظر الى نصوص الخطب في نهج البلاغة يجد أن الحذف الاتساقي أكثر حضورا من سابقيه ويتضح من الامثال التي ذكرت في حذف الحروف والافعال أن الحذف يتحقق غالبا في أكثر من جملتين وقد يبلغ عدد الجمل فيه الى عشر جمل، فهذا ما يضيف الى النص تماسكاً وترابطاً اكثر.

اما السوال الذي يطرح نفسه هو يتعلق بدور الحذف في تحديد نوع النص في الخطب والأغراض المنتجة عنه ويمكن الإجابة بأن ما يمتاز به الحذف في الخطب من تعددية الفجوات في غالبية الجمل واستصحابه بالتوازي تدل على أن نص الخطب يصبغ بصبغة أدبية، أي يعدّ الحذف الاتساقي المحقق في خطب نهج البلاغة انسجاماً بلاغياً كما يعد انسجاماً صوتياً لما يصحبه من عناصر لغوية كالتوازي والتكرار الدلالي.

يمكن مما قيل أن نستخلص أن الحذف في الخطب فن أدبي ولو أدى الى الاتساق الدلالي بين الجمل المتتالية رغم تمايزه عن الحذف في علم المعاني.

وأما المستوى الكمي ونسبة ورود انواع الحذف فهو ما يعبر عنهما الجدول التالي:

انواع الحذف كمية و نسبة

الخطبة	عامل الحذف النحوي											
	حذف الاسم		حذف شبه الجملة		حذف الحرف		حذف الفعل		حذف الجمله		مجموع الحذف في الخطب	
	كمية	النسبة	كمية	النسبة	كمية	النسبة	كمية	النسبة	كمية	النسبة	كمية	النسبة
١	٤٧	٢/٧٨	١٠	٠/٥٩	٣٠	١/٧٧	١٧	١	٠	٠	١٠٤	٦/١٥
٣	٢	٠/٣٩	١	٠/١٩	٨	١/٥٦	١	٠/١٩	٢	٠/٣٩	١٤	٢/٧٤
٢٧	٣	٠/٦	٣	٠/٦	٦	١/٢	٦	١/٢	١	٠/٢	١٩	٣/٨
٨٣	٣٣	٢/٠٣	٢	٠/١٢	٢	٠/١٢	٢٢	١/٣٥	٢	٠/١٢	٦١	٣/٧٦
٨٧	٦	٠/٩٣	٠	٠	٥	٠/٧٨	٤	٠/٦٢	٠	٠	١٥	٢/٣٤
٩١	١٣	٠/٤٣	٢	٠/٠٦	٥٦	١/٨٥	١٤	٠/٤٦	١	٠/٠٣	٨٦	٢/٨٤
١٠٨	٢	٠/٤١	٠	٠	٩	١/٨٧	١٢	٢/٥	١	٠/٢٠	٢٤	٥
١٠٩	١١	٠/٨٤	٣	٠/٢٣	٣	٠/٢٣	٨	٠/٦١	٢	٠/١٥	٢٧	٢/٠٧
١١١	٨	١/١	٠	٠	١	٠/١٣	١٠	١/٣٧	١	٠/١٣	٢٠	٢/٧٥
١١٤	١١	١/٦٤	٠	٠	٠	٠	٦	٠/٨٩	٠	٠	١٧	٢/٥٣
١٤٣	١	٠/٢٦	٠	٠	٩	٢/٣٦	٤	١/٠٥	٢	٠/٥٢	١٦	٤/٢١
١٤٧	٥	٠/٩٣	٠	٠	٤	٠/٧٤	٤	٠/٧٤	٠	٠	١٣	٢/٤٢
١٥٥	١	٠/٢٥	٠	٠	٢	٠/٥١	٢	٠/٥١	٠	٠	٥	١/٢٨
١٥٦	٦	١/١٧	٠	٠	٣	٠/٥٨	٣	٠/٥٨	٢	٠/٣٩	١٤	٢/٧٤
١٥٧	٢	٠/٤٥	٤	٠/٩٠	٢	٠/٤٥	٥	١/١٣	٠	٠	١٣	٢/٩٥
١٦٠	٣	٠/٢٤	٢	٠/١٦	٦	٠/٤٩	٢٠	١/٦٥	٠	٠	٣١	٢/٥٦
١٦٥	٠	٠	٠	٠	١٧	١/٧٣	٨	٠/٨١	١	٠/١٠	٢٦	٢/٦٥
١٧٦	٨	٠/٦٦	٢	٠/١٦	٦	١/٢	٦	١/٢	٠	٠	٢٢	١/٨٣
١٨٢	٧	٠/٧٠	١	٠/١	١٢	١/٢	٢٣	٢/٣١	٠	٠	٤٣	٤/٣٢
١٨٣	٥	٠/٥٦	٠	٠	١٢	١/٣٦	٦	٠/٦٨	٢	٠/٢٢	٢٥	٢/٨٤
١٨٥	١٢	١/٣٩	٣	٠/٣٤	٢٦	٣/٠٢	١٦	١/٨٦	٢	٠/٢٣	٥٩	٦/٨٦
١٨٦	٨	٠/٦١	٦	٠/٤٦	١٨	١/٣٨	٣٠	٢/٣	٦	٠/٤٦	٦٨	٥/٢٣
١٩١	٧	١/٢	٠	٠	١٦	٢/٧٥	٢	٠/٣٤	٢	٠/٣٤	٢٧	٤/٦٥
١٩٢	٢٨	٠/٧	١٤	٠/٣٥	٦٧	١/٦٧	٧٩	١/٩٧	٢٩	٠/٧٢	٢١٧	٥/٤٣
١٩٣	٥	٠/٥٦	٠	٠	٥	٠/٥٦	٢٦	٢/٩٥	١	٠/١١	٣٧	٤/٢
١٩٨	٢٢	٢/٢٤	٠	٠	٦	٠/٦١	٦٢	٦/٣٢	٣	٠/٣	٩٣	٩/٤٨
٢١٠	١	٠/١٦	١٢	٢/٠١	١	٠/١٦	٣	٠/٥	٠	٠	١٧	٢/٨٥

٢١٦	٥	٠/٦	٣	٠/٣٦	٤	٠/٤٨	٦	٠/٧٣	٢	٠/٢٤	٢٠	٢/٤٣
٢٢١	٢	٠/٢٦	١	٠/١٣	٦	٠/٨	٦	٠/٨	٤	٠/٥٣	١٩	٢/٥٥
٢٢٣	٦	١/٠٧	٠	٠	٠	٠	٥	٠/٨٩	٢	٠/٣٥	١٣	٢/٣٢
مجموع الخطب	٢٧٠	٠/٩	٥٨	٠/١٩	٣٤٢	١/١٤	٤١٦	١/٣٨	٦٧	٠/٢٢	١١٥٣	٣/٨٤

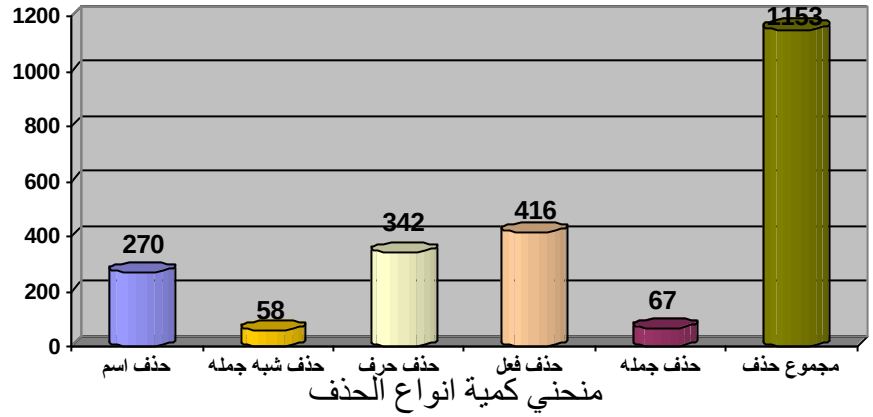

منحني كمية انواع الحذف

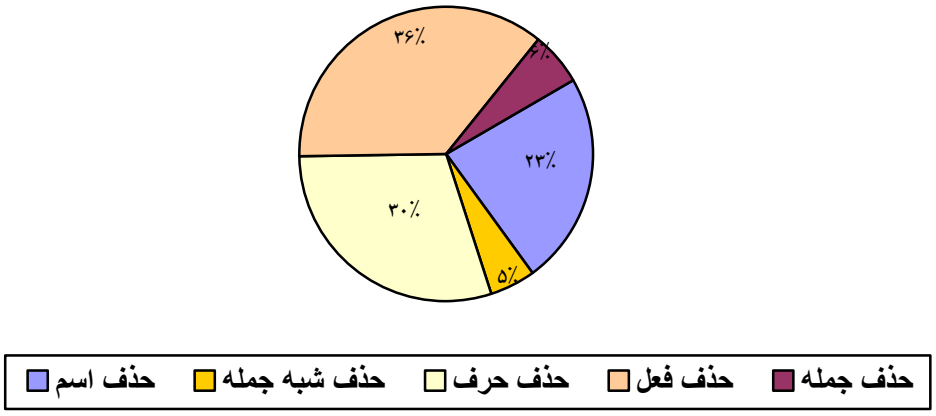

منحني انواع الحذف

النتائج:

ونوجز نتائج البحث مقارناً معطيات الجدول في النقاط الآتية:

ـ لم يقتصر الحذف في النصوص العربية عامة والخطب خاصة على الحذف الاسمي والفعلي والجمل بل إنه تجاوز ذلك الى نوعين آخرين وهما حذف الحرف وحذف شبه الجملة.

ـ وعن أنواع الحذف في الخطب نلاحظ في الحذف الاسمي أن الخطبة ١ أكثرها ورودا وهي تشمل على ٤٧ حالة من الحذف والتي تبلغ نسبتها الى ٢/٧٨ % قياساً الى عدد الكلمات المكونة للخطبة بينما الخطبة ١٦٥ أقلها إذ يبلغ عددها الى الصفر.

ـ تتميزالخطبة ٢١٠ بأنها أكثر الخطب استخداماً لحذف شبه الجملة ويقف عدد الحذف فيها عند نسبة ٢/٠١ % و فيها ١٢ حالة من حذف شبه الجملة ، هذا وأن كثيرا من الخطب يخلو من الحذف هذا.

ـ نتبين من الجدول السابق أن الحذف الحرفي من أهم الخواص الاتساقية و اعلاها ورودا في الخطبة ١٨٥ التي يبلغ عدد الحذف فيها الى ٢٧ حالة و نسبته٣/٠٢ % الى مجموع الكلمات الموجودة في الخطبة خلافاً للخطبتين ١١٤ و ٢٢٣حيث لايلاحظ هذا الحذف فيهما.

ـ تمتاز الخطبة ١٩٨ بين الخطب بأنها تحوي على درجة عالية من الحذف الفعلي فقد استخدم فيها ٦٢ حالة من الحذف التي جعلها أكثرها استخداما لهذا العنصر الاتساقي بنسبة ٦/٣٣ % بينما تعدّ الخطبة ٣ أقلها بحضور حالة واحدة من الحذف ونسبتها المئوية ٠/١٩ % .
ـ إن خطبة ١٩٢ أكثر الخطب توظيفاً لحذف الجملة فتلاحظ في الخطبة هذه ٢٩ حالة من الحذف هذا بنسبة ٠/٧٢ % وأن عَشرا من الخطب الثلاثين المدروسة خالية من هذا العنصر.
ـ إن هذه الآلية الاتساقية تظهر بوضوح في الخطبة ١٩٨ أكثر تجلياً من غيرها إذ يبلغ عدد الحذف فيها ٩٣ حالة وتحاسب نسبتها ٩/٤٨ % بينما الخطبة ١٥٥ التي تشتمل على ٥ حالة من الحذف فقط تعتبر أقل الخطب بنسبة ١/٢٨ % قياسا لمجموع كلمات الخطبة .
ـ إن الدراسة الاحصائية التي ترصد ورود أنواع الحذف في كل الخطب تؤكد أن الجمل أكثر شيوعا و تداولا بين أنواع الحذف في الخطبة بـ ٤١٦ حالة من الحذف و نسبتها ١/٣٨ % و أقلها هو حذف شبه الجملة بـ ٥٨ حالة و نسبة ٠/١٩ %.
ـ للحذف مكانة ممتازة هامة في الخطب فيحضر ١١٥٣ حالة في الخطب و تبلغ نسبتها الى ٣/٨٤ % قياسا للعد الكلي لكلمات الخطب المدروسة وهي ٢٩٩٨٥ كلمة وله خاصية أسلوبية أيضاً.
ـ يبدو من منحني أنواع الحذف أن الحذف الفعلي أكثر انواع الحذف ورودا و أقلها هو حذف شبه الجملة على حين يتوسط حذف الحرف بينهما .

قائمةالمصادر والمراجع

العربية:

ـ ابن ابي الحديد، عزالدين ابوحامد، شرح نهج البلاغة، قم: مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ١٣٣٧ ش .
ـ ابن ميثم البحراني، كمال الدين، مقدمة شرح نهج البلاغة، تقديم وتحقيق: عبدالقادرحسين، القاهرة: دارالشروق، ط١، ١٩٨٧ .
ـ خطابي، محمد، لسانيات النص، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٦ .
ـ فرج، حسام احمد، نظرية علم النص، القاهرة: مكتبة الآداب، ط١، ٢٠٠٧ .
ـ الفقي، صبحي ابراهيم، علم اللغة النصي، بين النظرية والتطبيق، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠ .
ـ محمد، عزة شبل، علم لغة النص، القاهرة: مكتبة الآداب، ط١، ٢٠٠٧ .

الفارسية:

ـ آذرنژاد، شكوه، مطالعه مفهوم انسجام واژگاني در قرآن كريم، پايان نامه ارشد، دانشگاه پيام نور، ١٣٨٥ .
ـ آقا گل زاده، فردوس، تحليل گفتمان انتقادي، تهران: شركت انتشارات علمي و فرهنگي، چاپ ١، ١٣٨٥ .
ـ البرزي، پرويز، مباني زبان شناسي متن، تهران: موسسه انتشارات امير كبير، چاپ ١، ١٣٨٦ .
ـ دشتي، محمد، ترجمه نهج البلاغه امام علي عليه السلام، قم: موسسه انتشارات مشهور، چاپ اول، ١٣٧٩ .
ـ معاديخواه، عبدالمجيد، خورشيد بي غروب نهج البلاغه، تهران: نشر ذره، چاپ ١، ١٣٧٤ .

الاجنبية:

- Halliday & Hasan, Cohesion in English, London: Longman,١٩٧٦

ظاهرةالجناس في خطب الإمام علي بن أبي طالب (ع) ورسائله دراسةبلاغية

الاستاذ المساعدالدكتور: حسين عبد العال اللهيبي (جامعة الكوفة - مركز دراسات الكوفة)

المقدمة:

الجناس أحد فنون البديع الذي عرفته البلاغة العربية منذ عهدٍ مبكر، منذ العصر الجاهلي، وكان يعرف بالذوق، ويتأتى بالسليقة بعيداً عن التكلُّف، ثم ما لبث أن صار في العصور المتأخرة ظاهرة أسلوبية لها أهميتها في الدرس البلاغي.

وفي الحق أن هذا الفن اختلف فيه علماء البلاغة بين من تحمّس له، ومضى يمجده ويدعو إليه كالصفدي وأضرابه، وبين من هجّنه وقبحه كابن حجة وأقرانه، وهناك رأي وسط يمثله الأكثرية من علماء البلاغة الذين رأوا فيه محسّناً لفظياً يحمل في تضاعيفه ألوان البراعة والافتنان ولاسيّما إذا جاء منقاداً للمعنى، يأتي في الكلام عفواً، من غير كدٍّ، ولا استكراه، ولا بعد، ولا ميلٍ إلى جانب الرِّكة.

وإذا كان الجناس يؤلف - في مكونه البنائي – مظهراً من مظاهر الموسيقى الناجمة عن تجانس اللفظتين وانسجامهما معا، فإنه يؤدّي دلالة تعبيرية تسهم في تقرير المعنى في ذهن المتلقي وتجعله مقبولاً لديه، كما يشهد لصاحبه بتمكنه من اللغة، والبصر بدقائق أسرارها، وقدرته على التصرّف في معطياتها.

وتظهرُ عنايةُ الأدباء - في العصور المتأخرة - بالجناس بما يتحقَّق لديهم من دلالاتٍ وإيحاءاتٍ تسهمُ في خَلقِ أصداءٍ وأنغامٍ إضافية تسعى إلى الاستحواذ على أجزاء النص الذي ترِدُ فيه، بما يمنح الفرصة في توليد موسيقى ظاهرية فيه تتجلّى في هذه الألفاظ المكرّرة والموزونة، فضلاً عن القيمة الدلالية التي تكتسبها هذه الألفاظ. إنّهم يحبِّذون الجناس ويؤثرونه؛ ولشدة ولوعهم به جاء نتاجهم مثقلاً به، إمعاناً منهم بالتكلف والتعمّل، وإسرافاً بالصنعة، ونجد هذا الإسراف كبيراً في الصياغة اللفظية فأفسد البلاغة وطوى بهجتها، وأغاض ماء رونقها.

وعلى الرغم من اختلاف وجهة النظر في الجناس إلاّ أنه حظي بشيءٍ من اهتمام الباحثين قديماً وحديثاً، وصنفوا فيه بعض المصنفات، وهو دليل واضح على أهمية الجناس ومكانته السامية في الأدب العربي شعراً ونثراً، ومن أشهر من صنّف فيه، الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) وكتابه (أجناس التجنيس)، والصفدي وكتابه (جنان التجنيس)، وشمس الدين النواجي (ت ٨٥٩هـ) وكتابه (الدرّ النفيس فيما زاد على جنان الجناس وأجناس التجنيس)والسيوطي (٩١١هـ) وكتابه (جني الجناس)، وفي العصر الحديث الدكتور علي الجندي وكتابه (فن الجناس)، وقد جاءت هذه الدراسة تتمة لما سبق، بل هي محاولة جادة للوقوف على أحد أساليب البلاغة العربية، واستجلاء خصائص هذا الفن وسماته على المستويين: المستوى الصوتي والمستوى الدلالي؛ لإبراز القيمة الفنية والجمالية لهذا الفن من خلال دراسة بنيته دراسة بلاغية، وكانت خطب ورسائل الإمام علي (عليه السلام) مادة تطبيقية لهذا الفن.

وقد اقتضى منهج البحث أن نقسم البحث إلى مبحثين، هما:

المبحث الأول: وقد تناول أبعاد الجناس وأهميته.

أمّا المبحث الثاني فقد تناولنا فيه أقسام الجناس في خطب ورسائل الإمام علي(عليه السلام).

المبحث الأول - «أبعاد الجناس وأهميته»

أولاً-الجناس لغةاصطلاحاً:

الجناسُ لغةً: جانس وهو مصدر مشتق من مادة جنّس، وجانس الشيء إذا شاكله واتحد معه في الجنس من المجانسة وهو المفاعلة من الجنس، لأن أحد الكلمتين إذا شابهت الأخرى فقد وقع بينهما مفاعلة في الجنسية والمجانسة، والجناس مصدر لجانس؛ لأنّ فاعل مصدره فعال ومفاعلة

كما تقول: قاتلة مقاتلة وقتالاً، أو هو من التجنيس مصدر جنّس، لأنّ فعّل مصدره التفعيل كما تقول: سلّم تسليماً[1].

أمّا في الاصطلاح فللبلاغيين عدة تعريفات لتحديد هذا المصطلح، منهم:
ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) :(مجيء كلمة تجانس أخرى في بيت شعرأو كلام أي أن تشبهها في تأليف حروفها)[2].

وقريبٌ منه تعريف أبي هلال العسكري (٣٩٥هـ): (أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كلّ واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها)[3].

ويرى قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) أن الجناس: (هو اشتراك المعاني في ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق)[4].

وواضح من تعريفه عنايته بالجانب اللغوي، وإن انطبق على جزء من الصيغة الاصطلاحية للجناس.
وقال الرماني (٣٨٤هـ) فيه: (هو بيان المعاني بأنواع من الكلام يجمعها أصل واحد من اللغة)[5].

وذهب ابن الأثير الجزري (٦٣٧هـ) إلى أن الجناس هو: أن يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً)[6].

وهو تعريف مقتضب، لا يعطي صورة واضحة للجناس بأقسامه المعروفة، وإنما ينطبق على قسم واحدٍ من أقسامه، هو الجناس التام.
ولا يختلف تعريف نجم الدين الحلبي (ت ٧٣٧هـ)[7] عن تعريف ابن الأثير، إذ نراهُ يردده لفظاً ومعنى.
أما الصفدي (ت ٧٦٤هـ) فإنه يضع الصيغة الاصطلاحية لهذا الفن، فيقول: (الجناس هو مجيء حروف ألفاظه من جنسٍ واحد، ومادة واحدة، ولا يشترط تماثل جميع الحرف بل يكفي في التماثل ما تقرب به المجانسة)[8].

وقد تابعه على هذا التعريف نصاً ابن حجة الحموي (ت٨٣٧هـ)[9]، دون أن يضيف إليه شيئاً.

ومن كلّ ما تقدّم يتضح لنا أن الصفدي قد حاز قصب السبق في إرساء دعائم مصطلح الجناس فنياً، إذ كان تعريفه دقيقاً.

ثانياً- موقف البلاغيين من الجناس:

لا بد من معرفة موقف البلاغيين من الجناس لتتضح المعالم الفنية لهذا الفن البلاغي، والغرض الذي من أجله يستعمله الأدباء في كلامهم شعراً ونثراً، لاسيما إذا علمنا أنّ ثمّة خلاف بين علماء البيان حوله، وقد انقسموا إلى ثلاث فرقاء، وهم:
١- الفريق الأول: وهم المتعصبون للجناس وعلى رأس هؤلاء: الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) وكان مولعاً بالجناس، وقد عدّه من المتشابه الذي هو من أسرار البلاغة[1]، وقد ألف فيه كتابه (أجناس التجنيس).

---

١ . ينظر: لسان العرب: مادة (جنس)، جنان الجناس: ٢٣.
٢ . البديع: ٢٥.
٣ . نقد الشعر: ١٦٣.
٤ . كتاب الصناعتين: ٢٥٢.
٥ . النكت في إعجاز القرآن: ٩٩.
٦ . المثل السائر: ٢٤٦/١.
٧ . جوهر الكنز: ٩١.
٨ . جنان الجناس: ٢٦.
٩ . خزانة الأدب، الحموي: ٣٨٤/١.

ومنهم الصفدي (ت ٧٦٤هـ) وكان متحمّساً له، يمجده تمجيداً منقطع النظير، وقد ألف كتابه فيه (جنان الجناس)، ودافع عنه وأورد له أمثلةً كثيرة من نظمه، وعنه يقول ابن حجة (وكان الشيخ صلاح الدين الصفدي – رحمه الله – يستسمن ورمه ويظنّه شحماً،فيشبع أفكاره منه، ويملأ بطون دفاتره، ويأتي فيه بتراكيب تخفّ عندها جلاميد الصخور)[٢] والنواجي (ت ٨٥٩هـ) وهو الآخر كان مغرماً به، وقد ألف كتابه فيه (الدرّ النفيس فيما زاد على جنان الجناس وأجناس التجنيس).

٢- الفريق الثاني: وهم المعرضون عنه الذين ينفرون عنه، فلا يستسيغونه، ويرون أنه عديم الفائدة، فهو لا يعدو من كونه محسناً لفظياً يعوق الأديب عن ابتكار المعاني، يخلو من كلّ مزية، ويتجرّد من كلّ فضيلة، ومنهم زين الدين ابن الوردي (٧٤٩هـ) كان لا يستسيغه، وقد عبّر عن ذلك بقوله[٣]:

إذا أحببت نظمَ الشعرَ فاخترْ لنظمِكَ كلّ سهلٍ ذي امتناع
ولا تقصُدْ مجانسةً ومكّنْ قوافيهِ، وكِلْهُ إلى الطباع

ومنهم جمال الدين ابن نباتة المصري (٧٦٨هـ) فإنه لم يحبّذه لشدّة ولوعه بالتورية، ولما وقف على كتاب الصفدي قرأهُ (جُنان الخنّاس) بالتصحيف؛ لنفوره منه، وجرى بينهما بسبب ذلك ما يطول شرحه[٤].

ولعلّ أشدّهم نفوراً منه، وإعراضاً عنه هو ابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ)، فقد كان يرفض الجناس ويسخط عليه ويهجنه، يقول: (أما الجناس فإنه غير مذهبي ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب، وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ، فإنّ كلاً منهما يؤدي إلى العقادة والتقييد عن إطلاق عنان البلاغة في مضمار المعاني المبتكرة)[٥]، فالجناس في رأيه لا يعدو كونه محسناً لفظياً لا يبعث في نفس المتلقي بأكثر من التفكير في معناه (ولم يحتج إليه ويكثر إلاّ من قصرت همّته عن اختراع المعاني)[٦].

وموقف ابن حجة من المحسنات اللفظية معروف، فهو يلهثُ دائماً وراء المحسنات المعنوية؛ لذلك لم يحبّذه، ولم يدعو إليه، ولم يتحمس له حماسته للتورية، إنه لا يستحسن الجناس إلاّ إذا خرج مخرج التورية، يقول (فإذا جعلتَ الجناس تورية انحصر المعنيان في ركنٍ واحد، وخلصتَ من عقادة الجناس، وحرّكت جامد الأذواق، وأبهجت خاطر السامع بما أتحفته من بديع تركيبها وتأهيله بغريبها)[٧].

٣- الفريق الثالث: وهم أكثر اعتدالاً، ويمثله أكثر جمهور البلاغيين، إذ يرون في الجناس رأياً جميلاً، فلم يتعصبوا له مثلما ظهر من الصفدي وأضرابه، ولم ينكروه كما أنكره ابن حجة، وإنما وقفوا موقفا وسطاً يتسمُ بالإنصاف لهذا اللون البديعي، فالجناس المقبول لديهم هو الذي يتنبه إلى حسن موقعه بالذوق الصحيح، (جارياً على سجيته غير مستكره لطبيعته، ولا متكلف ما ليس في وسعه، فإن التكلف إذا ظهر في الكلام هجنه وقبح موقعه)[٨]، ومعنى هذا أن الجناس كغيره من ألوان البديع له وقعه في النفس، وأثره في المعنى إذا صدر عن طبعٍ سليم، جارياً في الكلام على سجيته من غير تكلّف، أو إسراف في الصنعة، أما إذا تكلّف وتصنع فقد ثقل،

---

١ . أجناس التجنيس: ٢٥.
٢ . خزانة الأدب، الحموي: ٣٧٩/١.
٣ . ديوان ابن الوردي: ٢٤١.
٤ . خزانة الأدب، الحموي: ٣٨٢/١.
٥ . خزانة الأدب، الحموي: ١/ ٣٧٦.
٦ . خزانة الأدب، الحموي: ٣٧٩/١.
٧ . خزانة الأدب، الحموي: ٣٩٠/١-٣٩١.
٨ . نقد النثر: ١٠٥.

وعزبت عنه النفوس، وعافته الأذواق، ولا يزيل عنه هذا التكلف إلاّ إذا طلبه المعنى، وحينئذٍ تظهر قيمته وفائدته (أن ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلاّ بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، ولما وجد فيه إلاّ معيب مستهجن)[1].

وأكد عبد القاهر الجرجاني هذه الحقيقة بقوله: (فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً، ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه)[2].

ونرى من المفيد أن نستأنس في هذا الصدد بقول المطرزي وهو يتحدث عن أنواع الجناس (لا تستحسن حتى يساعد اللفظ المعنى، ولا تستلذ حتى تكون عذبة الإصدار والإيراد، سهلة سلسة المقاد، ولا تبرع حتى يساوي طلعها مقطعها، ولا تملح حتى يوازي مصنوعها مطبوعها مع مراعاة النظائر، وتمكن القرائن، وإلاّ فما قلق في أماكنه، ونبا عن مواقعه، فبمعزلٍ عن الرضا عند علماء البيان، وبمكانة من البشاعة لدى أرباب النثر، وأصحاب النظم، فإذا أردت أن تستوفي أقسام المحاسن، وتجتنب أنواع المشائن، فأرسل المعاني على سجيتها، ودعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فغنها إذا تركت وما تريد، لم تكتسِ إلاّ ما يليق بها، ولم تلبس من المعارض إلاّ ما يزينها، فأما أن تصنع في نفسك أنّه لا بدّ لك من تجنيس، أو تسجيع بلفظين مخصوصين، فهو الذي أنت منه بعرض الاستكراه على خطر من الخطأ)[3].

وفي الحق أن الجناس إذا تهيأ للأديب يأتي به محمولاً على الطبع غير متكلّف، تنقاد ألفاظه للمعاني مطابقاً لمقتضى الحال، وهو في كلّ ذلك قد بلغ الذروة من البلاغة.

ثالثاً- أهمية الجناس:

الجناسُ مظهرٌ من مظاهر الزخرفة اللفظية، يضفي على النص الذي يرد فيه رونقاً وطلاوة، ويرفدُهُ بتجانسٍ موسيقي دقيق، بوصفه (ضرب من ضروب التكرار المؤكد للنّغم من خلال التشابه الكُلّي، أو الجزئي في تركيب الألفاظ[4].

وقد حظي الجناس باهتمام علماء البلاغة في إطار اهتمامهم باللفظ وتحسينه ودلالته، وأنَّهُ أسلوب جميل في نظم الكلام يتطلّبُ مهارة خاصة، وقد لا يقدرُ عليه إلاّ الأديب الذي وهب حاسة مرهفة في تذوّق الموسيقى اللفظية[5]، وقد وردت بعض أمثلته في القرآن.

والأدباء يحبِّذون الجناس ويؤثرونه؛ لأنَّه صورة من صور الإيقاع المتناغم الذي يكسُو البيتَ الذي يردُ فيه جمالاً، ويزيد المعنى بموسيقاه استقراراً في النفس، وتأثيراً فيها؛ بسبب تعاقب المقاطع على نحوٍ منتظم فيشتدُّ وقعها، ويتلاحق تأثيرها.
وإذا كان الجناس يؤلف - في مكونه البنائي – مظهراً من مظاهر الموسيقى الناجمة عن تجانس اللفظتين وانسجامهما معا، فإنه يؤدّي أيضاً دلالة تعبيرية تسهم في تقرير المعنى في ذهن المتلقي وتجعله مقبولاً لديه، وهذه أمورٌ لها وزنها في الإثارة والتأثير.
وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى أهمية الجناس، وأولاهُ عنايته عندما تحدّث عن فنية هذا اللون البديعي وبراعته، يقول (ومن ههنا كان أحلى تجنيسٍ تسمعه، وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصدٍ من المتكلّم إلى اجتلابه، وتأهب لطلبه، أو ما هو لحسن ملائمته وإن كان مطلوباً بهذه المنزلة، وفي هذه الصورة)[6].

---

١ . أسرار البلاغة: ٥.
٢ . أسرار البلاغة: ٧.
٣ . أنوار الربيع: ٢٢٢/١.
٤ . جرس الألفاظ: ٢٨٤.
٥ . ينظر: موسيقى الشعر: ٤٥.
٦ . أسرار البلاغة: ٧.

ومن هما فإن جودة الجناس وحسنه (إذا قلَّ، وأتى في الكلام عفواً، من غير كدٍّ، ولا استكراه، ولا بعد، ولا ميلٍ إلى جانب الرِّكة)[1].

ومن خلال الترابط بين المستويين: الدلالي والصوتي للجناس ندرك أن للجناس أهمية في إثارة الانفعال، وشحذ الذهن على إدراك المعنى لأن (مناسبة الألفاظ تحدث ميلاً وإصغاء إليها، ولأن اللفظ المذكور إذا حمل على معنًى، ثم جاء والمراد به معنًى آخر، كان للنفس تشوق إليه)[2].

يقول الدكتور علي الجندي في معرض حديثه عن الجناس (فبينما هو يريك أنّه سيعرض عليك معنًى مكرراً، ولفظاً مردداً لا تجني منه غير التطويل والانقباض والسآمة، إذا هو يروغ منك فيجلو عليك معنًى مستحدثاً يُغاير ما سبقه كلّ المغايرة، وإن حكاه في نفس الصورة، وذات المعرض، فتأخذك الدهشة لهذه المفاجأة السارة اللذيذة التي أجدت عليك جديداً لم يقع في حسابك، ولا ريب في أن كلّ طريف يفجأ النفس، ويباين ما كانت تنتظره تتنزى له، وتستقبله بالبشر وبالفرح)[3].

وصفوة الكلام: أن الجناس صورة من صور الإيقاع المتناغم الذي يكسُو النص الذي يردُ فيه جمالاً، ويزيدُهُ قوّةً في الرنين؛ بسبب تعاقب المقاطع على نحوٍ منتظم فيشتدُّ وقعها، ويتلاحق تأثيرها، ولا تعرف قيمته إلا إذا جاء منقاداً للمعنى، وفي ذلك يكون الجناس قد بلغ غايته في التأثير والإثارة.

المبحث الثاني - الجناس في خطب ورسائل الإمام علي(عليه السلام)

ورد الجناس في موضع متفرقة من خطب ورسائل الإمام علي(عليه السلام)، وهو لا يقلُّ شأناً عن غيره من فنون البديع، متأتٍ من الطبع السليم، والفطرة النقية التي تستجيب لمقتضى الحال، فالكلمات طوع إرادته، تجري على لسانه منقادة للمعنى الذي يريده في يسرٍ وسهولة، من غير قصد أو تكلّفٍ، فهو لا يتقصد لفظة للفظة أو معنًى لمعنى، وإنما يتقصد فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى وإبرازه، وتلاحم الكلام بعضه ببعض، بما ينمُّ عن ذوق صحيح، وذهن ثاقب، وقريحة مطاوعة.

والجناس الذي ورد في خطب ورسائل الإمام كثير، ولكن نكتفي بذكر علي ستة أنواع منه، هي: الجناس التام، والجناس الناقص، وجناس التصحيف، وجناس التحريف، وجناس المضارع، وجناس المقلوب، وأول ما نبدأ به هو:

١- الجناس التام:

ويرادُ به (أن يتشابه اللفظان نطقاً، ويختلفان معنًى)[4]، ويسمّيه القاضي الجرجاني (المستوفى) لأن حروف كلّ واحد منهما مستوفاة في الآخر[5].

ومعناه أن يجيء المتكلّم بكلمتين متفقتين لفظاً، مختلفتين معنًى، أي لا تفاوت في تركيبهما[6]، ولا اختلاف في حركتهما، واتفاق الكلمتين يكون بنوع الأحرف ووزنها وعددها وترتيبها ، وهذا هو الذي يفرّقه عن التكرار، والتوكيد اللفظي؛ ذلك إن الجناس التام - كما ذكرنا – تماثل اللفظ، واختلاف المعنى، في حين أن التوكيد وإن كان لفظ واحد فقد اتحد معناه، ثم إنّ (شرطه

---

١ . حسن التوسل: ١٩٨.
٢ . عروس الأفراح: ٣٧٧/٢.
٣ . فن الجناس: ٢٩-٣٠.
٤ . التبيان في علم المعاني والبديع والبيان: ٤٨٠.
٥ . الوساطة: ٤٦.
٦ . حسن التوسل: ١٨٣-١٨٤.

الاتصال، وأن لا يزاد على ثلاثة، والتكرار يخالفه في الأمرين)[1]؛ فضلاً عن أنَّ التوكيد يقرر المعنى الأول، بينما التكرار يؤسِّسُ معنى فيه من القَوة في الدلالة ما ليس في التوكيد[2].

ومن خلال النظر في المكون البنائي للجناس التام نجده يؤدي دلالتين، الأولى حقيقية، والثانية مجازية. وهذا يعني أن المتلقي يفهم من كلّ لفظةٍ مع قرينتها، ما لا يفهمه من الثانية مع قرينتها. ومن أمثلة هذا النوع، قول الإمام علي – عليه السلام - (واستقربُوا الأجلَ، فبادروا العمل، وكذبوا الأمل فلاحظوا الأجل)[3].

لقد جانسَ الإمام (عليه السلام) بين لفظة (الأجل) الأولى التي تعني الوقت، ولفظة الأجل الثانية الموت. وقد اتفق اللفظان فيه بنوع الأحرف ووزنها وعددها وترتيبها، والفرق واضح في دلالة اللفظ على المعنى، لقد جاء اللفظان متوافقين في المستوى الشكلي والمستوى الدلالي للنص.
ومن صور الجناس التام التي وردت في كلام الإمام (عليه السلام) قوله في وصف الدنيا (وإنما الدنيا منتهى بصر الأعمى لا يبصر مما وراءها شيئاً، والبصير ينفذها بصره ويعلم أن الدار وراءها، فالبصيرُ منها شاخصٌ، والأعمى إليها شاخص، والبصيرُ منها متزوِّد، والأعمى لها متزوِّد)[4].

تمثل الجناس في النص المذكور بلفظة (شاخص) وقد جاءت مكرّرة مرتين في الأول جاءت بمعنى الراحل الذي يشخص للسفر، وهي مجانسة للفظة الثانية التي جاءت بمعنى من شخص بصره بالفتح إذا فتح عينه نحو الشيء مقابلاً له، وجعل لا يطرف، وقد عدّه ابن أبي الحديد من مستحسن التجنيس[5].

كما جانس في لفظة (متزوّد) وهو الراحل عن الدنيا، أما الثانية فهي بمعنى الراحل، ولا يخفى على المتأمِّل لهذا الجناس أنْ يتحسَّس لدّته وتأثيره؛ لأن هذا التجانس بين اللفظتين يعملُ على إثراء النص بالمُوسيقى من حيث توافق نغمِهِ، وانسجام جرسِهِ، فيمتزج بالنفس نغمُهُ وصداه،؛ وإذا كان هذا الجناس من جهة الإيقاع يهبُ اللفظتين قيمة صوتية من حيث تكرارهما، فإن له قيمة دلالية تتمثل في الفرق بين اللفظتين من حيث المعنى، ومثل هذا التجانس يحمل ما لا يخفى على أهل الذوق السليم من دلالة معبرة تبعث على التأمل والتفكر في المعنى الذي يرمي إليه الإمام على (عليه السلام).
أما بخصوص قوله وقد عزم على المسير إلى الخوارج فقال له بعض أصحابه: إن سرت يا أمير المؤمنين في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك (أتزعمُ أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه، وتُخوِّفُ من الساعة التي من سار فيها حاق به الضرّ)[6]، فهذا ليس بتجنيس أصلاً؛ لأنّ الساعة في الموضعين بمعنى واحد.

٢- الجناس الناقص:

ويسمى بالمختلف، وهو اتفاق حروف الكلمتين إلاّ أنه يخالفه إما في هيئة الحركة، أو بالحركة والسكون)[7]، ومعناهُ أن اللفظين يختلفان في الحروف عدداً وهيئة وترتيباً.

ونستطيع أن نتلمس صور هذا الجناس، ومن ذلك قوله (عليه السلام) (ثم منحه قلباً حافظاً، ولساناً لافظاً، وبصراً لاحظاً، ليفهم معتبراً...)[8].

---

١ . تاج العروس: مادة (كرّر): ١٤/ ٢٧.
٢ . ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣/ ١١.
٣ . شرح نهج البلاغة: ٢٤١/٧.
٤ . شرح نهج البلاغة: ٢١٣/٨.
٥ . شرح نهج البلاغة: ٢١٤/٨.
٦ . شرح نهج البلاغة: ١٦٠/٦.
٧ . حسن التوسل: ١٨٧.
٨ . شرح نهج البلاغة: ٢١٥/٦.

(ويستوفي فلا يوفي..... ورمى غرضاً وأحرز عوضاً)[1].

ورد في هذا النص ألفاظ متجانسة هي (يستوفي ولا يوفي، وغرضاً وعوضاً) وكلها من الجناس الناقص، فبين (يستوفي ويوفي) جناس ناقص بزيادة أكثر من حرفٍ، ووقع الجناس الناقص في (غرضاً) و(عوضاً) بتغاير الحرفين الأولين.
وقوله (عليه السلام) (اللهم اغفر لي رمزات الألحاظ، وسقطات الألفاظ)[2]، فالجناس الناقص وقع بين لفظي (الألحاظ والألفاظ) باختلاف الحرفين الوسطين.
ولا ريب إن مثل هذه التغييرات الصوتية التي تجري على اللفظين المتجانسين ستحدث عمقاً إيقاعياً موحياً، تجعل النص أحسن وقعاً في السمع، وأكثر تأثيراً في النفس.

٣- جناس التصحيف:

ويقال له جناس الخط، ويقصد به (أن تكون النُّقط فرقاً بين الكلمتين)[3]، ومن شواهد هذا النوع قوله (عليه السلام) من رسالة بعث بها إلى معاوية (... غرك عزك، فصار قصار، ذلك ذلك.)[4].

ذلك.)[4].

لقد جانس الإمام (عليه السلام) في هذا النص بين ألفاظٍ أصابها التصحيف، فما بين (غرّك) و (عزّك) وبين (فصار) و(قصار) تشابه في شكل الحرف، ولكنها اختلفت في وضع النقط، أي أنها اختلفت بنوع الحرف الأوسط في اللفظين الأولين وهو الراء والزاي، في اللفظين الآخرين فقد تغاير الحرفان الأوليان الأول الفاء، والثاني القاف.
وفي قوله (عليه السلام) من خطبة له: (وعليكم بكتاب الله فإنّه الحبل المتين، والنور المبين، والشفاء النافع، والريُّ الناقع)[5].

(المرءُ يسعى بجدِّه، والسيفُ يقطع بحدّه)[6]، وقع جناس التصحيف بين لفظي (بجدِّه) و (بحدّه) وقد تشابها في شكل الحرف، وتباينا في وضع النقط.
وقوله (عليه السلام) (أيقظوا بها نومكم، واقطعوا بها يومكم)[7].

فقد تشابه اللفظان (نومكم) و (يومكم) في شكل الحرف، ولكنهما اختلفا في وضع النقط، وكان الاختلاف اختلاف في نوع الحرف فالأول النون، والثاني الياء، ولم يختلف اللفظان من حيث الوزن الذي يُهَيِّيءُ للنصّ جوّاً موسيقياً يتولّد من هذين اللفظين المتجانسين اللذين ينسجمان مع الطبع والذوق، وبالتالي فهما يسهمان في خلق أصداءٍ وأنغامٍ إضافية.
وقوله (عليه السلام) (أضرع الله خدودكم وأتعس جدودكم)[8].

٤- جناس التحريف:

ويقصد به (ما اتفق ركناه في أعداد الحروف وترتيبها، واختلفا في الحركات سواء أكانا من اسمين أو من فعلين أو من اسم وفعل، أو من غير ذلك)[9]، وهذا يعني(تشابه اللفظين المتجانسين في رسم الحروف واختلافهما في تشكيلها)[10]، وهو قليل الورود في كلام الإمام علي (عليه

---

١ . شرح نهج البلاغة: ٢٢٠/٦.
٢ . شرح نهج البلاغة:١٤٢/٦.
٣ . البديع في البديع: ٣٤.
٤ . أنوار الربيع: ١٨٠/١.
٥ . شرح نهج البلاغة: ١٦٤/٩.
٦ . أجناس التجنيس: ٢٧.
٧ . شرح نهج البلاغة: ٨٤/٢.
٨ . شرح نهج البلاغة: ٨١/٦.
٩ . خزانة الأدب: ٤٤٤/١.
١٠ . معترك الأقران: ٢٥٦/١.

السلام)، على نحو ما جاء من رسالة كتب بها إلى معاوية (.. ذلك ذلك، فاخش فا حش فعلك، فلعلك بهذا تهدا)[1].

فبين (ذلك) و (ذلّك) و (فاخش) و (فاحش) تشابه تام في رسم الحرف، ولكن الاختلاف وقع في نوع الحركات فيها.
وفي قوله (عليه السلام) من خطبة له (فإن التقوى في اليوم الحرز والجُنّة، وفي غدٍ الطريق إلى الجنة)[2].

ولا يخفى ما يبوح به هذا النص من جناسات محرّفة، فقد جانس الإمام (عليه السلام) بين لفظ (الجُنة) بضم الجيم وهي ما يتقى به من درع وغيره، ولفظ (الجنة) بفتح الجيم التي هي من النعيم، وقد وقع تشابهٌ تام في رسم الحرف، ولكن نوع الحركات في اللفظين هو موضع الاختلاف، وهذا التجانس يحمل من الانسجام، وجمال التنغيم، ما لا يخفى وقعه اللطيف، وتلاحق تأثيره في النفس والمعنى.

٥- الجناس المقلوب:

ويسمى جناس العكس، وهو أن تكون الكلمة عكس الأخرى[3]، أو (هو ما تساوت حروف ركنيه عدداً، وتخالفت ترتيباً)[4]، وهذا يعني (أن تعكس الكلام فتجعل الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول)[5]، ومن شواهد هذا النوع قوله(عليه السلام)(أما بعدُ فإنّ المر قد يسرّهُ دَرْكُ ما لم يكن ليفوته، ويسوؤُهُ فوتُ ما لم يكن ليدركهُ)[6].

وقوله (اتقوا الله تقيّة من شمّر تجريداً، وجدّ تشميراً)[7].

ولا يخفى على من يمعن النظر في هذه النصوص التي برز فيها الجناس المقلوب واضحاً أن يجد الإمام (عليه السلام) قد استعان بهذا النوع؛ لإيصال المعنى إلى ذهن المتلقي بسهولة ويسر، وقد ظهرت من خلال دلالات هذا التقليب، وعبر هذا النغم الإيقاعي الموحي المنتظم الذي يتولّد من توالي الألفاظ المتجانسة فيما بينها.

٥- المضارع:

هو الإتيان بكلمتين متشابهتين خطّاً لا لفظاً إلاّ في اتحاد الكتابة، ثم لا يخلو من أن تتقارب فيه الحروف باعتبار مخارجها[8]، (ولا شكّ أن في تقارب مخارج الحروف بين الألفاظ المتجانسة يعني إضفاء مزيدٍ من النغم الصوتي، لأنّ فيه تشابهاً للتجنيس التام الذي يتكرّر فيه جرس اللفظ ذاته)[9]، على نحو ما جاء في كلامه (عليه السلام) (كلّ شيءٍ يعزّ حين ينزُرُ، والعلمُ يعزُّ حين يغزُر)[10] ففي هذا النص نجد تشابهاً في مخرج الصوت للحرفين النون والغين لأنّهما من حروف الحلق، ولتقاربهما في النطق في لفظتي (ينزر)، و(يغزر) فقد زاد في قوّة الجرس، وشدّة وقعه على النفس، وتأثيره في المعنى.

---

١ . أنوار الربيع: ١٨٠/١.
٢ . شرح نهج البلاغة: ٨٤/٢.
٣ . البديع في البديع: ٥٤.
٤ . أنوار الربيع: ١٩٣/١.
٥ . كتاب الصناعتين: ٢٦٠.
٦ . شرح نهج البلاغة: ١٠٩/١٥.
٧ . شرح نهج البلاغة: ٣٥٢/١.
٨ . حسن التوسل: ١٩٥.
٩ . الأثر القرآني في نهج البلاغة: ٣٢٢.
١٠ . البديع في البديع: ٤٦.

وقوله من خطبة له (وإنّما حظّ أحدكم من الأرض ذات الطول والعرض)[1] فما بين لفظتي (الأرض) و (العرض) تشابهٌ في مخرج صوت الحرفين (الهمزة والعين) فكلاهما من حرف الحلق (ويبدو واضحاً قوّة انشداد هذا الجرس إلى مضمونه؛ لأنّ الكلمات وقعت بانسيابٍ في حياض معانيها، ولم يلهث وراءها المعنى، فهذا الإطناب في عبارة (ذات الطول والعرض) لم يؤتَ به لأجل تجنيسه بما قبله، بل لبيان عاقبة الإنسان ومآله في هذه الأرض العريضة، ولعلّ من الوضوح بمكان فساد المعنى وإخلاله لو حذفت هذه العبارة من نصّ الإمام (عليه السلام)[2].

٦- جناس الاشتقاق:

وهو (أن تجيء بألفاظ يجمعها أصل واحد في اللغة)[3]، وهذا أكثر أنواع الجناس وروداً في كلام الإمام علي (عليه السلام)، ومن ذلك قوله من كتابٍ بعثه إلى أهل البصرة: (واعلموا أن دار الهجرة قلعت بأهلها وقلعوا بها، وجاشت جيش المرجل، وقامت الفتنة على القطب)[4].

وقوله (دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجرجرتم جرجرة الجمل الأسَرّ، وتثاقلتم تثاقل النضر الأدبر)[5].

وقوله: (فإذا جاء القتال قلتم: حيدي حَياد)[6].

ويبدو لمن تأمل هذه النصوص أن الإمام أورد جملة من الاشتقاقات، وهي مشتقة من حروف الجنس؛ لأنّ كلّ لفظين من الألفاظ المتجانسة هما من أصل واحد، وهي (القلع، الجيش، الجرجرة، الحياد)، وهذا التجانس يزيد من تكثيف موسيقى النص، كما يخلق نوعاً من الانسجام بين موسيقى اللفظتين ومعناهما، ممَّا يجعله أحسن وقعاً في السمع، وأكثر علوقاً في الذهن.
وهكذا لو عرضنا نصوصاً أخرى من كلام الإمام علي (عليه السلام)، ولكن نكتفي بما أوردناه من النماذج – وهي قلّ من كثر – لتكون مثلاً واضحاً على أنماط الجناس الباقية في خطبه ورسائله (عليه السلام).

الخاتمة

ومن كلّ ما تقدّم نستطيع أن نقول:
- أن الجناس من فنون البديع الذي عرفته البلاغة العربية منذ عهدٍ مبكر، يؤلّف في مكونه البنائي ظاهرةً أسلوبية رصينة، تدلّ دلالة قوية على شدّة التمكن من اللغة والبصر بدقائق المعاني.
- لم يكن الجناس محسناً لفظياً مرذولاً كما يراهُ ابن حجة، وإنما يلطف ويرق إذا أتى محمولاً على الطبع من غير متكلّف، تنقاد ألفاظه للمعاني مطابقاً لمقتضى الحال.
- لا تنحصر قيمة الجناس بالدلالة الصوتية المتمثلة بتجانس الألفاظ فيما بينها، وإنما من خلال تآزرها بالدلالة التعبيرية التي تسهم في تقرير المعنى في ذهن المتلقي وتجعله مقبولاً لديه، من خلال تحسين صورة اللفظ وجعلها مقبولة، وبذلك قد بلغ الجناس غايته في الإثارة والتأثير والجمال بسبب من هذا التوافق الموسيقي الذي يرافقه الجانب الدلالي.
- للجناس أهمية في إثارة الانفعال، وشحذ الذهن على إدراك المعنى
- ورد الجناس كثيراً في خطب ورسائل الإمام علي(عليه السلام) وهو متأتٍ من طبعٍ سليم، وفطرةٍ نقية تستجيب لمقتضى الحال.

---

١ . شرح نهج البلاغة: ٦/٢٢٠.
٢ . الأثر القرآني في نهج البلاغة: ٣٢٥.
٣ . حسن التوسل: ١٩٣.
٤ . شرح نهج البلاغة: ١٤/٦.
٥ . شرح نهج البلاغة: ٢/٢٣٧.
٦ . شرح نهج البلاغة: ٢/٨٩.

قائمةالمصادر والمراجع

- الأثر القرآني في نهج البلاغة: الدكتور عباس علي الفحام، الرافدين للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ / ٢٠١٠م.
- أجناس التجنيس: لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) تحقيق: د. محمود عبد الله الجادر، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١ ١٩٩٨م.
- أسرار البلاغة: لعبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت ٤٧١هـ) تصحيح اليد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- أنوار الربيع في أنواع البديع: لصدر الدين علي بن أحمد بن محمد بن معصوم المدني (١٠٥٢-١١٢٠هـ)، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
- البديع: عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ)، تحقيق: كراتشوفسكي، مطبوعات جب التذكارية، لندن، ١٩٣٥م.
- البديع في البديع في نقد الشعر: لأسامة بن مرشد بن علي بن منقذ الكناني (ت ٥٨٤هـ)، تحقيق: عبد آ. علي مهنا، دار الباز، بيروت ١٩٨٦م.
- البرهان في علوم القرآن: لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، مصر ١٩٥٧م).
- تاج العروس من جواهر القاموس: للسيد محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزّاق الشهير بالسيد مرتضى الحسيني الزبيدي (١١٤٥- ١٢٠٥هـ) تحقيق: عبد الستار أحمد فرّاج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.
- التبيان في علم المعاني والبديع والبيان: لشرف الدين الحسين بن محمد الطيبي (ت ٧٤٣هـ)، تحقيق: د. هادي عطية مطر، الهلالي، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)
- جنان الجناس في علم البديع: لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: سمير حسين حلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب: الدكتور ماهر مهدي هلال، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٨٠م.
- جوهر الكنز (تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي اليراعة): لنجم الدين أحمد ابن إسماعيل المعروف بابن الأثير الحلبي (ت ٧٣٧هـ)، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، شركة المعارف الإسكندرية، مصر، ١٩٧٥م.
- حسن التوسل إلى صناعة الترسل: لأبي الثناء شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد الحلبي (ت ٧٢٥هـ)، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٠م.
- خزانة الأدب وغاية الأرب: لتقي الدين أبي بكر بن علي بن عبد الله بن حجّة الحموي (ت ٨٣٧هـ)، تحقيق: د. كوكب دياب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م.
- ديوان زين الدين عمر بن مظفر بن الوردي (ت ٧٤٩هـ) تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ /٢٠٠٦م.
- شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد هبة الله بن عبد الحميد المدائني (ت ٦٥٦هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المركز الثقافي اللبناني، بيروت.
- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر): لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ٢٠٠٨هـ.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: لبهاء الدين أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت ٧٧٣هـ) تحقيق: د. خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه: لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ) تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي (محمود رزق سليم، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م): ٦/ ١٧٩- ١٨٠.
- فن الجناس: الدكتور علي الجندي، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٥٤م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لضياء الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (ت ٦٣٧هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م
- معترك الأقران في إعجاز القرآن: لجلال الدين تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، بيروت.
- موسيقى الشعر: الدكتور إبراهيم أنيس، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٦٥م.
- النكت في إعجاز القرآن: لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٦هـ)، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق: د. محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦هـ.
- نقد الشعر: لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (ت ٣٣٧هـ)، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي مصر، ط٣، ١٩٧٩م.
- نقد النثر: لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (ت ٣٣٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه: للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٦٦هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.

فلسفة النبوة وأبعاد حياة الأنبياء الاجتماعية في نهج البلاغة

الاستاذ المساعد الدكتور: حميد سراج جابر (جامعة البصرة كلية التربية)

يتناول هذا البحث بالدراسة فلسفة النبوة وابعاد حياة الانبياء الاجتماعية في فكر الإمام علي (عليه السلام) من خلال ما طرحه في نهج البلاغة إذ بين الإمام (عليه السلام) الأسباب والأهداف التي بعث الأنبياء من اجلها وقد طرح الفكرة بشكل عام وشكل خاص أيضا ، فربما نجده يتكلم عن الرسالات السماوية بمفهوم شمولي أو عن بعثة الأنبياء بشكل عام موضحا هذا الموضوع، وربما نجده يخصص حينما يتكلم عن نبي من الأنبياء عليهم السلام أو يذكر معاناتهم مع أقوامهم في سبيل تحقيق أهداف النبوة .

وقد ذكر الإمام علي (عليه السلام) عدد من الأنبياء بهذا الخصوص ولم يذكر الكل الا ان الافكار المطروحة بما ظهر من العموميات شكلت منطلق جيد لفهم فلسفة النبوة في فكر الامام (عليه السلام).

الجانب الأخر الذي تناولته الدراسة هو جانب وثيق الصلة بالجانب الأول هو ابعاد حياة الأنبياء الاجتماعية إذ نجد إن الإمام علي (عليه السلام) قد ركّز على مجموعة أمور بهذا الخصوص أهمها دراسة ألسلسلة التي انحدر منها هؤلاء الانبياء باعتبارهم قدوة للناس وباعتبار إن فلسفة النبوة تختار الأصلح ليكون كبير التأثير في نفوس الناس لهذا نجد الإمام علي (عليه السلام) يؤكد في أكثر من مناسبة في نهج البلاغة على هذه الامر وقد ضرب أمثلة متعددة عن الأنبياء.

أيضا تناول البحث جانبا اجتماعيا أخر يقع في نفس الإطار ويرسم نفس الصورة وهو مظاهر حياتهم الاجتماعية وانعكاسها على نبوتهم، وقد رسم الإمام علي (عليه السلام) صورا جميلة عن حياة عدد من الأنبياء تقاربت فيما بينها إلا إنها أوصلت نفس النتيجة عن حياة الأنبياء الاجتماعية وعن تواصلهم مع الناس .

واولى المظاهر تتجسد حينما ربط الإمام علي (عليه السلام) بين النبوة وبين عمل الأنبياء في معرض حديثه الذي هو ترغيب بالعمل بلا أدنى شك إذ ذكر أعمال عدد من الأنبياء التي كانت فيها عوامل مشتركة كثيرة أبرزها البساطة وقلة الوارد منها بما يحقق عدم الحاجة إلى الناس فقط وليس التملك أو البذخ، وأيضا تنوعت الأمثلة التي ذكرها الإمام علي (عليه السلام) عن عمل الأنبياء والتي ثبتت في البحث وكل حسب موقعه.

ايضا من ضمن المظاهر ذكر الإمام علي (عليه السلام) كذلك طعام الأنبياء إذ كانت الأمثلة التي وردت في نهج البلاغة تؤكد إن الأنبياء كانوا متشابهين في تناول الأطعمة فلا نجد من هو مختلف عنهم وان تباعد الزمن وإنما اشتركت صفات البساطة والقلة في الطعام عند جميع الأنبياء هذا فضلا عن موضوع زهدهم واخلاقهم وهي ابرز المظاهر التي وردت في هذا الاطار.

وتكمن أهمية هذه الدراسة بأنها تطرح مفهوم النبوة في فكر الإمام علي (عليه السلام) وبالتالي فأن معايشة الإمام (عليه السلام) للنبوة الخاتمة ربما يضعنا أمام صورة حية مثالية وليس نقليه أو استنتاجيه تحتمل الصواب والخطأ، فضلا عن انه (عليه السلام) أراد من ذكر هذه الجوانب الاجتماعية للأنبياء الإشارة إلى أكثر من موضوع في أن واحد فهو يتكلم عن صفات الأنبياء وربطها بهدف النبوة العام وهو في الوقت نفسه يجعل هذا الذكر بمثابة الوعظ للتخلق بأخلاق الأنبياء (عليهم السلام).

وقد اعتمدت الدراسة على مجموعة كبيرة من المصادر إلى جانب نهج البلاغة واهم المصادر والمراجع شروح النهج المتعددة القديمة منها والحديثة .

اولا فلسفةالنبوة

لقد أوضح الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة الكثير من الامور الخاصة بالنبوة والدعوة ابتداء من اسبابها الى المظاهر الكثيرة المتعلقة بها، ولعل فلسفة هذه النبوة تمثل جزء رئيس مما ذكره الإمام علي (عليه السلام)، اذ طرق هذا المفهوم على مستوى العموم والخصوص في آن واحد، فتارة يذكر النبوة بشكل عام، وتارة أخرى يخصص نبي من الانبياء (عليهم السلام) بالذكر، بيد أن الاستنتاج من كلامه الخاص يمكن ان يفهم على مستوى العموم ايضا .

وفيما يخص الاطار العام فكثيرا ما نجد الإمام علي (عليه السلام) يذكر بعثة الانبياء في مناسبة معينة مبينا سببا أو اكثر لها وم ذلك قوله (عليه السلام) «واصطفى سبحانه من ولده انبياء اخذ على الوحي ميثاقهم وعلى تبليغ الرسالة امانتهم لمّا بدّل اكثر خلقه عهد الله اليهم فجهلوا حقه واتخذوا الانداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته واقتطعتهم عن عبادته فبعث فيهم رسله وواتر اليهم انبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسّي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم آيات المقدّرة من سقف فوقهم مرفوع،ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم، وآجال تفنيهم....»[1]، أي ان الله سبحانه وتعالى قد ارسل الانبياء من اجل ترك عبادة الاصنام التي لا تضر ولا تنفع لعبادة الاله الواحد الذي يستحق العبادة[2].

الاّ أن التفحص الدقيق لكلام الامام علي (عليه السلام) يضعنا امام جملة من الامور المهمة في اطار موضوعنا يمكن أن ندرجها بما يأتي:

١- أن أختيار الانبياء هو عبارة عن أصطفاء وليس الاختيار بمعناه الذي يحمل عنصري السلب والايجاب.

٢- أن الامام علي (عليه السلام) أراد الاشارة الى ان الانسان يولد على الفطرة، وانه اما يخالف عهده مع الله أو يحافظ عليه.

٣- أن الشرك بالله تعالى هو ابرز موجبات بعثة الانبياء وهو في الوقت نفسه له اشكال وصور ولا يقع تحت اطار واحد.

٤- ان من اهداف البعثة ايضا التذكير بنعم الله تعالى التي تناساها خلقه، وتقديم الحجة عليهم حتى لا يقولوا بعدم التبليغ.

٥- أن للأنبياء هدف تعليمي، أو هدف إثارة عقول الخلق لتأخذ دورها الذي رسمه الله تعالى لها.

يذكر الامام علي (عليه السلام) هدف آخر للبعثة وهو القاء الحجة على الخلق بوساطة هؤلاء الانبياء، اذ قال (عليه السلام) «بعث اله رسله بما خصهم به من وحيه وجعلهم حجة له على خلقه لئلا تجب الحجة لهم بترك الإعذار اليهم فدعاهم بلسان الصدق الى سبيل الحق، الا ان الله تعالى قد كشف الخلق كشفة لا انه جهل ما اخفوه من مصون اسرارهم ومكنون ضمائرهم ولكن ليبلوهم احسن عملا فيكون الثواب جزاء والعقاب بواء»[3].

وهنا يوضح الامام علي (عليه السلام) كيف ان الله بعث رسلة الى الناس لكي لا يتحيروا ويحتجوا بجهلهم لثواب الله وعقابه[4].

كما أن الامام علي (عليه السلام) لم ينس جانب الأختبار وهو جانب يرتبط في بعض الأوجه بالأحتجاج أو ألقاء الحجة على الخلق كما مرّ أعلاه، دون فرق بين أختبار الملائكة أو باقي العباد، اذ قال (عليه السلام) «... ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين ليميز المتواضعين منهم من

---

١ . نهج البلاغة، ص١٠.

٢ . ينظر بيهقي خرساني، معارج نهج البلاغة ٢٠٨/١، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة ٧١/١، الحسيني الشيرازي، توضيح نهج البلاغة ص٢٣.

٣ . نهج البلاغة، ص١٤٣.

٤ . ينظر ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة ٦١/٩، مغنية، في ظلال نهج البلاغة ٣٢٠/٢، الموسوي، شرح نهج نهج البلاغة..

المستكبرين فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب «انى خالق بشرا منى طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم اجمعون الا ابليس...[1]»[2].

ولكن هذا لا يعني أن الله تعالى ارسل أرسل نبيه آدم (عليه السلام) لاختبار الملائكة فقط، وانما نجده (عليه السلام) ذكر في مناسبة أخرى أنه تعالى أرسل ادم (عليه السلام) لاسباب اخرى ايضا اذ يقول «... فاهبطه بعد التوبة ليعمر ارضه بنسله وليقيم الحجة به على عباده..»[3].

أي أن الله سبحانه وتعالى ارسل النبي ادم (عليه السلام) ومن ثمّ إعمار الأرض وإقامة الحجة التي مرّ ذكرها سابقا على وجه العموم ايضا[4].

ولعل ما ذكره (عليه السلام) عن هدف الاختبار يتوضح اكثر بقوله «الا ترون ان الله سبحانه اختبر الاولين من لدن ادم صلوات الله عليه الى الاخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولاتبصر ولا تسمع فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً ..»[5] وهنا يبين الامام علي (عليه السلام) ان الله سبحانه وتعالى خلق الانبياء (عليهم السلام) وجعل الناس محل اختبار بهم، وبتلك الاحجار التي لا تنفع ولا تضر وانما القضية معنوية تفوق المفهوم المادي الجامد[6].

وقد نجد أن الامام (عليه السلام) وكتحصيل حاصل يجمع الهدف من بعثة الانبياء بالتحذير من الدنيا بل وكشف عيوبها للخلق حتى لا يغتروا بها اذ قال (عليه السلام) «الحمد الله المعروف من غير رؤية والخالق من غير منصبه خلق الخلائق بقدرته واستعبد الارباب بعزته وساد العظماء بجوده وهو الذي اسكن الدنيا خلقه وبعث الى الجن والانس رسله ليكشفوا لهم عن غطائها وليحذروهم من ضرائها وليضربوا لهم امثالها وليبصروهم عيوبها ..»[7]. يبين الامام علي (عليه السلام) ان الله سبحانه وتعالى بعث الانبياء ليهدي بهم الخلق الى صراطه المستقيم[8].

وربما نجد ان الامام علي (عليه السلام) بما ذكره عن رسولنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قد اوضح الصورة اكثر عن الهدف والغاية والفلسفة من البعثة النبوية وذلك حينما قال: «... بلغّ عن ربه معذرا، ونصح لأمته منذرا، ودعا الى الجنة مبشرا، وخوف من النار محذرا»[9]. وقد بيّن الامام علي (عليه السلام) صفة النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وان الله بعثه يبشر المؤمنين بالجنة وينذر الكافرين النار وانه خلقه من احسن الخلق، مع التاكيد هنا على ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو من خير البرية بصفاته التي تمتع بها[10].

وهناك اسباب اخرى للبعثة غير ان الامام (عليه السلام) اوجزها باوضح المفاهيم التي ذكرناها اذ رسم لها هيكلية تكاد تكون متكاملة وواضحة المعالم وتتمحور حول عدة محاور:
أولها: الميل عن جادة الصواب بعبادة الشرك .
ثانيها: الاحتجاج على الناس بالنذير المرسل من الله تعالى.

---

١ . سورة ص ٧١-٧٤
٢ . نهج البلاغة، ص٢٠٨.
٣ . نهج البلاغة، ص٩٢.وينظر ص١٤٣.
٤ . ينظر حبيب الله الخوئي، منهاج البراعة ٢٢٢/١١، الحسيني الشيرازي، توضيح نهج البلاغة ص٣٩٠ الموسوي، نهج البلاغة ص٤٤١. د. محسن باقر الموسوي، علوم نهج البلاغة ص٤٠.
٥ . نهج البلاغة، ص ٢١٢.
٦ . ينظر حبيب الله الخوئي، منهاج البراعة ٢٨٦/١١، مغنية، في ظلال نهج البلاغة ١٢٩/٣، الموسوي، نهج البلاغة ص٤٥٢، د. محسن باقر الموسوي، علوم نهج البلاغة، ص ٣٦.
٧ . نهج البلاغة، ص ١٩٢.
٨ . ينظر بيهقي خرساني، معارج نهج البلاغة ٦٢٥/١، الحسيني الشيرازي، توضيح نهج البلاغة ص٣٦٠.
٩ . نهج البلاغة، ص١١٤. وينظر ص١٠٦، ص١٦٢،ص١٧٩.
١٠ . ينظر: الرواندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢٧٠/٢، مكارم شيرازي، نفحات الولاية ٣٨٧/٤.

ثالثها: اختبار الخلق بالدعوة الى الله تعالى.
رابعها: انتشال الخلق من شباك الدنيا.
خامسها: تأهيل عقول الخلق حتى تأخذ دورها الذي تستحقة والحصول على الاثار الناجمة عن هذا الامر.
سادسها: بيان الاء الله تعالى لعباده وضرورة شكره تعالى عليها بفعل الصواب وعدم الشرك.
ثانيا ابعاد حياة الانبياء الاجتماعية وانعكاسها على نبوتهم

أ- طهارة النسب والنشأة

لا شك ان طهارة نسب الانبياء واصلهم من الامور التي لم تختلف عليها المصادر لا سيما وان التواتر كان سيد الموقف في مجمل المعلومات الخاصة بهم، بيد أن ما يميّز ما طرحه الامام (عليه السلام) في نهج البلاغة هو أنه يمثل طرح العالم المطلع، فالامام (عليه السلام) ليس طارئا على نسب الانبياء وبيوتاتهم لذا نجده يصف هذا النسب بشكل متكامل اذ يقول «فاستودعهم في افضل مستودع واقرهم في خير مستقر تناسخنهم كرائم الاصلاب الى مطهرات الارحام كلما مضى منهم سلف قام منهم بدين الله خلف ....»[1] ويمكن فهم هذا الكلام والمطلب بسهولة لانه يعني بالجملة طهارة نسب الانبياء (عليهم السلام)[2] الاّ ان هناك ايحاءات اخرى في الموضوع يمكن ان نستجليها بما يأتي:

١- أن الامام علي (عليه السلام) يشير الى سلسلة نبوة وليس الى انبياء من اصول مختلفة.
٢- أنه (عليه السلام) يذكر طهارة الاباء والامهات في آن واحد.
٣- أن هذا الكلام هو بمثابة رد صريح على من حاول تكفير اباء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).
٤- أن دين الانبياء هو واحد من ابراهيم (عليه السلام) الى الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو دين الاسلام.

وقد خصص الامام علي (عليه السلام) بعض الانبياء في بيان اصولهم وطهارة نسبهم، فقد قال عن اختيار ادم (عليه السلام) «...اختار ادم (عليه السلام) خيرة من خلقه...»[3].

وهنا اشارة الى الاصطفاء، ولكن في الوقت نفسه ذكره بخير الخلق ومن ثمّ فأن ذلك يعود على الطهارة، وهذا ما أوضحه (عليه السلام) حينما خصص الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بالذكر إذ قال عنه «خير البرية طفلا، وانجبها كهلاً واطهر المطهرين شيمة واجود المستمطرين ديمة»[4] ولا يختلف اثنان على هذه الطهارة والسلسلة، او على الصفات التي ذكرها ذكرها الامام (عليه السلام) عنه[5].

بل انه يؤكد ما ذكره عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في مناسبة اخرى اذ يقول «اسرته خير اسرة وشجرته خير شجرة اغصانها معتدلة وثمارها متهدلة مولده بمكة وهجرته بطيبة ....»[6] وهذا توضيح وترجمة لكلامه السابق العام والخاص معا، أي انه (صلى الله عليه وآله

---

١ . نهج البلاغة – ص ٩٦.
٢ . ينظر ابن هشام، السيرة النبوية ١ / ٩٩، ابن سعد، الطبقات ٤ / ٣٤، الكليني، الكافي ١ / ٤٤١ ، ابن حزم، جمهرة انساب العرب ص٢، مكارم شيرازي، نفحات الولاية ١٥٩/٤.
٣ . نهج البلاغة، ص٩١.
٤ . نهج البلاغة - ص ١٥١ .
٥ . ينظر ابن اسحاق، السير والمغازي ص٦٩، اليعقوبي، التاريخ ٢٥١/١، الكليني، الكافي ٤٤١/١ الهيثمي، مجمع الزوائد: ٨ / ٢٢٥.
٦ . نهج البلاغة ص١٦٣ وينظر ص٩٧.

وسلم) ولد في اسرة هي خير الاسر ومن شجرة هي خير الشجر[1] وهنا اشارة الى موضع ولادة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وموضع هجرته وطهارة نسبه، ومن ثمّ فأن هناك صفة مشتركة في اصل الانبياء وهي رجوعهم الى اطهر الاصلاب .
اما بخصوص نشأة الانبياء وطبيعة حياتهم فلعل صفة المعاناة والبساطة لمجمل حياتهم تكاد تتكرر في اغلب الصور التي ذكرها الامام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة عنهم، فحينما ذكر موسى (عليه السلام) قال: ولقد دخل موسى بن عمران ومعه اخوه هارون (عليهما السلام) على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبايديهما العصى فشرطا له ان اسلم بقاء ملكه ودوام عزه فقال: «الا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل فهلا القي عليهما اساوره من ذهب ...»[2] ومن الطبيعي ان تكون صفة الانبياء هكذا حتى يكونوا ابلغ في التاثير، ولانها طبيعة حياتهم فعلا[3].

كما يمكن ان نستنتج ان الانبياء بطبيعة حياتهم هذه اصبحوا قدوة للخلق وممثلين لصورة من ابرز صور الايثار.
وقد اشار الامام (عليه السلام) الى هذا المفهوم ايضا عن نبي الله عيسى (عليه السلام) بقوله «ولم تكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه ولا مال يلفته ولا طمع يذله دابته رجلاه وخادمه يداه....»[4] يبين لنا الامام علي (عليه السلام) كيف كانت حياة النبي عيسى (عليه السلام)، وهي حياة متسمة بالبساطة لكون هدفه الذي يروم تحقيقه هو هدف كبير .[5]

وهناك اكثر من صورة ينقلها الامام علي (عليه السلام) من كلامه هذا عن النبي عيسى (عليه السلام) ابرزها ما يأتي:
١- أن الامام (عليه السلام) اراد الاشارة الى الاثر السيء الذي قد يتركه الافتتان بالمال والبنون، وهو الامر الذي انتفى في حياة النبي عيسى (عليه السلام).
٢- صورة الاعتماد على النفس في الحياة بناء على ما عرف به عيسى (عليه السلام) في مجمل حياته وفي عمله.
٣- صورة محاربة آفة اجتماعية خطيرة وهي آفة الطمع وبيان آثارها السلبية واهمها اذلال المرء.
وليس هذا فحسب وانما نجد الامام يذكر طرفا اخر من حياة النبي عيسى (عليه السلام) اذ قال «وان شئت قلت في عيسى ابن مريم (عليه السلام) فلقد كان يتوسد الحجر ويلبس الخشن ويأكل الجشب .....»[6] ويوضح لنا الامام علي (عليه السلام) ان النبي عيسى (عليه السلام) لم يكن مترف او محسوب على الملوك او الحكام[7].

فقد كان يأكل مما تنبته الارض لا ان يذل نفسه للغير، وكان يجلس على هذه الارض ولا يلبس لبس المترفين، بل كان بسيطافي كل شيء حتى قال الامام علي (عليه السلام) في مناسبة اخرى «...وكان ادامه الجوع وسراجه بالليل القمر وظلاله في الشتاء مشارق الارض ومغاربها ..»[1].

---

١ . ينظر ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٦٦/٩، الديار بكري، تاريخ الخميس ٤٥٩/١، المجلسي، البحار ١٣/١٥، الشوكاني، نيل الاوطار ٢٩٥/٨ محمد عبده، نهج البلاغة٢٧/١.
٢ . نهج البلاغة ص٢١٢.
٣ . ينظر حبيب الله الخوئي، منهاج البراعة ٢٦٨/١١، د. محسن باقر الموسوي، علوم نهج البلاغة، ص٣٧.
٤ . نهج البلاغة ص١٦١.
٥ . ينظر ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٦٢/٩، حبيب الله الخوئي، منهاج البراعة ٣١٥/٩، مغنية، في ظلال نهج البلاغة ٤٣٤/٢ .
٦ . نهج البلاغة، ص ١٦١.
٧ . ينظر ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٦٢/٩، حبيب الله الخوئي، منهاج البراعة ٣١٥/٩، مغنية، في ظلال نهج البلاغة ٤٣٤/٢.

وكذا الحال بالنسبة لرسولنا الكريم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي وصفه الامام علي (عليه السلام) بقوله «ولقد كان النبي صلى الله عليه واله ياكل على الارض ويجلس جلسة العبد وينهف بيده نعله ويرفع بيده ثوبه ويركب الحمار العاري ...»[٢].

والذي لو قارنا تصرفاته هذه بتصرفات عيسى (عليه السلام) والتي مرّ ذكرها لوجدنا التوافق شبه التام، مما يدل ان العمومية والوحدة هي التي تحكم افعال وحياة الانبياء (عليهم السلام).

ب – مظاهر حياة الانبياء الاجتماعية

ان دراسة مظاهر حياة الانبياء الاجتماعية ربما وكما هو متوقع لا تضع ايدينا على اختلافات بين الانبياء من هذه الناحية سواء من ناحية العمل او الطعام او العبادة والصفات الاخرى، وقد لا نجد امثلة عن الكثير من الانبياء في كلام الامام علي (عليه السلام) الالا بما يوضح الصورة وكما يأتي:

١- عمل الانبياء

على الرغم من ان الامام علي (عليه السلام) لم يذكر امثلة كثيرة عن عمل الانبياء الا انه اوضح طبيعة هذه الاعمال من وصفه لهم وتواضعهم اذ ان الانبياء كانوا بسيطين في عملهم وهذا ما يتوضح فيما ذكره عن نبي الله داود (عليه السلام) اذ قال في عمله «وان شئت ثلثت بداود (عليه السلام) صاحب المزامير وقارئ اهل الجنة فلقد كان يعمل سفائف الخوص بيده ...»[٣] ونلاحظ من هذا المثال ان الامام علي (عليه السلام) كان بوصفه لهذا العمل يريد بيان البساطة اولا والاعتماد على النفس ثانيا.

بل ان داود (عليه السلام) لم يكن يرغب الاّ بالاكتفاء وسد الرمق وليس غرضه جمع الاموال لذا فأن الامام (عليه السلام) كان يشير الى ان داود (عليه السلام) كان يبيع ما يصنعه لهذا الغرض ومن هنا ذكر الامام (عليه السلام) قول داود (عليه السلام) لجلسائه «...ايكم يكفيني بيعها ! ويأكل قرص الشعير من ثمنها..»[٤].

ومن خلال هذا الكلام نلاحظ ان الانبياء كانوا بسيطون حتى في عملهم او انهم يمارسون ابسط الاعمال بل ان طابع حياتهم هو البساطة[٥] وقد ميز هذا الامر شخصيات الانبياء عن غيرهم فكانوا مؤهلين للقيادة.

٢ - طعامهم:

لم يختلف طعام الانبياء عن الامور الاخرى التي تخص زهدهم وتواضعهم فقد عكس هذا الطعام ونوعيته نفس الصورة التي ذكرناها سابقا اذ انهم كانوا ياكلون ابسط الاطعمة واقلها ثمنا اذ ما قسناه حسب المفهوم المادي وهذا ما اشار له الامام علي (عليه السلام) حينما تحدث عن النبي داود (عليه السلام) وهو ما اسلفنا ذكره عن بيع السفائف وتحصيل قرص الشعير بثمنها، فالتقوت بالطعام سواء قرص الشعير اوغيره هو وسيلة هؤلاء الانبياء لكي يبقوا على قدر من القوة لتأدية واجبهم الرسالي لأن الطعام عندهم ليس غاية وانما وسيلة فقط لتحقيق اهداف سامية.

---

١ . نهج البلاغة، ص ١٦١. و ينظر ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٦٢/٩، حبيب الله الخوئي، منهاج البراعة ٣١٥/٩.

٢ . نهج البلاغة ص١٦٢. و ينظر ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٦٣/٩-١٦٤، حبيب الله الخوئي، منهاج البراعة ٣٣٨/٩، محمد عبده، نهج البلاغة ٧٠/١.

٣ . نهج البلاغة: ص١٦١. و ينظر ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٦١/٩، حبيب الله الخوئي، منهاج ٣١٣/٩.

٤ . نهج البلاغة: ص١٦١. و ينظر ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٦١/٩ ، مغنية، في ظلال نهج البلاغة ٤٣٣/٢.

٥ . ينظر ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٦٢/٩، حبيب الله الخوئي، منهاج البراعة ٣١٣/٩، مغنية، في ظلال نهج البلاغة ٤٣٣/٢.

ويشير الامام (عليه السلام) ان بعض الانبياء كان يأكل نبات الارض، وهذا ما ذكر عن نبي الله موسى (عليه السلام) اذ قال (عليه السلام) «وان شئت ثنيت بموسى كليم الله اذ يقول: «رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير »[1]، والله ما ساله الا خبزا ياكله لانه كان ياكل بقلة الارض، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله وتشذب لحمه»[2] يذكر الامام علي (عليه السلام) ان النبي موسى (عليه السلام) كان ياكل اكلا بسيطا لا يتكون من الخبز،ومشتقاته وهذا يدل على بساطة طعامه، وانما حشائش الارض فكان الخبز يمثل مرتبه عليا لم يجعلها موسى (عليه السلام) ضمن اولوياته لذا فانها عطية كبيرة بالنسبة له يحتاج معها الى الشكر للباري عز وجل[3].

وكذلك كان نبي الله عيسى (عليه السلام) يعتمد على نبات الارض ايضا اذ يصفه الامام علي (عليه السلام) بقوله «وفاكهته وريحانه ما تنبت الارض للبهائم»[4] أي انه لا يفرق بين انواع الطعام، فطعامه نباتات الارض التي تأكلها البهائم، ولكنه يعدها افضل انواع الاطعمة لطلبه العافية اولا لانها تمهد له الطريق لاكمال تكليفه ولا يعنى بانواع الطعام[5].

وعلى العموم فأن الانبياء (عليهم السلام) كانو يخاطبون الناس بهذه الامور لانهم قدوة المجتمع وكلامهم وعملهم مؤثر في غيرهم، ولكن هذا لا يعني ان ما ذكره الامام (عليه السلام) عنهم لم يكن يمثل طبيعة حياتهم الحقيقية وانما هو منسجم مع الهدف من بعثة الباري عز وجل لهم.

٣. زهدهـــم واخلاقهم:

لم يكن زهد الأنبياء امرا جديدا وانما هو جزء من تحصيل حاصل مما يتمتع به هؤلاء الانبياء، فقد كانوا زاهدين في الدنيا وكانوا دائمي العبادة لله سبحانه وتعالى ابتدءا من ادم (عليه السلام) الذي قال عنه الامام علي (عليه السلام) «... ثم امر ادم (عليه السلام) وولده ان يثنوا اعطافهم نحوه فصار مثابة لمنتجع اسفارهم وغاية لملقى رحالهم... »[6]، اي ان الله سبحانه وتعالى امر النبي ادم (عليه السلام) في ان يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به احدا، ويكون التوجه الى بيت الله تعالى حتى يكون النبي ادم (عليه السلام) مطبقا لما يريده للناس[7] ولم يتخذ الانبياء وقت خاص للعبادة وانما نجدهم نشيطين في كل الاوقات اذ يقول الامام علي (عليه السلام) «.. ان داود (عليه السلام) قام في مثل هذه الساعة من الليل(ساعة السحر) فقال: انها لساعة لا يدعو فيها عبد الا استجيب له الا ان يكون عشارا (جامع العشر) او عريفا (جاسوس الظالم)او شرطيا (من اعوان الحاكم) او صاحب عرطبة(الطنبور) او صاحب كوبه(الطبل) »[8].

وربما لا يشكّل هذا الامر ما يثير الاستغراب في عبادة الانبياء (عليهم السلام)، وهو الامر الذي يميزهم عن غيرهم فيقينا انهم يقيمون الليل بالعبادة وما حادثة داود (عليه السلام) والتي ذكرها الامام (عليه السلام) الاّ مثال بسيط، اذ ان الامام علي (عليه السلام) يبين كيف ان النبي داود (عليه السلام) كان يقوم الليل مبينا للناس فضل الدعاء ومضان الاجابة[9].

---

١ . القصص ٢٨
٢ . نهج البلاغة ص١٦١.
٣ . ينظر حبيب الله الخوئي، منهاج البراعة ٣١٢/٩، مغنية، في ظلال نهج البلاغة ٤٣٣/٢.
٤ . نهج البلاغة ص١٦١.
٥ . ينظر بيهقي خرساني، معارج نهج لبلاغة٥٦٩/٢، حبيب الله الخوئي، منهاج البراعة ٣١٥/٩، محمد عبده، نهج البلاغة ٢٩٨/٢، مغنية، في ظلال نهج البلاغة ٤٣٣/٢.
٦ . نهج البلاغة، ص٢١٣.
٧ . ينظر الموسوي، نهج البلاغة ص٤٥٢.
٨ . نهج البلاغة، ص ٣٦٨ .
٩ . ينظر ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة٣٤٧/١٨.

وقد وصف الامام علي (عليه السلام) زهد النبي عيسى (عليه السلام) بأنه يعد منهاج لمن يريد الزهد في الدنيا اذ قال في وصف الزاهدين «.. ثم قرضوا الدنيا قرضا على منهاج المسيح..»[1].

فقد عد الامام (عليه السلام) السيد المسيح (عليه السلام) ممثلا او دستورالمن يريد السير على هذا الدرب[2].

وكان الانبياء كما يرى الامام علي (عليه السلام) يصغرون الدنيا في عملهم وفي دعواهم ولا يعطوها اكثر من حقها لذا قال (عليه السلام) في ذكر النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) «قد حقّر الدنيا وصغرها واهون بها وهونها وعلم ان الله زواها عنه اختيارا وبسطها لغيره احتقارا فاعرض عن الدنيا بقلبه وامات ذكرها عن نفسه... »[3]، وهنا يبين كيف ان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) رأى هذه الدنيا بحقارتها، ومن ثم فأنه دعا الى عدم الاغترار بها لانها لا تستحق.[4]

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم
*ابن اسحاق، محمد ت ١٥١هـ ـ ٧٦٨م السير والمغازي، تحقيق سهيل زكار، دمشق، ١٩٧٦م .
* بيهقي خرساني، ظهير الدين ابي الحسن علي ت ٥٦٥هـ ـ ١١٧٠م معارج نهج البلاغة، ط١، طهران، ١٤٠٩هـ .
* حبيب الله الخوئي،الميرزا الهاشمي منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، تحقيق علي عاشور، بيروت-٢٠٠٨.
*ابن أبي الحديد، عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المعتزلي ت ٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد ابراهيم، بغداد-٢٠٠٩.
*ابن حزم، ابي محمد علي بن احمد ت ٤٥٦هـ
جمهرة انساب العرب، بيروت-١٩٨٣ .
الحسيني الشيرازي
توضيح نهج البلاغة، دار العلوم، بيروت-٢٠٠٨ .
*الديار بكري، الشيخ حسن بن محمد بن الحسن ت٩٨٢هـ ـ ١٥٧٤م تاريخ الخميس في أحوال أنفس ونفيس، مؤسسة شعبان، بيروت، د.ت .
*الراوندي، قطب الدين ابي الحسن سعيد بن هبة الله ت٥٧٣هـ ـ ١١٧٧م منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، قم، ١٤٠٦هـ .
*ابن سعد، محمد ت ٢٣٠هـ ـ ٨٤٤م الطبقات الكبرى، تحقيق أحسان عباس، بيروت، د .ت .
*الشوكاني، محمد بن علي بن محمد ت ١٢٥٥هـ ـ ١٨٣٩م نيل الاوطار من أحاديث سيد الاخيار، دار الجيل، بيروت، د . ت .
* محمد عبده،نهج البلاغة، القاهرة، د.ت.
*علي (عليه السلام)، الامام ت ٤٠هـ ـ ٦٦٠م نهج البلاغة،ضبط لجنة مشتركة،نسخة المعجم، بيروت، ١٩٩٠ .
* الشيخ الكليني، ت٣٢٩هـ ـ ٩٤٠م الكافي، تحقيق علي اكبر غفاري، ط٢، مطبعة الحيدري، طهران، ١٣٨٩م.

١ . نهج البلاغة، ص ٣٦٧ .
٢ . ينظر ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة ٣٤٧/١٨.
٣ . نهج البلاغة، ص ٢١٥ .
٤ . ينظر: مرتضى مطهري، في رحاب نهج البلاغة ص١٩٦، مكارم شيرازي، نفحات الولاية ٣٨٧/٤.

* محمد باقر محمد تقي المجلسي، ت ١١١٠هـ - ١٦٩٨م بحار الانوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٤هـ .
* مرتضى مطهري، في رحاب نهج البلاغة، ترجمة هادي اليوسفي، ط٢، دار التبليغ الاسلامي، بيروت، ١٤٠٠هـ.
* محمد جواد مغنية، في ظلال نهج البلاغة، قم – ١٤٢٨ .
*مكارم شيرازي نفحات الولاية- شرح عصري لنهج البلاغة- اعداد عبد الرحيم الحمراني قم- ١٤٢٦.
* السيد عباس علي الموسوي، نهج البلاغة، دار الرسول صلى الله عليه واله، بيروت،٢٠٠٨ .
* محسن باقر الموسوي،علوم نهج البلاغة، بيروت، ٢٠٠٣م .
* محمد بن عبد الملك ابن هشام، ت٢١٨هـ - ٨٣٣م السيرة النبوية، تحقيق رضولن جامع، القاهرة - ٢٠٠٥ .
* نور الدين الهيثمي، ت٨٠٧هـ -١٤٠٤م مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ .
* احمد بن اسحاق اليعقوبي، ت٢٩٢هـ - ٩٠٤م التاريخ، تحقيق العلامة محمد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، النجف الاشرف، ١٩٦٤م .

مع لغة الأمام علي (عليه السلام) في نهجه

الاستاذالمساعدالدكتور: محمد علي غناوي و طه هاشم الدليمي

جامعة ديالى/ كلية التربية الأساسية – اتحاد الأدباء في ديالى

المقدمة

في مرحلة الدراسة الابتدائية كنت أسمع عن كتاب نهج البلاغة وفي تلك المرحلة أطلعت على كتاب ألف كلمة وكلمة للإمام علي (عليه السلام).
وبعد أن أنهيت الدراسة الإعدادية حزت على كتاب نهج البلاغة شرح الأستاذ الإمام محمد عبده.
فدهشت مما سرده الشيخ محمد عبده في مقدمته الرائعة التي جاء فيها:(... وأحياناً كنت أشهد أن عقلاً نورانياً، لا يشبه خلقاً جسدانياً.
فصل عن الموكب الإلهي، واتصل بالروح الإنساني.
فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به إلى الملكوت الأعلى، ونما به إلى مشهد النور الأجلي...)[١].
فعكفت على الكتاب الجليل أقرأ فيه مستعيناً بشرح الشيخ على فهم معانيه. مقيداً الألفاظ الغريبة.
وبعد أن أطلعت على المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم الذي وضعه المستشرق الألماني فلوجل عام ١٨٤٠م.
قررت أن أصنع معجماً مفهرساً لألفاظ نهج البلاغة على غرار المعجم المفهرس لألفاظ القرآن.
فابتدأت بالخطبة الأولى وبدأت العمل في صيف عام ١٩٩٣م.
فأنجزت وريقاتٍ معدوداتٍ.
بيد أن تحول الظروف حالت دون إتمام العمل. وحينما وصلني دليل المؤتمر العلمي الذي سيقيمه مركز دراسات الكوفة وكلية التربية الأساسية - جامعة الكوفة - في ٢٧-٢٨/آذار/٢٠١١م.
تحت شعار:«نهج البلاغة سراج الفكر وسحر البيان» رجعت إلى تلك الوريقات لإكمال العمل لتقديمه كبحث معجمي في المؤتمر... أو تقديم نموذج مما يتيسر إنجازه منه - واستأنست برأي الأستاذ الحقوقي طه هاشم الدليمي هاتفياً - إذ كان قد حلَّ في مدينة النجف الأشرف فاستحسن الموضوع وشجعني.. وبعد يومين وإذا بالأستاذ طه يهاتفني بمفاجأة مفادها أن معجماً مفهرساً لألفاظ نهج البلاغة قد ورد إلى إحدى مكتبات النجف الأهلية، فابتاع لي نسخة منه فوجدتها كما خططت لها.
ولأنني قد أصررت على المشاركة في هذه التظاهرة العلمية الثقافية تشاورت مع الأستاذ طه هاشم بهذا الأمر فعرض عليَّ أن نبحث في ضروب كلام الإمام.فكان هذا البحث الذي نقدمه للمؤتمر.
داعين الله تعالى أن يوفق القائمين عليه به وبأمثاله لتزدهر مدينة باب العلم الأمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) الذي قال فيه نبينا العظيم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم): (أنا مدينة العلم وعلي بابها).
والله الموفق

تمهيد:

قال السيد الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ) في وصفه (نهج البلاغة): انه تضمن من عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربية وثواقب الكلم الدينية والدنيوية ما لا يوجد مجتمعاً في كلام ولا مجموع الأطراف في كتاب إذ كان أمير المؤمنين (عليه السلام) مشرع الفصاحة

---

١ . نهج البلاغة : ص٤، شرح الأستاذ الإمام محمد عبده، دار التعارف، لبنان.

وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها ومنه (عليه السلام) ظهر مكنونها وعنه أخذت قوانينها وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب وبكلامه استعان كل واعظ بليغ ومع ذلك فقد سبق وقصروا وتقدم وتأخروا وذكر أن كلامه (عليه السلام) الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه عبقه من الكلام النبوي[1].

وقال ابن أبي الحديد المعتزلي المتوفى سنة ٦٥٦ هـ ـ في وصف فصاحة الإمام (عليه السلام) (... وأما الفصاحة فهو (عليه السلام) إمام الفصحاء وسيد البلغاء وفي كلامه قيل: دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين....)[2].

وقال ... وانظر كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) فانك تجده مشتقاً من ألفاظه (ألفاظ القرآن) ومقضباً من معانيه ومذاهبه ومحذواً به حذوه ومسلوكاً به في منهاجه فهو وإن لم يكن نظيراً ولا نداً يصلح أن يقال أنه ليس بعده كلام أفصح منه ولا أجزل ولا أعلى ولا أفخم ولا أنبل إلا أن يكون كلام ابن عمه (عليه السلام) وهذا أمر لا يعلمه إلا من ثبتت له قدم راسخة في علم هذه الصناعة وليس كل الناس يصلح لانتقاد الجوهر بل ولا لانتقاد الذهب ولكل صناعة أهل ولكل عمل رجال)[3].

ولا عجب أن يكون كلامه (عليه السلام) بهذه المنزلة العظيمة من الفصاحة والملاحة والفضل والنبل وهو القائل في بعض كلامه (ألا إنّ اللسان بضعة من الإنسان فلا يسعده القول إذا امتنع ولا يمهله النطق إذا اتسع وإنّا لأمراء الكلام وفينا تنشّبت عروقه وعلينا تهدلت غصونه)[4].

ضروب كلامه (عليه السلام):

إنّ المتأمل لكلام الإمام علي (عليه السلام) ليجد أن كلامه الشريف جاء على ضروب وأساليب مختلفة كلها يمت إلى الفصاحة والبلاغة بأكثر من صلة ومن هذه الضروب:
الضرب الأول: كلامه الذي استمد من آية من آيات القرآن الكريم أو من لفظة شريفة من ألفاظ القرآن كما جاء في قوله (عليه السلام) (فماذا بعد الحق إلا الضلال المبين)[5].

وهو من قوله تعالى «**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ**»[6].

ونجد مثل هذا في قوله (عليه السلام) (ألا أن الله قد كشف الحق كشفة لا انه جهل ما أخفوه من حصون أسرارهم ومكنون ضمائرهم ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملا)[7].

ولا يخفى أن كلامه الأخير من قوله تعالى «**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**»[8].

ومن هذا قوله (عليه السلام) (أما بعد فأقم للناس الحج وذكرهم بأيام الله)[9].

وقوله الأخير من قوله تعالى «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ»[10].

ومن ذلك قوله (عليه السلام) في وصف الصالحين (وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم)[1].

---

١ . نهج البلاغة ١ / ٣ ـ ٤.
٢ . شرح النهج ١ / ٢٤.
٣ . المصدر المتقدم ٢ / ٨٣.
٤ . النهج ٢ / ٢٥٤.
٥ . النهج ٣ / ١٣٧.
٦ . يونس / ٣٢.
٧ . النهج ٢ / ٣٦.
٨ . هود / ٧.
٩ . النهج ٣ / ١٤٠.
١٠ . إبراهيم / ٥.

وهو من قوله تعالى في وصف المؤمنين: «تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً»[٢].

قال الشارح ابن أبي الحديد في قول الإمام المتقدم انه لفظ الكتاب العزيز)[٣].

وقد يستمد (عليه السلام) من لفظة قرآنية فيستعملها استعمالاً عربياً فصيحاً رائعاً كما في قوله (عليه السلام) في بعض وصاياه إلى بعض عماله (واخلط الشدة بضغثٍ من اللين)[٤].

وهو من قوله تعالى في قصة أيوب (عليه السلام) «وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ»[٥].

قال الدكتور إبراهيم السامرائي ـ رحمه الله ـ الضغث كل ما يخلط به وقد يكون الحزمة والباقة من النبت قالوا: أضغاث أحلام[٦].

ومما استند إلى القرآن الكريم واستمد منه من كلام الإمام وهو كثير قوله في التحذير من الشيطان (فاحذروا عباد الله عدو الله أن يعديكم بدائه وأن يستفزكم بندائه وان يجلب عليكم بخيله ورجله)[٧].

وهو من القرآن الكريم قال تعالى «وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ»[٨].

ومن استعماله اللفظ القرآني على وجه فصيح بديع قوله (عليه السلام) في كتاب له إلى عامله سهل بن حنيف (أما بعد فقد بلغني أن رجالاً ممن قبلك يتسللون إلى معاوية)[٩] وهذه اللفظة (يتسللون) قرآنية نطق بها القرآن الكريم في قوله تعالى «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً»[١٠].

وذهب ابن أبي الحديد إلى أن المراد أنهم يخرجون هاربين في خفية واستتار[١١].

ورأى كمال الدين ميثم بن علي البحراني ت ٦٧٩ هـ أن التسلل هو الذهاب واحداً بعد واحد[١٢].

وجاء في لسان العرب أنّ انسل وتسلل بمعنى إذا خرج بتأن وتدريج وأنسل من بين القوم يعدو إذا خرج في خفية يعدو وقال الفراء في(يتسللون) أن المراد يلوذ هذا بهذا ويستتر ذا بهذا وقال الليث: يتسللون وينسلون واحد[١٣].

ولا بد من القول هنا أن تضمين الإمام علي (عليه السلام) كلامه آية قرآنية جاء مقوياً لكلامه مؤيداً له وأن استعماله للفظ قرآني لم يكن استعمالاً كيفما اتفق بل كان استعمالاً سليماً فصيحاً كاشفاً عن دقة معرفته العميقة باللفظ القرآني الشريف.

---

١ . النهج ٢/٤٥.
٢ . السجدة / ١٦.
٣ . شرح النهج ١٦ / ٢٩٦.
٤ . النهج ٣ / ٨٥.
٥ . ص / ٤٤.
٦ . مع نهج البلاغة / ٢٣٨.
٧ . النهج ٢ / ١٦٣.
٨ . الإسراء / ٦٤.
٩ . النهج ٣ / ١٤٤.
١٠ . النور / ٦٣.
١١ . شرح النهج ١٨ / ٥٢.
١٢ . شرح البحراني / ٩٣٠.
١٣ . لسان العرب (سلل) ومعاني القرآن للفرّاء ٢ / ٢٩٢.

الضرب الثاني: من ضروب كلامه (عليه السلام) هو الكلام الذي وصف بأنه من الكلام الضارب في الفصاحة بسهم وافر وهو كثير ومن ذلك قوله (عليه السلام): (فإن الغاية أمامكم وان وراءكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر بأولكم آخركم).
قال السيد الشريف الرضي: إن هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه وتعالى وبعد كلام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بكل كلام لمال به راجحاً وبرز عليه سابقاً فأما قوله (عليه السلام) (تخففوا تلحقوا) فما سمع كلام أقل منه مسموعاً ولا أكثر محصولاً وما أبعد غورها من كلمة وانقع نطفتها من حكمة)[1].

ومن كلامه الفصيح جداً قوله (عليه السلام) (لقد كنت وما أهدد بالحرب ولا ارهب بالضرب)[2].

قال ابن أبي الحديد قوله: لقد كنت وما اهدد بالحرب معناه: ما زلت لا أهدد بالحرب والواو زائدة وهذه كلمة فصيحة كثيراً ما تستعملها العرب وقد ورد في القرآن لعزيز (كان) بمعنى (ما زال) في قوله تعالى «كَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً»[3].

ونحو ذلك من الآتي معنى ذلك: لم يزل الله عليماً حكيما[4].

ومن ذلك قوله (عليه السلام) الآتي لما عزم على حرب الخوارج وقيل له: إنهم قد عبروا جسر النهروان (مصارعهم دون النطفة) قال السيد الشريف معلقاً: يعني بالنطفة ماء النهر وهو أفصح كناية وان كان كثيراً جماً[5].

وقد تكرر في كلامه (عليه السلام) ذكر (النطفة) بمعنى النهر في قوله (وقد أردت أن أقطع هذه النطفة إلى شرذمة منكم موطنين أكناف دجلة).
أراد بالنطفة ماء الفرات وهو من غريب العبارات وعجيبها[6].

قد ذكر أهل اللغة أن النطفة هي الماء الصافي قل أو كثر والجمع النطاف[7].

ومن ذلك قوله (عليه السلام) في بعض أيام صفين وقد رأى الحسن ابنه (عليه السلام) يتسرع إلى الحرب (إملكوا عني هذا الغلام لا يهدني) قال الشريف: قوله (عليه السلام)(املكوا عني هذا الغلام) من أعلى الكلام وأفصحه[8]. وفسّر ابن أبي الحديد الكلام المتقدم قائلاً: الألف في (أملكوا) ألف وصل لأن الماضي ثلاثي من ملكت الفرس والعبد والدار املك بالكسر أي احجروا عليه كما يحجر المالك على مملوكه و(عن) متعلقة بمحذوف تقديره: استولوا عليه وأبعدوه عني ثم قال: ووجه علو هذا الكلام وفصاحته أنه لما كان في (أملكوا) معنى البعد أعقبه بـ (عن) وذلك أنهم لا يملكونه دون أمير المؤمنين (عليه السلام) إلا وقد أبعدوه عنه ألا ترى انك إذا حجرت على زيد دون عمرو فقد باعدت زيداً من عمرو فلذلك قال: املكوا عنّي هذا الغلام واستفصح الشارحون قول أبي الطيب:

إذا كان شم الروح أدنى إليكم فلا برحتني روضة وقبولُ

قالوا: ولما كان في (فلا برحتني) معنى (فارقتني) عدى اللفظة وإن كانت لازمة نظرا إلى المعنى: وقوله لا يهدني أي لئلا يهدني فحذف[9].

---

١ . النهج ١/ ٥٤.
٢ . النهج ١ / ٥٥.
٣ . النساء / ١٧٠.
٤ . شرح النهج ١ / ٣٠٥.
٥ . النهج ١ / ١٠٣.
٦ . النهج ١ / ٩٤.
٧ . اللسان (نطف).
٨ . النهج ٢ / ٢١٢
٩ . شرح النهج ١١ / ٢٥ ـ ٢٦.

والنظر إلى المعنى الذي أشار إليه ابن أبي الحديد هو الذي عرف في العربية بـ (الحمل على المعنى) وقد عدّ باباً من أبواب شجاعة العربية[1].

ومن فصاحته وكلامه العالي قوله سلام الله عليه (فجعلت اتبع مأخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأطأ ذكره حتى انتهيت إلى العرج).
قال الرضي: قوله (عليه السلام) (فاطأ ذكره) من الكلام الذي رمى إلى غايتي الايجاز والفصاحة أراد أني كنت أعطى خبره (صلى الله عليه وآله وسلم) من بدء خروجي إلى أن انتهيت إلى هذا الموضع[2].

ومن الشواهد الدالة على بلوغ كلامه الدرجة العالية في الحسن والفصاحة قوله (عليه السلام) فيما يعمل في أمواله (وأن لا يبيع من أولاد نخيل هذه القرى وديّة حتى تشكل أرضها غراساً) والودية هي الفسيلة وجمعها وديّ وقوله (حتى تشكل أرضها غراسا) من أفصح الكلام والمراد به أن الأرض يكثر فيها غراس النخل حتى يراها الناظر على غير تلك الصفة التي عرفها بها فيشكل عليه أمرها ويحسبها غيرها[3].

وقد ذهب الأستاذ الدكتور إبراهيم السامرائي ـ رحمه الله ـ إلى أن معنى (حتى تشكل أرضها غراساً) أن تنضج حتى يطيب رطبها[4].

يظهر أن الدكتور ابتعد عن المعنى الذي أراده علي (عليه السلام) ومن كلامه (عليه السلام) مما نحن فيه قوله في دعاء استسقى به (اللهم اسقنا ذلل السحاب دون صعابها).
قال السيد الرضي: وهذا الكلام العجيب الفصاحة وذلك انه (عليه السلام) شبّه السحاب ذوات الرعود والبوارق والرياح والصواعق بالإبل الصعاب التي تقمص برحالها وتقص بركبانها وشبّه السحاب خالية من تلك الروائع بالإبل الذلل التي تحتلب طيّعة وتقتعد مُسمحة[5].

الضرب الثالث: هو الكلام الكاشف عن قدرته الكبيرة على التصرف في الاستعمال اللغوي الدال على سعة العربية من جهة وتمكنه من الأخذ بزمام الكلام وتوجيهه على وجه مفضٍ إلى فصاحة وبيان عاليين من جهة أخرى والشواهد على ذلك كثيرة منها: قوله (عليه السلام) في كلام اخبر فيه عما ستؤول إليه أحوال الناس (فلئن أمر الباطل لقديماً فعل).
ونجد أن الإمام استعمل الفعل (أمر) بمعنى كثر وهو استعمال جميل قال الشيخ محمد عبده ـ رحمه الله ـ: ولئن أمر الباطل أي كثر بكثرة أعوانه فلقد كان منه قديماً لأنّ البصائر الزائغة عن الحقيقة أكثر من الثابتة عليها[6]. ورأى الدكتور إبراهيم السامرائي أن الفعل (أمر) الوارد في كلام كلام علي (عليه السلام) معناه صار أميراً[7].

ويظهر أن الحق مع الشيخ محمد عبده والدليل على أن الإمام علياً (عليه السلام) أراد بـ (أمر كثر قوله بعد ذلك (ولئن قلّ الحق) وقد جاء في العربية: أمر ماله أي كثر وأمر القوم كثروا[8].

ونتبين مما تقدم أنه (عليه السلام) نقل الكثرة التي ذكرها أهل اللغة للحال والرجال إلى الكثرة في الباطل وهذا توسع منه في الاستعمال اللغوي كما هو واضح.
ومن شواهد تصرفه (عليه السلام) في الصياغة اللغوية للفعل قوله (وقد أرعدوا وأبرقوا ومع هذين الأمرين الفشل ولسنا نرعد حتى نوقع ولا نسيل حتى نمطر)[1].

---

١ . الخصائص ٢ / ٣٦٠.
٢ . النهج ٢ / ٢٥٦.
٣ . النهج ٣ / ٢٦.
٤ . مع نهج البلاغة / ٢٢٥.
٥ . النهج ٣ /٢٦٥.
٦ . النهج ١ / ٤٤ وشرح النهج ١ / ٢٧٢.
٧ . مع نهج البلاغة / ٣٤.
٨ . الصحاح (أمر).

وأرعد الرجل وأبرق يقال هذا إذا أوعد وتهدد وكان الأصمعي ينكر ويزعم انه لا يقال إلا رعد وبرق ولّما احتج عليه ببيت الكميت:

أرعد وأبرق يا يزيد فما وعيدك لي بضائر

قال: الكميت قروي لا يحتج بقوله

قال ابن أبي الحديد: وكلام أمير المؤمنين حجة دالة على بطلان قول الأصمعي[٢].

ولا نشك في أن إسناده (عليه السلام) الإرعاد والإبراق إلى أعدائه وإسناده الرعد والسيل والإمطار إلى نفسه والى جماعته من الإسناد المجازي الجميل.

ومن شواهد تصرفه في البناء الفعلي للجملة قوله لابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل: (تزول الجبال ولا تزل.... أعر الله جمجمتك تِد في الأرض قدمك)[٣].

ومن المعلوم أن (تِد) فعل أمر من الفعل وتد يتد والمراد: ثبتها وأجعلها ثابتة كما يثبت الوتد في الأرض وقوله: (تزول الجبال ولا تزل) خبر فيه معنى الشرط وتقديره: إن زالت الجبال فلا تزل أنت كما قال ابن أبي الحديد[٤].

ومن شواهد هذا الضرب قوله في بيان فضل آل محمد صلوات الله عليهم (بنا اهتديتم في الظلماء وتسنتم العلياء وبنا انفجرتم عن السِّرار).

أراد (عليه السلام) بقوله الأخير: دخلتم في الفجر والسرار في اللغة الليلة والليلتان يستتر فيهما القمر في آخر الشهر فلا يظهر وروي (افجرتم) وهو أفصح وأصح لأن انفعل لا يكون إلاّ مطاوع (فعل) نحو: كسرته فانكسر،وحطمته فانحطم إلاّ ما شذ من قولهم: أغلقت الباب فانغلق وأزعجته فانزعج، وأيضاً فإنه لا يقع إلاّ حيث يكون علاج وتأثير نحو: انكسر وانحطم ولهذا قالوا: إن قولهم انعدم خطأ، وأما أفعل فيجيء لصيرورة الشيء على حال وأمر نحو: أغدّ البعير أي صار ذا غدة وأجرب الرجل إذا صار ذا ابلٍ جربى وغير ذلك فافجرتم أي صرتم ذوي فجر وأما (عن السرار) فهي للمجاوزة على حقيقة معناها الأصلي أي منتقلين عن السرار متجاوزين له[٥].

الضرب الرابع: هو الكلام الجاري مجرى المجاز والاستعارة ولا يكاد يحصى كثرة ومن شواهده: قوله (عليه السلام) لما أظفره الله بأصحاب الجمل وقد قال له بعض أصحابه: وددت أن أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك.

فقال له (عليه السلام): أهوى أخيك معنا ؟ فقال: نعم، قال: فقد شهدنا ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان[٦].

ولنا أن نلاحظ جمال التعبير في (سيرعف بهم الزمان) قيل: إن المراد بهذا أن الزمان سيوجدهم ويخرجهم كما يرعف الإنسان بالدم الذي يخرجه من أنفه قال الشاعر:

وما رعف الزمان بمثل عمرو ولا تلد النساء له ضريبا[٧]

وقيل أنه (عليه السلام) استعار لفظ الرعاف وهو الدم الخارج من أنف الإنسان لوجودهم وفيه تشبيه للزمان بالإنسان وإنما نسب وجودهم إلى الزمان لأنه من الأسباب المعدّة لقوابل وجودهم[٨].

---

١ . النهج ١ / ٣٨.
٢ . شرح النهج ١/ ٢٣٧ وينظر لسان العرب في (رعد).
٣ . النهج ٣٩/١.
٤ . شرح النهج ١/ ٢٤١.
٥ . شرح النهج ٢٠٨/١ وينظر مع نهج البلاغة / ٢٨٢.
٦ . النهج ٣٩/١.
٧ . شرح النهج ٢٤٧/١.
٨ . شرح النهج للبحراني /١٤٧.

ومن هذا الضرب قوله (عليه السلام) في خطبة له يصف فيها المنافقين ويذكر محاربة قريش للنبي صلى الله عليه وآله (وضربت إلى محاربته بطون رواحلها حتى انزلت بساحته عداوتها).
وأرد (عليه السلام) بالعداوة الحرب فعبّر عنها بالعداوة لأن العداوة سبب الحرب فعبّر بالسبب عن المسبّب ومثل هذا قول العرب في كلامها: ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناك يعنون الماء لمّا كان اعتقادهم أن السماء سبب الماء[١].

ومن ذلك قوله (عليه السلام) (المرء مخبوء تحت لسانه).
وقد علق الشارح ابن أبي الحديد على هذا الكلام قائلاً: فأما هذه اللفظة فلا نظير لها في الإيجاز والدلالة على المعنى وهي من ألفاظه (عليه السلام) المعدودة[٢].

والحق أن هذا الكلام لا يخلو من المجاز لاستحالة أن يكون الإنسان مخبوءً تحت اللسان والمعنى أن جمال المرء أو قبحه مخبوء تحت لسانه.
ومن شواهد الاستعارة قوله (نحن النمرقة الوسطى التي يلحق بها التالي وإليها يرجع الغالي) والنمرق والنمرقة وسادة صغيرة ويقال للطنفسة فوق الرحل نمرقة والمراد أن آل محمد عليه وعليهم السلام هم الأمر المتوسط واستعار لفظ النمرقة لهذا المعنى لما كانوا يقولون: ركب فلان من الأمر منكراً وقد ارتكب الرأي الفلاني وكانت الطنفسة فوق الرحل مما يُركب استعار لفظ النمرقة لما يراه الإنسان مذهباً يرجع إليه ويكون كالراكب عليه والجالس عليه والمتورك فوقه[٣].

ونتأمل قوله (عليه السلام) (من أحدّ سنان الغضب قوي على قتل أشدّاء الباطل) فنجد أن فيه استعارة تدل على الفصاحة والمعنى أن من أرهف عزمه على إنكار المنكر وقوي غضبه في ذات الله ولم يخف ولم يراقب مخلوقاً أعانه الله على إزالة المنكر...[٤] .

الضرب الخامس: هو الكلام الذي يظهر شيئاً من تصرفه (عليه السلام) في الجموع المختلفة ومن ذلك قوله (عليه السلام) (فتداكوا عليّ تداكّ الأبل الهيم يوم ورودها قد أرسلها راعيها وخُلعت مثانيها..)[٥].

والمثاني هنا الحبال جمع مثناة بفتح الميم وكسرها وهو الحبل[٦].

أما (الهيم) فهي لفظة قرآنية وردت في قوله تعالى «فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ»[٧].

قال الفرّاء: والهيم الأبل التي يصيبها داء فلا تروى من الماء واحدها أهيم والأنثى هيماء ومن العرب من يقول: هائم والأنثى هائمة ثم يجمعونه على هيم كما قالوا: عائط وعيط وحائل وحول..[٨].

وذكر الدكتور إبراهيم السامرائي أن الإبل الهيم هي العطاش قال: وجمل هيمان وناقة هيمى والجمع هيام بالكسر[٩].

وجاء في اللسان: الجوهري وغيره: والهيام بالكسر الإبل العطاش الواحد هيمان[١٠].

ومن جمع الأسماء قوله (عليه السلام) في وصف خلقة الطاووس (وما ذرأ من مختلف صور الأطيار)[١].

---

١ . شرح النهج ١٠/١٦٥.
٢ . شرح النهج ١٨/٣٥٣.
٣ . شرح النهج ١٨/٤٠٥.
٤ . النهج ١/٩٩.
٥ . شرح النهج ٤/٦.
٦ . شرح النهج ٤/٦.
٧ . الواقعة / ٥٥.
٨ . معاني القرآن ٣/١٢٨.
٩ . مع نهج البلاغة ٣٥٤.
١٠ . اللسان (هيم).

قال في القاموس: والطير جمع طائر وقد يقع على الواحد جمعه طيور وأطيار[٢].

وقال (عليه السلام) في وصف الطاووس أيضاً (ونسقها على اختلافها في الأصابيغ بلطيف قدرته)[٣].

والأصابيغ جمع أصباغ وأصباغ جمع صبغ[٤].

ومن هذا قوله (عليه السلام) في وصف خلق السماء (ونظم بلا تعليق رهوات فُرَجها)[٥].

والرهوات جمع رهوة أي المكان المرتفع ويقال للمنخفض أيضاً فهو من الأضداد والفرج جمع فرجة بضم فسكون وهي المكان الخالي[٦].

ونجد في خطبة الأشباح جموعاً مختلفة منها: (عزيمات اليقين) و (مسارق إيماض الجفون) و (غيابات الغيوب) و (مصائخ الأسماع) و (مصائف الذر) و (مشاتي الهوام) و (غيران الجبال) و (شناخيب الجبال) و (هماهم كل نفس هامة) و (تدابير المخلوقين).
والعزيمات جمع عزيمة وهي التي يعقد القلب عليها وتطمئن النفس إليها والغيابات جمع غيابة وهي قعر البئر في الأصل ثم نقلت إلى كل غامض خفي ومصائخ الأسماع خروقها التي يُصيخ بها أي يتسمّع بها ومصائف الذر المواضع التي يصيف فيها أي يقيم الصيف فيها والموضع مصيف ومصطاف والذر جمع ذرة وهي صغار النمل والمشاتي المواضع التي تشتو فيها الهوام والهوام جمع هامة ولا يقع هذا الاسم إلاّ على المخوف من الأحناش وغيران الجبال جمع غار وهو الكهف في الجبال والشناخيب الرؤوس الواحد منها شُنخوب والهماهم جمع همهمة وهي تردد الصوت في الصدر[٧].

وترد في كلام علي (عليه السلام) أنواع من الجموع نادرة قلّ أن نجدها في غير النهج من ذلك قوله (عليه السلام) من كلام في حث أصحابه على القتال (وأنتم لهاميم العرب) وقوله (وحتى يُرقوا بالمناسر تتبعها المناسر ويُرجموا بالكتائب تقفوها الحلائب وحتى يجر ببلادهم الخميس يتلوه الخميس وحتى تدعق الخيول في نواحر أرضهم وبأعنان مساربهم ومسارحهم[٨].

وقوله (عليه السلام) في ذكر الملاحم (وتخرج له الأرض من أفاليذ أكبادها)[٩].

وقوله (عليه السلام) في الاستسقاء (حين الجأتنا المضايق الوعرة وأجاءتنا المقاحط المجدبة واعيتنا المطالب المتعسرة وتلاحمت علينا الفتن المستصعبة)[١٠].

والشواهد على تصرفه (عليه السلام) في الجموع المختلفة كثيرة وقد أوردنا منها ما يكون شاهداً على تفننه (عليه السلام) في الكلام وتلوينه والتنقل به من أسلوب إلى أسلوب ولا يليق بكلامه (عليه السلام) مثل هذه العجالة فإن كلامه أهل لكل بحث ودرس واستقصاء لعلوّه وجماله وسموّه وقد شهد بهذا أهل الفن والمتصدرون لشرح كلامه (عليه السلام) وقد قال الشريف الرضي: وأني لأقول أبداً إنه لو كان كلام يلحق بغباره أو يجري في مضماره بعد كلام الرسول

---

١ . النهج ٨٧/٢.
٢ . القاموس المحيط (الطيران).
٣ . النهج ٨٧/٢.
٤ . شرح النهج ٢٦٧/٩.
٥ . النهج ١٦٥/١.
٦ . النهج ١٦٥/١.
٧ . شرح النهج ٢٦/٧-٣٠.
٨ . النهج ٧/٢.
٩ . النهج ٣٠/٢.
١٠ . النهج ٣٥/٢.

صلى الله عليه وآله لكان ذلك كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) إذ كان منفرداً بطريق الفصاحة لا تزاحمه عليها المناكب ولا يلحق بعقوه فيها الكادح الجاهد[1].

والحمد لله أولاً وآخراً وبه التوفيق.

الخاتمة

يختتم هذا البحث بفضل الله تعالى، بعد قضاء رحلة ممتعة في رحاب كتاب نهج البلاغة الذي احتوى مختار كلام الإمام في جميع فنونه، ومتشعبات غصونه من خطب ومواعظ وآداب عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربية وثواقب الكم الدينية والدنيوية ما لا يوجد مجتمعاً في كلام ولا مجموع الأطراف في كتاب، فاخترنا ما اخترناه مما بدا لنا من ضروب هذا الكلام الذي جعلناه في ضروب ثلاثة كما رأيناه..

واستشهدنا على هذه الضروب بالأمثلة التي أوردناه مما حواه كتاب النهج.

كما ضم البحث طائفة من الألفاظ التي وجدناه قد استخدمت استخداماً خاصاً تميزت عن استخدامها في كتب اللغة التي تناولت الموضوعات كصيغ الجمع المختلفة كما مر في صفحات البحث.

وهنا نوصي باعتماد خطب الإمام في كتب اللغة والأدب المنهجية في المراحل الدراسية المختلفة لينهل منها طلبة العلم ولترتقي لغتهم العربية إرتقاءً نحوياً وبيانياً على أن تطبع على وفق خاصية الطبيعة الحركية للغة العربية.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- حقائق التأويل في متشابه التنزيل، السيد الشريف الرضي(ت٤٠٦هـ)، شرح محمد الرضا آل كاشف الغطاء، دار الأضواء، بيروت،الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

٢- الخصائص، صنعة أبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار (١ـ٣)، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٣- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج١ ـ ٢٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م.

٤- شرح نهج البلاغة، كمال الدين ميثم بن علي البحراني (ت٦٧٩هـ) ج١ـ٥، مكتبة فخراوي البحرين، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

٥- الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، مرتب ترتيباً الفبائياً، تأليف أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٨هـ)، راجعه واعتنى به د. محمد محمد ثامر وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٩م.

٦- القاموس المحيط، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار الجيل، بيروت، د.ت، ج١ـ٤.

٧- لسان العرب، ابن منظور، طبعة مراجعة ومصححة، لجنة من السادة والأساتذة المتخصصين، ج١ـ٩، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٨- مع نهج البلاغة، دراسة ومعجم، د. إبراهيم السامرائي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

٩- معاني القرآن للفرّاء، بتحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، ج١ـ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.

١٠- نهج البلاغة، شرح الإمام محمد عبده، طبعة دار الأندلس، بيروت.

---

١ . حقائق التأويل ١٦٧.

١١- نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٠م.